العربية والغموض

دراسة لغوية في دلالة المبني على المعنى

الأستاذ الدكتور

حلمي خليل

أستاذ علم اللغة

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



العربيـــة والغمــوض

(دراسـة لغويـة)

دكتور

حلمي خليل

أستـــاذ عـلـم اللـغـة

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الثانية

2013



كتاب

عدد الصفحات : 238

المؤلف : دكتور حلمي خليل

عنوان الكتاب : العربية والغموض

رقم الإيداع : 2 -764- 273 -977 -978

الترقيم الدولي : 1724 -2012



الإدارة : ٣٦ ش سوتير - الأزريطة - أمام كلية الحقوق
جامعة الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

تليفون : 163 70 48 00203 فاكس : 454 30 48 00203
محمول : 913 1666 0122 002

الفرع : ٢٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - الإسكندرية
Email: darelmaarefa@gmail.com
d_maarefa@yahoo.com
Web site: www.darelmaarefa.com

مقدمة الطبعة الأولي

يتناول هذا البحث ظاهرة الغموض فى المعنى، بما لها من صلة بالمبنى وهى دراسة لغوية فى المقام الأول، على الرغم من أن الحديث عن الغموض قد شاع وذاع فى الآونة الأخيرة فى دراسات النقاد وعلماء الأدب حتى ظن بعض الباحثين أن تناول هذه الظاهرة بالدراسة والتحليل هى أقرب إلى الدرس النقدى والأدبى منها إلى الدرس اللغوى.

وقد أردت بدراسة هذه الظاهرة أن أعرض أولا دراسات القدماء من العرب عرضا يتسم بالشمول والتنظيم، لأن حديث القدماء عن الغموض حديث مفرق متناثر فى دراسات المفسرين والأصوليين واللغويين، والنحاة والبلاغيين. كما كانت عناية القدماء بالتطبيق فى دراستهم لهذه الظاهرة، أكثر من عنايتهم بالتنظير، كما هو شأنهم دائما، ولكن الذى لاشك فيه أن ظاهرة الغموض بما لها من صلة ببنية الكلام قد لفت أنظار القدماء منذ وقت مبكر، ولم يمنعهم إيمانهم العميق بإعجاز القرآن الكريم وقدسيته، من دراستها من خلال آياته، وقد استخدموا فى الدلالة على ذلك مصطلحات كثيرة أشاروا بها إلى غموض المعنى ودرجات هذا الغموض مثل تعدد المعنى، وغير ذلك، سواء فى القرآن الكريم أو الشعر، وتعددت هذه المصطلحات واختلفت باختلاف العلماء بين مفسرين ولغويين ونحاة وأصوليين وبلاغيين. وفى أحيان كثيرة كان المصطلح الواحد يتردد بأكثر من مفهوم فى كل بيئة من هذه البيئات العلمية، ولكنها كانت تتفق جميعا على خفاء المعنى أو عدم وضوحه أو تعدده، سواء فى المفردات أو التراكيب.

وكما تعددت المصطلحات الدالة على الغموض عندهم اختلفت الأسباب التى عزوا إليها غموض المعنى وإبهامه، فكانت أحيانا بسبب من البنية الصوتية للكلمة والكلام، أو بسبب من تعقد التركيب النحوى، أو بعد الإستعارة والتشبيه واستغلاقهما أو وضعهما وضعا لم يألفه عمود الشعر العربى.

ولذلك كان من الضرورى الوقوف على جوانب هذه الظاهرة عند القدماء، وجمع ماتناثر من ملاحظاتهم حولها، ووضعها فى إطار منهجى واضح يبرز تصور القدماء لها وتتبعهم لأمثلتها وتحليلهم لمظاهرها ورصدهم لأسبابها وعللها، وبخاصة من الناحية اللغوية.

وإذا كان القدماء قد تناولوا ظاهرة الغموض ودرسوها على النحو الذى سنراه فى هذا البحث، فإن عناية علماء اللغة والأسلوب والنقاد الأوروبيين فى العصر الحديث، لم تكن أقل من عناية القدماء فى الاهتمام بهذه الظاهرة، بل لقد كان المبرر الوحيد الذى قدمه عالم اللغة المعاصر نعوم تشومسكى بين يدى نظريته اللغوية أنها قادرة على تفسير

ظاهرة الغموض فى دلالة بعض التراكيب النحوية مما عجزت عن تفسيره النظريات اللغوية السابقة عليها، واستند فى تفسير الغموض فى مثل هذه التراكيب إلى أن معنى جملة مايتوقف على بنيتها العميقة Underlying Structure لاعلى بنيتها الظاهرة Sur-face Structure وأن السامع يتوصل إلى هذه البنية العميقة من خلال ظاهر اللفظ، ومع ذلك فقط يكون لجمل مختلفة فى ظاهر اللفظ معنى واحد لأن لها بينة عميقة واحدة. وقد تكون الجملة الواحدة لها أكثر من معنى لأن لها عدة بنى عميقة.

وقد اتخذ بعض علماء الأسلوب من نظرية تشومسكى مدخلا لتفسير كثير من ظواهر الغموض التى وقعت فى لغة بعض الكتاب والشعراء وأضافوا ملاحظات أخرى بجانب هذه النظرية تتعلق أحيانا بالأداء الصوتى أو غموض الصور الفنية.

كما تطرق علم اللغة النفسى Psycholinguistics، وهو فرع حديث نسبيا من فروع علم اللغة، يدين بوجوده لنظرية تشومسكى، تطرق هذا العلم، إلى ظاهرة الغموض، بما لها من صلة بقدرة السامع على استخلاص المعنى من خلال مايسمعه من ألفاظ وتراكيب، وعلل لغموض المعنى وإبهامه، إما بتعقد التراكيب النحوية، أو طول الجملة أو كثرة الجمل الفرعية، أو عدم وضوح دلالة بعض المفردات نتيجة لتعدد معناها أو عدم معرفة السامع لدلالتها.

وهذا البحث يحاول أن يعرض أولا لجوانب ظاهرة الغموض عند القدماء وبخاصة من الجانب اللغوى، كيف رصدوها وحللوها، وما المصطلحات الدالة عليها عندهم، ومامظاهرها على مستوى المفرادت والتراكيب، وذلك فى إطار من النظرية اللغوية الحديثة، وسنرى من خلال هذا البحث كيف اتفق القدماء والمحدثون فى رصد مظاهر الغموض والتعليل له، وإن اختلفت طرق التعليل والتحليل.

ولذلك قسمت البحث إلى تمهيد وستة فصول، جعلت التمهيد فيه لعرض ودراسة الإطار العام الذى جرى فيه تصور القدماء والمحدثين لظاهرة الغموض ومظاهرها وأسبابها، وخلص الجانب الأكبر من هذا التمهيد للمحديثن من علماء اللغة والأسلوب، نظرا لأن البحث يعطى أهمية لآراء القدماء، وعلى هدى من هذا التصور عند المحدثين والقدماء جعلت الفصل الأول من البحث لدراسة الغموض عند علماء غريب القرآن ومشكله، فعرضت لمظاهره التى تمثلت أكثر ماتمثلت فى كثير من المفردات وبعض التراكيب، ورصدت أهم المصطلحات الدالة على الغموض عندهم، وتفسيرهم لهذه الظاهرة ومنهجهم فى تناولها.

وفى الفصل الثانى تعرضت لجهود علماء أصول الفقه فى دراسة المعنى بشكل عام والغموض بصورة خاصة، واهتمام هؤلاء العلماء بقضية المعنى اهتمام أصيل فى الدرس الأصولى واللغوى عند العرب لارتباط قضية المعنى عندهم بالتشريع والحلال والحرام، ومن ثم كان اهتمامهم بظاهرة الغموض الدلالى يفوق غيرهم من العلماء فرصدوا مظاهر الغموض فى المعنى وعللوا لأسبابه،وكان منهجهم فى دراسته منهجا لغويا خالصا يقوم على تحليل دلالة اللفظ والنظر إلى دلالة التراكيب من خلال البنية النحوية، كما استخدموا فى ذلك مصطلحات عدة فرقوا بها بين الغموض على مستوى المفردات والغموض على مستوى التراكيب.

وفى الفصل الثالث من هذا البحث تناولت جهود اللغويين والنحاة فى دراسة الغموض، وكان جل اهتمام النحاة منصبا على التراكيب وإن أشاروا إلى دور المفردات فى غموض المعنى واستخدموا للدلالة على الغموض مصطلحا واحدا هو «اللبس» الذى يدل عندهم على غموض المعنى بسبب من التركيب، وذلك فى مقابل «أمن اللبس» للاحتياط الواجب فى التركيب حتى لايحدث اللبس. أما اللغويون فقد انصب اهتمامهم على المفردات دون التراكيب، وتناولوا ظاهرة الغموض من خلال تعدد المعنى فى اللفظ الواحد بسبب من الترادف أو الاشتراك اللفظى، أو الأضداد.

وفى الفصل الرابع عرضت لجهود البلاغيين فى دراسة الغموض، وكان اهتمامهم موجها إلى دراسته من خلال اللغة الأدبية، كما تتمثل فى الشعر والنثر، ورصدوا مظاهره على مستوى المفردات والتراكيب والصور الفنية كالتشبيه والاستعارة، وانفردوا بالإشارة إلى علاقة التركيب الصوتى للكلام بغموض المعنى وابهامه.

أما الفصلان الخامس والسادس فقد خصصتهما للدراسة التحليلية لظاهرة الغموض من الناحية اللغوية فتناولت فى الفصل الخامس ظاهرة العموض بين النطق والكتابة، عرضت فيه لظواهر الغموض بسبب اختلاف النطق، وخاصة نتيجة للتداخل اللغوى Interferance أو نقل بعض الأصوات Transfer كما يتمثل ذلك فى لغة الأعاجم والمولدين ممن دخلوا الإسلام وحاولوا تعلم اللغة العربية، وقد رصد الجاحظ جانبا كبيرا من هذا، كما درست فى هذا الفصل ظاهرة الغموض بما لها من صلة بالبنية الصوتية للكلام، وخاصة فى الشعر، ثم تناولت ظواهر الغموض المختلفة فى اللغة المكتوبة التى وقعت فيها بسبب من التصحيف والتحريف.

أما الفصل السادس والأخير من هذا البحث، فقد جعلته لدراسة وتحليل ظواهر الغموض بسبب من التركيب اللغوى ركزت فيه على التحليل والتفسير من الناحية اللغوية، واستعنت في ذلك بالنظرية اللغوية الحديثة، وبعلم اللغة النفسى.

والبحث على هذا النحو لم يترك بيئة من البيئات العلمية التى تناولت ظاهرة الغموض اللغوى بالدراسة والبحث إلا وعرض لها، باستثناء الصوفية الذين استخدموا الغموض فى لغتهم أكثر من دراستهم له أو البحث فى جوانبه. وقد تركت الغموض عند الصوفية عن قصد، فالواقع أن لغة الصوفية عسيرة الفهم لأنها تقوم على معجم خاص يحتاج إلى درس مفرد يتتبع مظاهر الغموض فيها وصلة ذلك بالرمز ودلالته، سواء على مستوى المفردات أو التراكيب، وهو ما أرجو أن أفرغ له قريبا.

وقد ختمت البحث بأهم النتائج التى توصلت إليها. فإذا كان قد نجح فى عرض ودراسة جهود القدماء لظاهرة الغموض فى إطار من النظرية اللغوية الحديثة فقد حقق الهدف الذى كُتب من أجله وإلا فحسبى المحاولة، والله من وراء القصد، منه الهدى والتوفيق.

حلمي خليل

الخامس من ربيع الثاني سنة ١٤٠٨ هـ

الثالث من ديسمبر سنة ١٩٨٧ م

مقدمة الطبعة الثانية

نُشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٨٧م أى منذ خمسة عشر عاما، وقد نفدت هذه الطبعة بعد عام من نشرها، ومع ذلك مازال الكتاب يُطلب منى أحيانا، ومن الناشر كل حين، ووعدته بالنظر فى إعادة طبعه.

ولكن الدنيا شرّقت بى وغرّبت، ونسيت أمر الكتاب وإعادة الطبع، حتى ذكرنى به أخيرا عدد من تلاميذى، فأخرجت النسخة الوحيدة الباقية عندى، وأخذت أقلب فى صفحاتها، فأصلحت بعض الأخطاء المطبعية التى وقعت فيها، وأعدت صياغة بعض الجمل والعبارات، وأضفت مصدراً هاما من مصادر الكتاب، كان قد سقط من قائمة المصادر والمراجع فى الطبعة الأولى.

وكل ما أرجوه أن تحظى هذه الطبعة الثانية بما حظيت به الأولى من إهتمام الباحثين والقراء.

والله من وراء القصد ، منه الهدي والتوفيق.

حلمي خليل

الإسكندرية في ٢٣ يوليو ٢٠٠٢م

تمهيد

علم الدلالة فرع من فروع علم اللغة يحاول دراسة المعنى وسبر أغواره، وينظر إليه كثير من علماء اللغة الآن على أنه الهدف النهائى من تحليل البنية اللغوية صوتيا وصرفيا ونحويا ومعجميا، وإذا كان علماء اللغة - قديماً وحديثا - قد استطاعوا السيطرة على الدراسات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية بمناهج علمية ونظريات لغوية اختلفت من حضارة إلى حضارة حتى أصبح هذا الجانب من الدرس اللغوى وقفا عليهم، إلا أن دراسة المعنى ومحاولة معرفة طبيعته وخصائصه خرجت أحيانا عن سيطرة علماء اللغة فاشترك فى دراسته علماء ومفكرون من ميادين مختلفة كالفلاسفة والمناطقة والنقاد وعلماء النفس والاجتماع، كما أسهم فى دراسته بعض علماء السياسة والقانون والاقتصاد وجماعات من الفنانين والأدباء والصحفيين ذلك لأن قضية المعنى من شأنها أن تشغل بال المتكلمين بأية لغة على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الفكرية.

وإيصال المعنى واضحا مفهوما جزء أساسى من عملية الاتصال الذى تتحقق به العلاقة الإنسانية فى صورها المختلفة المعنوية والمادية، فى الدين والسياسة، والفكر، والعواطف، والتجارة، والمال، وشئون الأسرة، وغيرها. ويتم الإتصال ونقل المعنى بواسطة نظم مختلفة مثل الكلام والكتابة والحركة الجسمية والضوء واللون، بل أحيانا بالشم واللمس. غير أن هذه النظم جميعا لابد أن يتوافر فيها شرط الوضوح والبيان.

يقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) «البيان اسم جامع لكل شىء كشف لك عن قناع المعنى» أو هو «الدلالة الظاهرة على المعنى الخفى» [(١)] أى أن كل مايدل على المعنى ويوضحه يندرج عند الجاحظ تحت مصطلح «البيان» لأن الغاية هى الاتصال عن طريق الإفهام، وبناء على ذلك نراه يحصر نظم البيان، أو الاتصال، بما لهما من علاقة بالدلالة على المعنى فى خمسة نظم:

١- الدلالة باللفظ، وهى مايميز الإنسان عن سائر الحيوان.

٢- الدلالة بالإشارة، أى باليد والرأس والعين والحاجب والمنكب.

٣- الدلالة بالخط، ولذلك قالوا، القلم أحد اللسانين.

٤- الدلالة بالعقد وهو الحساب.

٥- دلالة النصبة، وهى الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر فى خلق السموات والأرض [(٢)].

---

(١) البيان والتبيين ١/٧٥ - ٧٦.

(٢) المصدر السابق ١/٧٦ - ٨١.

وقد وضع الجاحظ اللغة والكلام على رأس هذه النظم، مما يدل على إدراكه لأهميتهما ودورهما الحيوى فى عملية الإتصال دون بقية النظم الأخرى.

وتنفرد اللغة الإنسانية من بين جميع نظم الاتصال بأنها تقوم على ثنائية التركيب Duality of Structure أى أنها تتركب من عنصرين أساسيين هما: الصوت والمعنى، وجوهر اللغة يكمن فى فهم طبيعة العلاقة بين هذين العنصرين. فعندما نقرر أن اللغة تتألف من عدد من الأصوات الإنسانية الإرادية فإننا نخرج بذلك كل نظام من نظم الاتصال لايعتمد على الصوت الإنسانى مادة مكونة له. فاللغة المكتوبة أو الخط، كما قال الجاحظ ليس لغة، وإنما هى رموز مرئية تمثل الأصوات فى اللغة المنطوقة أو الكلام. ويتوقف نجاح النظام الكتابى أو فشله على درجة محاكاته للغة المنطوقة.

ولكن اللغة ليست مجرد أصوات تنطلق فى فراغ، وإنما هى أصوات ترتبط بدلالات. والعلاقة بين الصوت والدلالة فى نطاق النظام اللغوى للغات الإنسانية هى علاقة اعتباطية عرفية يتفق فيها كل مجتمع على أن أصواتا معينة تدل أو تشير إلى أشياء أو أفكار أو احداث معينة. وليس ثمة ارتباط طبيعى أو منطقى بين الصوت ومايدل عليه، ولذلك اختلفت اللغات الإنسانية فى الإشارة إلى الشىء الواحد بأصوات متباينة، بل إذا حدث واتفقت أصوات فى لغتين مختلفتين أو أكثر، فى الإشارة إلى شىء معين، فمن النادر أن تكون لهما نفس الدلالة، بل إننا نجد داخل النظام اللغوى الواحد هذا اللون من الاختلاف.

يقول سيبويه (ت ١٨٠هـ) «اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين [1]» وسيبويه إذ يقرر هنا هذا الاختلاف فى إطار نظام لغوى واحد هو نظام اللغة العربية، يرصد فى الوقت ذاته ثلاث علاقات هامة تتصل بدلالة الألفاظ فى كثير من اللغات وهى:

١ - اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، نحو: ذهب وجلس.

٢ - اختلاف اللفظين والمعنى واحد، نحو : ذهب وانطلق.

٣- اتفاق اللفظين والمعنى مختلف نحو : وجدت عليه من الموجدة ووجدت إذا أردت وجدان الضالة [2].

---

(١) الكتاب ط هارون ١/ ٢٤.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة

وأضاف اللغويين علاقة رابعة، وهى:

٤- لفظ واحد ومعنيان متضادان نحو: الجون، للأبيض والأسود.

فأما العلاقة الأولى فهى الأصل، وأما الثلاث الباقية، وهى الترادف، والمشترك اللفظى، والأضداد فهى خروج عن هذا الأصل إذ الأصل فى اللغات أن يكون كل لفظ ازاء دلالة واحدة محددة، حتى لايحدث الغموض أو يقع اللبس فى الكلام، ومن ثم تنتفى وظيفة اللغة وهى الاتصال.

وقد رصد المفسرون والأصوليون واللغويون والبلاغيون ظواهر الغموض المختلفة الناشئة عن خفاء الدلالة أو تعددها نتيجة لعلاقة الترادف أو الإشتراك أو التضاد.

ورغم بداهة العلاقة الأولى بين اللفظ والمعنى وأهميتها فى الاتصال والتبليغ، إلا أن علماء اللغة وغيرهم ممن اهتموا بدراسة المعنى وجدوا أن اللغات الإنسانية لاتسير عادة وفق ذلك الأصل المثالى، وإنما تنحو أحيانا إلى لون من الغموض واللبس، حتى عدّه تشومسكى وتلاميذه من بعده خصيصة من خصائص اللغة الإنسانية [١]. وغالى بعض هواة البحث اللغوى فقالوا إن اللغة وسيلة لاخفاء الأفكار أكثر منها وسيلة لتوضيحها أو بيانها، ولكن صيحة الفيلسوف اليونانى القديم التى تقول «تكلم حتى أراك» تدحض هذا الرأى وتبدده، ومع ذلك يبقى الغموض جزاء من طبيعة اللغة الإنسانية لايمكن إنكاره أو تجاهله، سواء على مستوى اللغة المنطوقة أو المكتوبة، أو على مستوى المفردات والتراكيب.

أما على مستوى اللغة المنطوقة Spoken Language فقد يكون أمر الغموض أقل عنتا ومشقة إذ تصحب الكلام إشارات وحركات وإيماءات باليد والجسم والوجه والعين فيما يعرف الآن باسم علم الحركة الجسمية Kinesics الذى يدرس العلاقة بين حركة الجسم الإنسانى المصاحبة للكلام ودلالتها على المعنى [٢]. كما يصحب الكلام نوع من التلوين فى الأداء الصوتى Paralinguistic Features تتمثل فى النبر Stress والتنغيم Intona-tion والفواصل Junctures وغيرها، وكلها ظواهر صوتية قد يترتب عليها وضوح المعنى أو غموضه [٣]. كما يقع الكلام فى سياقات Contexes متنوعة وكل ذلك قد يساعد على

---

(1) Chomsky, Syntactic Structure, p. 30, p. 50.

وانظر أيضا:

Language and mind p. 27

– وباللغة العربية انظر: نظرية تشومسكى اللغوية، ترجمة حلمى خليل، ص ١١٨– ١١٩، ١٥٤– ١٥٧.

(٢) راجع د. فاطمة محجوب، دراسات فى علم اللغة ص ١٥٩ – ١٨٦.

(3) Crystal and Davy, Investigating English Style p. 18, pp. 24 - 31.

ادراك المعنى بأكبر قدر من الوضوح وأقل نسبة من الغموض، ومع ذلك فمن منا لم يستعمل فى كلامه عبارات مثل: ماذا تقول؟ ماذا تقصد؟ أنا لا أفهم ! أنت لاتفهمنى ! أنا لاأفهمك!.

وقد يرجع الغموض فى اللغة المنطوقة إلى المتكلم أو الكلام أو السامع، وعلم اللغة Linguistics يهتم أولا بالكلام فى ذاته أى بالحدث اللغوى Speech event فيحلله صوتيا وصرفيا ونحويا ومعجميا بغية الوصول إلى دواعى الغموض فى البنية اللغوية. أما علم اللغة النفسى Psycholinguistics فيدرس كيف لايفهم السامع مايقوله المتكلم، وكيف يقوم المتكلم بتكوين الرسالة اللغوية من اختيارللمفردات، وما يواجهه من صعوبات عند النطق بها والأخطاء التى يقع فيها، ودرجة تعقيد الجملة وطولها. وكل ذلك قد يؤدى إلى غموض الكلام بسبب من المتكلم. ومثل ذلك عند السامع من حيث ادراكه للكلام وفهمه له كيف يحلل سلسلة الأصوات التى تتلقاها أذناه إلى وحدات يستخلص منها المعنى الذى أراد المتكلم نقله إليه [١].

وحديث الجاحظ عن الحبسة واللكنة واللثغة وغيرها من أمراض الكلام، بما له من صلة بالقدرة على البيان ووقوع الغموض حديث شائع مشهور فيه ادراك لبعض مظاهر الغموض وصلته ببعض أمراض الكلام، وهوجزء أصيل من اهتمام علم اللغة النفسى، ومثل ذلك حديث علماء البلاغة العربية عن التعقيد المعنوى وعدم وضوح الفكرة فى الذهن، وسوء فهم السامع وسوء تعبير المتكلم.

أما اللغة المكتوبة Written Langauage فقد يكون أمر الغموض فيها أكثر عنتا ومشقة لأن الكتابة تحصر الكلام فى قناة واحدة بعيدا عن كل مايصحبه من سياقات تسهل معناه وتقرب مأخذه وترفع الغموض عنه، وهذه القناة تتمثل فى لغة بصرية لاسمعية، الأمر الذى يحتم تغييرا فى نظام الاتصال يختصر بمقتضاه كل ماكان يصحب الكلام من إشارات جسمية وتلوين صوتى وسياقات تعين على فهمه. ومن ثم فهو عرضة للغموض واللبس [٢] ولذلك رأينا الجاحظ يضع الكتابة أو الخط فى المرتبة الثالثة بعد الكلام والإشارة.

والأمثلة على غموض اللغة المكتوبة أكثر من أن تحصى، فقد يصدر القانون بعد عناية فائقة بصياغته صياغة دقيقة منعا للبس، وقد تصحبه مذكرات تفسيرية وتوضيحية، ولكن عند التطبيق تثور مشكلات وتختلف أحكام القضاة، وقد تصدر

(١) راجع د. داود عبده، دراسات فى علم اللغة النفسى، صفحات ١١، ١٥، ٢٨، ٣٠.
(2) Crystal and Davy op. cit., pp. 193 - 195.

مذكرات تفسيرية جديدة، ولكنها عادة ماتخلق مشاكل من نوع جديد أو لاتفلح في حل القديمة، ومثل ذلك في العقود والمعاهدات بين الأفراد والدول، وكلنا يذكر بلاشك واحدا من قرارات الأمم المتحدة بشأن جلاء إسرائيل عن «الأراضي العربية» أم عن «أراض عربية»، ولعل التصحيف والتحريف في اللغة المكتوبة خير دليل على قابليتها لوقوع اللبس والغموض فيها. ولعل ذلك هو المبرر لانتشار الرواية في العلوم العربية القديمة، ومع ذلك فقد أولى علماء المسلمين دراسة النص اهتماما واضحا، لامن حيث التحريف والتصحيف فحسب، وإنما من حيث الدلالة على المعنى واستخلاصه من النصوص.

وتقف دراسة علماء أصول الفقه للنص القرآني ودلالة ألفاظه وتراكيبه على المعنى، من حيث الوضوح والغموض بلا نظير، سواء عند القدماء من نحاة ولغويين وبلاغيين، أو عند المحدثين من علماء اللغة والأسلوب. حقا، لقد أفاد الأصوليون بصورة مباشرة من جهود النحاة واللغوين والبلاغيين، إلا أن دراستهم لظاهرة الوضوح والغموض في النص القرآني قد شغلتهم أكثر مما شغلت غيرهم لارتباطها بالحكم الشرعي ومايتصل به من تحليل وتحريم، خاصة وأن القرآن الكريم نفسه قد قسم آياته إلى آيات محكمات وأخر متشابهات. ومن ثم دارت دراساتهم لآيات القرآن الكريم حول هذين المحورين اللذين حددهما القرآن، المحكم من آياته، ومظاهر الإحكام فيها من الناحية اللغوية، والمتشابه، ومظاهر التشابه والإشتراك فيها. ويندرج تحت المتشابه عندهم مظاهر الغموض بسبب من اللفظ والتركيب، واستطاعوا بمنهج لغوي، استندوا فيه إلى تحليل دلالة الألفاظ وأنواع الدلالة وصلة المعنى بالتركيب النحوي، أن يرصدوا مظاهر الغموض في البنية اللغوية، بما يفوق صنيع القدماء وكثير من المحدثين.

غير أن اللغة، سواء المنطوقة أو المكتوبة لاتستخدم على هذا المستوى النفعي العملي فحسب – وإن كان هذا هو الاستخدام الأصلي لها – وإنما تستخدم أيضا على مستوى فني جمالي في الشعر والنثر وأبرز مايميز هذا اللون من الاستخدام اللغوي أنه يسعى إلى التأثير في النفس عن طريق صياغة اللغة صياغة مخصوصة يعتمد فيها على ألوان من التشبيهات والاستعارات والصور الفنية، حيث تتخذ الألفاظ والتراكيب أوضاعا فنية جمالية تعتمد فيها على الإيحاء غير المحدود، وهو ما أشار اليه عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) بمصطلح «النظم»، وهو يقصد به صياغة التراكيب من حيث دلالتها على الصورة الفنية صياغة مخصوصة هي عنده محور الفضيلة والمزية في الكلام، ولهذا عني بشرح دلالات الألفاظ واختلافها باختلاف مواقعها في الكلام، في إطار من الصحة النحوية، وبالتالي اتسع مفهوم النحو عنده فلم يعد مقصورا على وجوه الإعراب وأنواع

الجمل من إسمية وفعلية، ومن استعمال لأدوات الربط المختلفة، ولكنه يشمل ما فى علم المعانى من الوصل والفصل والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير والحذف والذكر والإضمار وكثير من المحسنات البديعية التى تميز المعنى وتوضحه كالمزاوجة بين الشرط والجزاء، وحسن التقسيم والجمع والتشبيه والإستعارة والكناية وغيرها [١].

وبذلك لم تعد قواعد النحو عنده كما هى عند النحاة تتمثل فى الاعراب ومايتصل به وإنما أضحت من طرق التصوير والصياغة معيارا تهتدى به فى البراعة يقوم أساسا على نوع من الانتقاء والاختيار «فكما أنك ترى الرجل قد اهتدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج إلى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر فى توخيهما معانى النحو ووجوهه التى علمت أنها محصول النظم» [٢].

ومن ثم يأتى الخلل ويفسد المعنى ويجنح عنده نحو الإبهام والغموض من فساد النظم «فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل فى غير ماينبغى له.... ويكفيك أنهم كشفوا عن وجه ما أردنا حيث ذكروا فساد النظم فليس من أحد يخالف فى نحو قول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا   أبو أمه حي أبوه يقاربه

.... وفى نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم وعابوه من جهة سوء التأليف [٣].

وهذا البيت من أشد أبيات الشعر العربى غموضا وابهاما وتعقيدا، وبه يضرب المثل على غموض المعنى بسبب من التركيب عند النحاة واللغويين والبلاغيين حتى قال عنه المزربانى (ت ٣٨٤ هـ) «فأتعب أهل اللغة والنحو بشرحه منهم سيبويه، فمن بعده، ولم يبلغوا منه مايقنع ويرضى» [٤].

وإذا كان عبد القاهر الجرجانى من البلاغيين الذين انصب اهتمامهم على التركيب

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٤ – ٦٥.
(٢) المصدر السابق ص ٧٠.
(٣) المصدر السابق ص ٦٥ – ٦٦.
(٤) الموشح ص ١٦٥.
– وأنظر أيضا سيبويه، الكتاب ط هارون ٣٢/١.

هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ) وابن سنان الخفاجى (ت٤٦٦هـ) قد اهتموا فضلا عن ذلك بالصلة بين الكلام والمتكلم والسامع وفرقوا بين معنى البلاغة بالنظر إلى حال المتكلم، ومعناها بالنظر إلى الكلام، وصلة ذلك بوضوح المعنى أو غموضه، وأرجعوا الغموض والإبهام إلى المتكلم أو بنية الكلام، أو السامع، فقد يؤتى المتكلم من سوء فهم السامع، وقد يؤتى السامع من اخفاق المتكلم فى نقل مايريده من المعنى أو من الكلام لتعقده وعدم وضوحه [(١)]. غير أن علماء البلاغة أجمعوا على أن غموض المعنى وخفاءه يقع غالبا بسبب تعدد دلالة اللفظ، أو تعقد التركيب النحوى أو الغلو والإحالة فى التشبيه والاستعارة.

أما اللغويون والنحاة فقد تتبعوا ظاهرة الغموض أيضا فى اللفظ والتركيب فاهتم اللغويون بالمفردات ومايتصل بها من تعدد المعنى أو خفائه نتيجة لوقوع الترادف أو الإشتراك اللفظى أو التضاد. كما وقف النحاة أمام ظواهر الغموض بسبب التركيب النحوى فيما يعرف عندهم باللبس. وكان اهتمامهم بالمفردات من حيث صلتها بالتركيب، أقل من اهتمام اللغوين بها.

وهكذا نجد أن ظاهرة الغموض قد لفتت انتباه القدماء من مفسرين ولغويين ونحاة وأصوليين وبلاغيين، فدرسوها ورصدوا مظاهرها وعللوا لها واستخدموا فى ذلك، كما قلت، كثيراً من المصطلحات، تعددت واختلفت باختلاف نظرتهم إلى أسباب الغموض ومظاهره، ولكنهم اتفقوا جميعا فى تناولهم وبحثهم لهذه الظاهرة من خلال التحليل اللغوى للمبنى بما له من صلة بالمعنى. ومن ثم اشتراكوا فى أصول ومبادىء اطردت فى دراساتهم لظاهرة الغموض بما يسمح باستنتاج أصول وقواعد عامة تمثل الإطار النظرى لدراسة القدماء للغموض فى المعنى، ويتمثل ذلك فيما يلى:

١- غموض المعنى وتعدده واحتماله ظاهرة واضحة فى اللغة المنطوقة والمكتوبة.

٢- يقع الغموض فى الكلام بسبب من المتكلم أو السامع أو بنية الكلام.

٣- احتمال وقوع الغموض فى النصوص المكتوبة أكثر منه فى اللغة المنطوقة لغيبة السياق الذى حدث فيه الكلام، مما يساعد على وضوح المعنى وانكشافه. يضاف إلى ذلك قابلية اللغة المكتوبة للتصحيف والتحريف.

٤- يقع الغموض من الناحية اللغوية نتيجة لسبب أو أكثر مما يأتى:

أ- البنية الصوتية للكلام.

ب- وجود لفظة أو أكثر فى تركيب ماتحتمل أكثر من معنى، أو ذات دلالة غير واضحة.

---

(١) كتاب الصناعيين ص ٤٢ - ٤٣، وانظر أيضا سر الفصاحة ص ٦٠، ٦١.

جـ – احتمال تركيب مابسبب من بنيته النحوية لأكثر من معنى، أو عدم وضوح المعنى لتعقد البناء النحوى لهذا التركيب.

د– غموض الصور الفنية من تشبيه واستعارة وغلوها وبعدها عن المألوف الشائع منها فى كلام العرب ولغة من يحتج بكلامهم من الشعراء.

وإذا كانت اللغة العربية قد اشتركت مع اللغات الأخرى فى استغلال الغموض استغلالا فنيا فى ضروب من المحسنات اللفظية مثل الجناس والتورية، إلا أنها انفردت من بين هذه اللغات باستغلال الغموض استغلالا نفعيا. فقد ألف ابن دريد (ت٣٢١هـ) كتابا فريدا فى بابه وأسلوبه أسماه «كتاب الملاحن» يقول فى مقدمته «هذا كتاب ألفناه ليفزع اليه المجبر المضطهد على اليمين المكره عليها فيعارض بما رسمناه ويضمر خلاف مايظهر ليسلم من عادية الظالم ويتخلص من حيف الغاشم، أسميناه كتاب الملاحن (١).

وفى هذا الكتاب يستغل ابن دريد ظاهرة غموض المفردات بسبب تعدد المعنى، أو لأن اللفظ «تحته معنيان» كما قال (٢) فى وضع أكثر من مائة صيغة من صيغ القسم ينبىء ظاهرها عن معنى خلاف مايقصده المتكلم أو حالف اليمين وفى كل مرة كان يأتى من كلام العرب على تعدد معنى الكلمة التى استخدمها فمن ذلك قوله:

١ – «والله ما سألت فلانا حاجة قط» والحاجة ضرب من الشجر، والجمع حاج.

٢ – «والله ما أعلمت فلانا ولا أعلمنى» أى ماجعلته أعلم، أى ماشققت شفته العليا.

٣– «والله مادخلت لفلان بيتا ولارأيت له بيتا» فالبيت الأولى بمعنى القبر، والثانية بمعنى المرأة» (٣).

كما استغل علماء البلاغة غموض المعنى فيما يسمى بفن اللغز أو الالغاز وهو فن أيضا ربما انفردت به اللغة العربية، وهو يقوم غالبا على نوع من الأحجية المنظومة شعرا يحاول القارىء أو السامع حلها من خلال دلالة ألفاظها أو مايطرأ عليها من تصحيف وتحريف، كما سنرى ذلك من خلال هذا البحث.

ولم تكن عناية علماء اللغة والأسلوب من الأوروبيين فى العصر الحديث بأقل من عناية نظرائهم من علماء العربية القدماء فى دراسة ظاهرة الغموض غير أن دراسة

---

(١) كتاب الملاحن، المقدمة، ص ٣.

(٢) المصدر السابق ص ٧.

(٣) المصدر السابق صفحات ٧، ٩، ١٢ – ١٣.

العرب لهذا الظاهرة أقدم، وبخاصة من حيث اتخاذ المنهج اللغوى مدخلا لتحليل هذه الظاهرة.

وقد بدأ الاهتمام بدراسة الغموض عند الأوروبيين فى النصوص الأدبية لا الدينية وكان ذلك فى عصر النهضة، اذ يعزو مؤرخو الآداب الأوربية أول اهتمام بدراسة الغموض إلى الشاعر الإيطالى دانتى Dante الذى كان أول من نظر فى تعدد مستويات المعنى فى النص الأدبى. كما فتحت دراسة الناقد الانجليزى جريرسون Grierson عن الشاعر جون دون Jhon Donne الباب لقراءات جديدة لبعض الشعراء الميتافيزيقيين تحاول الكشف عن مظاهر الغموض فى شعرهم وتعدد مستويات المعنى فيه [١].

كما تصدى لدراسة مشكلة المعنى وعلاقته بالغموض والوضوح، فلاسفة ومناطقة فى العصر الحديث مثل فريجة Frege ورسل Russel وفتجنشتين Wittegnstein وكارناب Carnap وقد تمثلت أبحاثهم حول اللغة فى أقانيم ثلاثة هى الدقة والوضوح والصدق فى مقابل الغموض واللبس والكذب [٢].

ولعل كتاب الناقد الانجليزى وليم امبسن William Empson «سبعة أنماط من الغموض» Seven Types of Ambiguity (ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٣٠) من أهم الكتب التى درست الغموض من وجهة النظر النقدية والأدبية، فقد قام هذا الناقد بدراسة مستفيضة لظواهر الغموض وأنواعه فى الشعر الإنجليزى منذ تشوسر Chaucer حتى القرن الحالى، وقد بدأ امبسن Empson كتابه بمحاولة تعريف وتحديد مصطلح الغموض Ambiguity فقال: إن هذه الكلمة قد تكون واضحة المعنى فى الكلام العادى، وتدل بصورة عامة فى هذا الاستعمال على نوع من البراعة أو الخداع في الكلام، ولكن بالنظر إلى موضوع الكتابة من حيث هو دراسة لظاهرة الغموض فى الأعمال الأدبية، وفى الشعر خاصة، فقد رأى أن يستعمل كلمة الغموض بدلالة أوسع تختلف بفارق دقيق لايكاد يلاحظ عن المعنى الشائع المتداول لهذه الكلمة فى الاستعمال اليومى لها. وقد استقر على تعريف الغموض بأنه «كل مايسمح لعدد من ردود الفعل المختلفة ازاء قطعة لغوية واحدة.

"Which gives room for alternative reactions to the same piece of language"[٣]

---

(١) فريال جبورى، فيض الدلالة وغموض المعنى فى شعر محمد عفيفى مطر، مجلة فصول، الملجد الرابع، العدد الثالث، سنة ١٩٨٤، ص ١٧٦.

(٢) د. محمود فهمى زيدان، فى فلسفة اللغة، صفحات ١١، ٤٠، ٤١، ٩٨ وفى مواضع أخرى من الكتاب.

(3) Empson, W, seven types of Ambiguity p. 19.

ولكنه يشعر أن هذا التعريف للغموض تعريف عام وغير محدد، فيحاول أن يوضح معناه وأبعاده بتحليل الجملة الآتية:

The Brown cat sat on the red mat

«القطة البنية اللون جلست على الحصير الأحمر» وهى جملة غير واضحة المعنى ومن ثم فعلى من يريد أن يعرف معناها الحقيقى فإن ذلك قد يتم عن طريق تحليل مكوناتها، وقد يفضى هذا إلى تقطيع مثل هذه الجملة إلى سلسلة من الكلمات والعبارات المستقلة، وحينئذ قد يظهر أن الحديث يدورعن «قطة» وأن هذه القطة بينة اللون. وكل كلمة من الكلمات السابقة قد تتحول إذا أردنا شرحوا شرحا محددا دقيقا إلى عبارات معقدة تؤدى إلى كلمات أكثر تعقيدا فمثلا ما القطة؟ ومواصلة مكونات معناها وكلمة الحصير، ومن ناحية أخرى لماذا اختار قائل هذه العبارة هذه الكلمات بعينها دون كلمات أخرى. وقد يحملنا ذلك على الخوض فى أى اتجاه يريده من يريد أن يشرح معنى هذا الجملة فنجد أنفسنا أمام كلمة «جلست»، فما معنى الجلوس من الناحيتين التشريحية والفسيولوجية، ومثل ذلك بالنسبة لحرف الجر «على» On فيما يتصل بنظرية الجاذبية. وقد يتصل كل ذلك بمضمون الجملة. أما بالنسبة للسياق Context التى قيلت فيه، فلابد أن نسأل أنفسنا من قائل هذه الجملة؟، ومن المخاطب بها؟، وما الهدف من توجيهها إليه؟ وربما لانجد بعد كل هذا البحث شيئا ذا بال وإنما قد نجد أنفسنا نقوم بصياغة جملة أو عدة جمل أخرى قد تتصل بهذه الجملة أو لاتتصل بها. وقد تتصل بسياق آخر ومخاطب مختلف غير الذى وجهت إليه الجملة الأولى.

مثل هذه الجوانب من التحليل لابد للناقد الأدبى أن ينظر إليها على أنها جزء لايتجزأ من المعنى لأن ثمة فرقا بين التفكير Thought والشعور Feeling ، بين الحقيقة التى قد تقال فى عبارة والسياق الذى ترتبط به العبارة نفسها بعد نطقها. ومن الواضح أننا لانعرف أيا منهما دون معرفة الآخر، ومعنى هذا أن الوصول إلى معنى أى جملة وادراكه ادراكا دقيقا واضحا يرتبط أولا بمعرفة الجملة ذاتها والسياق الذى قيلت فيه. وعلى ضوء ذلك يمكن إعادة النظر فى الجملة السابقة فهى إذ تتحدث عن قطة فإن ذلك قد يجعلها مناسبة لأن توجه إلى طفل، ومن ثم نستطيع أن نعزل مستويين من مستويات المعنى بينهما ارتباط واحد قد يكون هما السبب فى غموض معناها، فقد يسمع أحد الأطفال هذه الجملة على أنها جزء من قصة خيالية من قصص الأطفال، وقد يرى فيها عبارة منتزعة من أى كتاب آخر، ويحتمل أن تكن الجملة من قبيل الإستعارة التى لاتؤدى المعنى بطريق مباشر، وغالبا ماتعبر عن فكرة معقدة، ومن ثم تحتاج فى تحليلها إلى جوانب نقدية ولغوية واجتماعية.

وينتهى امبسون Empson من مناقشة جوانب الغموض المختلفة فى هذه الجملة إلى أنه من الصعب وضع تعريف دقيق وواضح للغموض، ولكنه يرى أن مايستحق أن يوصف بأنه غامض أو غير غامض ينبغى أن يخضع لمعيار لغوى، ويتمثل ذلك فى وجود كلمة أو تركيب نحوى يفهم منه أكثر من معنى فى آن واحد.

"The Fundamental situation, Whether it deserves to be called ambiguous or not, is that a word or a grammatical structure is effective in several ways at once"(١)

وبناء على ذلك يحدد أنواع الغموض وأنماطه فى سبعة أنواع، كما هو واضح من عنوان كتابه، ثلاثة منها تتصل بالنص، وثلاثة أخرى تتصل بالمؤلف والسابع يتصل بالعلاقة بين القارىء والنص، وذلك على النحو التالى:

١- النوع الأولى من الغموض، يحدث عندما يتضمن النص عددا من التفاصيل التى تقدم أو تتحدث عن دلالات متعددة فى آن واحد(٢) بطريق المقارنة بين عدد من الأشياء المتشابهة أو المتضادة، ويتمثل ذلك فى مقارنة عدد من الصفات Adjectives بعضها ببعض، أو يتمثل فى الإستعارات المعقدة Subdued metaphors أو مايوحيه الإيقاع أو الوزن Rhytm أو السجع من معان مختلفة، أو ماتحتوى عليه بعض أنواع النصوص من ألوان التهكم والسخرية (٣).

٢- النوع الثانى، ويتمثل فى وجود تركيب نحوى فى النص يسمح بفهم معنيين أو أكثر بينهما صلة، وهو مايسمى بالتركيب النحوى المزدوج Double Grammar (٤).

٣- النوع الثالث، ويقع حين يسمح النص بفهم معنيين مختلفين فى آن واحد، ويتمثل ذلك فى وجود بعض المفردات أو التراكيب ذات الصيغ العامة أو الدلالات المشتركة(٥).

٤- النوع الرابع، ويتمثل فى عدد من التراكيب ذات المعانى المتبادلة التى يتصل بعضها ببعض، والتى تعكس صورة من صور التعقيد فى تفكير المؤلف (٦).

٥- النوع الخامس، ويحدث عندما تظهر فى لغة المؤلف جمل وعبارات يختلط بعضها ببعض بصورة غير متوقعة نتيجة لعدم تحكم الكاتب تحكما تاما فى الفكرة التى يريد

---

(1) Empson op.cit., 19 - 21.
(2) Ibid, p. 41.
(3) Ibid, p. 59.
(4) Ibid, p. 80, p. 104.
(5) Ibid, p. 127.
(6) Ibid, p. 160, p. 173.

التعبير عنها، أو التعبير عنها أثناء تخلقها فى ذهنه، ويظهر ذلك بوضوح فى الكتابات أوالقصائد التى تتصل بعالم ماوراء الطبيعة Metaphysic .[1]

٦- النوع السادس، ويقع عندما تظهر فى لغة الكاتب أو الشاعر عدة تراكيب ذات معان متناقصة أو متعارضة، مما يضطر القارىء إلى ابتكار أو وضع عدة تفاسير لها[2] .

٧- النوع السابع، ويتمثل فى نوع من التعارض أو التناقض التام Full Contradiction الذى يقع أحيانا فى لغة الكاتب أو الشاعر وينبئ عن درجة من درجات التشتيت الذهنى[3] .

ويخلص «أمبسن» بعد هذا التحديد النظرى لأنواع الغموض إلى دراسة تطبيقية وتحليلية مستفيضة لنماذج من الشعر الإنجليزى ممثلا فى كبار الشعراء مثل شكسبير وشيلى واليوت وغيرهم. وقد استخدم فى دراسته تلك منهجا أقرب إلى علم اللغة النفسى Psycholinguistics منه إلى أى منهج آخر، بالرغم من أن منهج علم اللغة النفسى لم يظهر إلا فى مطلع الستينات من هذا القرن على يد تشومسكى وعدد من تلاميذه.

فقد كان امبسن Empson ينتقل بصورة مطردة بين المستوى اللغوى والحالة النفسية للشاعر، ويصل بصورة مستمرة بين التراكيب اللغوية وحالة الشاعر الذهنية كما كان يحتكم كثيرا إلى السياق اللغوى والمقام الإجتماعى بالمعنى الواسع لهذين المصطلحين وإن لم يستخدم هذه المصطلحات اللغوية استخداما مباشرا. ولكنه مع نهاية الكتاب وبعد التطبيقات الواسعة التى قام بها لم يجد بدا من الاعتراف بأن كثيرا من مظاهر الغموض اللغوى لاتتصل بالنقد الأدبى اتصالا مباشرا، وإنما تتصل أكثر ماتتصل بالتركيب النحوى أو استخدام المفردات[4] . وبالتالى يرى أن التحليل اللغوى هو المدخل الملائم للكشف عن أسباب الغموض والتعليل له.

أما علماء اللغة المحدثون والمعاصرون، فقد كانوا أكثر دقة فى تحديد مصطلح الغموض وتعريفه، وحصروه فى البنية اللغوية فقالوا «إن البناء اللغوى الذى يقال عنه إنه غامض هو البناء الذى يحتمل أو يرتبط به أكثر من معنى».

"A construction is said to be AMPIGUOUS when more than one interpreatation can be assigned to it"[5]

---

(1) Ibid, p. 184.
(2) Ibid,p. 207
(3) Ibid, p. 231.
(4) Ibid, p. 272 - 277.
(5) Hartmann and strok, Dict of lang. and ling. p. 11.
وانظر أيضا:
- Lyons Jhon Semantics Vol. 2,p. 396.
- Bolinger, Dwight, meaning and form. p. 2.

وصدد هذا يفرقون بين أنواع من الغموض من حيث صلتها بالبنية اللغوية فيحددون ثلاثة أنماط من الغموض هى:

١- الغموض الذى يقع فى الكلام بسبب من الآداء الصوتى، ويتمثل ذلك فى النبر Stress والتنغيم Intonation والفواصل Junctures وغيرها من الملامح الصوتية التى لها وظيفة فونولوجية فى التمييز بين معانى الكلام سواء أكان ذلك على مستوى الكلمة المفردة أو التركيب، ولايقع هذا النوع من الغموض إلا فى اللغة المنطوقة.

٢- الغموض الذى يحدث بسبب وجود كلمة فى جملة، وهذه الجملة صحيحة نحويا، غير أن دلالة هذه الكلمة تحتمل أكثر من معنى. أى أنها من قبيل المشترك اللفظى Ho-monymy، أو تعدد المعنى Ploysemy مثال ذلك فى اللغة الانجليزية They passed the port at midnight حيث تدل كلمة "Port" على معنيين، فقد تكون بمعنى ميناء فيصبح معنى الجملة «لقد مروا بالميناء بعد منتصف الليل» كما تدل هذه الكلمة أيضا على نوع من النبيذ القوى، ومن ثم يصبح معنى الجملة «لقد تناولوا نوعا من النبيذ القوى بعد منتصف الليل».

وهذا النوع من الكلمات المتعددة المعنى بسبب من الإشتراك اللفظى أو تعدد المعنى، أو الترادف كان موضع اهتمام علماء العربية القدماء بما له من صلة بالغموض، كما سنرى خلال البحث، كما أولاه علماء المعاجم المحدثون أهمية واضحة من ناحية صلته بالعمل المعجمى، وغموض الدلالة وتعددها من ناحية أخرى، كما سنرى أيضا، خلال هذا البحث. كما رأينا، أيضا كيف ألف ابن دريد كتاب الملاحن على أساس استغلال هذا النوع من الغموض القائم على تعدد المعنى وجاء بأكثر من مائة جملة كلها يحتمل أكثر من معنى. واستغل أيضا هذا اللون من تعدد المعنى استغلالا فنيا فى ألوان من البديع مثل التورية والجناس، كما سنرى أيضا من خلال هذا البحث.

٣- الغموض الذى يقع بسبب من التركيب النحوى، أو ما اصطلح علماء اللغة على تسميته بالغموض النحوى Grammatical ambiguity ويتمثل ذلك فى جملتين من أشهر الجمل التى ضرب بهما تشومسكى المثل على هذا اللون من الغموض.

أما الجملة الأولى فهى:

1- Flying Planes can be dangrous. (١)

وهى جملة صحيحة نحويا، إلا أنها تحتمل معنين وهما:

---

(1) Lyons, op.cit., vol. 2, pp. 400 - 403.
- Bolinger, op.cit., p. 125.

وانظر أيضا:

- ليونز، نظرية تشومسكى اللغوية، ترجمة حلمى خليل ص ١٥٤ - ١٥٥.

2- Planes which are flying can be dengrous.

3- To fly, planes can be dengrous.

وذلك بسبب من تركيبها النحوى، يدل على ذلك - طبقا لتحليل تشومسكى - أن التركيب السطحى Surface Structure للجملة الأولى مشتق من تركيبين عميقين Two underlying Structures هما:

4- Planes fly.

5- Someone Flies planes. (1)

أما الجملة الثانية التى ضرب بها أيضا تشومسكى المثل على هذا النوع من الغموض فهى:

1- The policemen were ordered to stop smoking after midnight

وهي جملة لها أربعة معان هى:

١ - أُمرِ رجال الشرطة بالكف عن التدخين بعد منتصف الليل.

٢ - أُمرِ رجال الشرطة، بعد منتصف الليل، بالكف عن التدخين.

٣ - أُمرِ رجال الشرطة بمنع الناس من التدخين بعد منتصف الليل.

٤ - أُمرِ رجال الشرطة بعد منتصف الليل بمنع الناس من التدخين.

ومن الواضح أن الغموض أو تعدد المعنى فى هذه الجملة لم يقع نتيجة للتركيب النحوى فقط، وانما أيضا لغياب بعض الملامح الصوتية التى قد تصاحب نطق هذه الجملة مثل النبر والتنغيم، ولكننا نستطيع رغم ذلك، أن نرجع الغموض فيها، من حيث هى جملة مكتوبة لامنطوقة، إلى التركيب النحوى، أو مايسمى بالتركيب النحوى الغامض grammatical ambiguity لأنها مشتقة فى الواقع من تركيبين غير غامضين unamblguous مثل

1- At midnigh, the policemen were ordered to stop smoking

حيث نجد أن الظرف at midnigt متعلق بالفعل أمر

2- The policment were ordered to stop the smoking at midnight

حيث نجد أن الظرف قد تعلق بالمصدر to stop وهكذا نستطيع، بتغيير مواضع

---

(1) Chomsky, Topics in the theory of generative grammar, in T.A. Seoe-ok (ed) current trends in linguistics, Vol. 3 p.7.
Crystal David, Linguistics, p.211.

وانظر أيضا: د. داود عبده ، أبحاث فى اللغة العربية ص ١٢٢ .
كريستل دافيد، التعريف بعلم اللغة، ترجمة حلمى خليل ص ١٣٠ ، ص ١٣١ .

الظرف فى هذه الجملة، ومايتعلق به أن نصل إلى التراكيب غير الغامضة، أو بعبارة أخرى، إلى التراكيب العميقة التى اشتقت منها هذه الجملة.

وقد أشار علماء اللغة وعلماء الدلالة منهم بوجه خاص، إلى نوع آخر من الغموض الذى يقع فى بعض الجمل نتيجة للتركيب الدلالى لا النحوى حيث نجد أن هناك بعض الجمل التى توصف بأنها صحيحة نحويا، مثل الجمل السابقة، ولكن الغموض فيها لايأتى من التركيب النحوى وإنما من التركيب الدلالى. وفى هذا الصدد يضربون المثل بجملة ثالثة من أشهر الجمل التى تداولها علماء الدلالة ليوضحوا هذا اللون من غموض المعنى وخفائه وهى: Colourless green ideas sleep furiously [1] أى «الأفكار الخضراء عديمة اللون تنام بغضب»، وهى كما ترى جملة صحيحة نحويا، ومع ذلك فهى بلامعنى، رغم أنها تتألف من كلمات لكل منها دلالة واضحة وهى فى حالة الإفراد. ومعنى هذا أن هناك تركيبا دلاليا، أو نوعا من التوافق الدلالى لابد أن يتوازى مع التركيب النحوى لتصبح جملة ما مفهومة أو لها معنى. ومعنى هذا أيضا أن هناك نوعا من التنافر أو عدم التآلف بين الكلمات يؤدى إلى هذا اللون من الغموض حتى ولو كانت الجملة صحيحة نحويا مما جعل علماء اللغة يفتتون الدلالة إلى وحدات تشبه الفونيمات على المستوى الصوتى، أطلقوا على كل وحدة دلالية منها مصطلح Sememe لأنهم رأوا أن هذه العناصر الدلالية أو الوحدات المكونة لدلالة الكلمة هى المسئولة عن توافق أو عدم توافق كلمة مع أخرى، وهو مايعرف الآن باسم علم الدلالة التركيبى Structural Semantics [٢].

وقد أشار بعض علماء البلاغة العربية إلى هذا اللون من الغموض بسبب عدم التوافق الدلالى فيما جاء فى قول بعض الشعراء يهجو الرافضة أمام الخليفة هارون الرشيد فقال:

رغما وشمسا وزيتونا ومظلمة ... من أن تنالا من الشيخين طغيانا

فقال له الرشيد: فسره لى، فقال الشاعر، لا، ولكن أنت وجيشك أجهد أن تدرى ما أقول، فإنى والله ما أدرى ماهو!! [٣]. والبيت كما هو ظاهر مستقيم الوزن، ولكل كلمة من كلماته دلالة مستقلة ولكنها حين ركبت معا أصبحت بلا معنى، وذلك واضح فى قوله: «رغما وشمسا، وزيتونا، ومظلمة». ثم يتضح التنافر الدلالى بين الشطرة الأولى والشطرة

---

(1) Lyons, op.cit., vol. 2, pp. 385 - 386.

(2) Ibid, vol. I, p. 230.

(٣) المرزبانى، الموشح، ص ٥٦.

الثانية التى قد يبدو أن لها معنى ولكنها لاتتآلف دلاليا مع الشطرة الأولى. ومثل ذلك أيضا قول الأعشى:

إذا كان هادي الفتي في البلاد صدر القناة أطاع الأمير

قال القاضى الجرجانى (ت ٣٩٢هـ) فإن هذا البيت، كما تراه، سليم النظم من التعقيد، بعيد اللفظ عن الإستكراه، لاتشكل كل كلمة بانفرادها على أدنى العامة، فإذا أردت الوقوف على مراد الشاعر فمن المحال عندنا والممتنع في رأى أن تصل إليه، إلا من شاهد الأعشى يقوله فاستدل بشاهد الحال وفحوى الخطاب، أما أهل زماننا فلا أجيز أن يعرفوه» (١) .

والبيت كما قال الجرجانى غامض المعنى رغم وضوح دلالات مفرداته، ولذلك نراه يفزع إلى سياق الحال لرفع الغموض عن البيت، وهى ملاحظة تدل على ادراك البلاغيين لأهمية السياق ودوره فى رفع الغموض عن المعنى وهو ادراك شاركهم فيه علماء اللغة والأسلوب فى العصر الحديث (٢) وسنرى من خلال هذا البحث أمثلة أخرى على هذين النوعين من الغموض فى التركيب، أعنى الغموض بسبب التركيب النحوى، والغموض بسبب التركيب الدلالى.

وكما لاحظ القاضى الجرجانى وغيره من علماء العربية أن السياق أو المقام Context of situation يقوم بدور هام فى رفع اللبس والغموض عن بعض الجمل. والآداء الصوتى، بما يصحبه من ملامح صوتية هو فى الحقيقة جزء من هذا المقام الذى لايظهر فى اللغة المكتوبة، وهو ما أشار إليه علماء علماء البلاغة كما سنرى فى عبارات موحية موجزة مثل قولهم، لكل مقام مقال، ولكل لفظة مع أختها مقام. فجملة مثل: «قال زيد إنه مريض»

هى جملة غامضة إذا انتزعت من سياقها، لأنها تحتمل معنيين لعدم وضوح عودة الضمير فى «إنه» هل هو زيد نفسه أم شخص آخر. ولكن هذه الجملة نفسها داخل السياق الذى قيلت فيه، من حيث الأداء الصوتى أو الظروف الخارجية المصاحبة لها قد ترفع الغموض عنها وتحدد على من يعود الضمير.

وقد شعر فيرث Farth بأهمية السياق فطور مفهومه فى نظرية علمية تعرف باسم نظرية السياق فى اللغة Contextual theory of language حيث نظر إلى السياق على

(١) الوساطة، ص ٤١٨.

(2) Crystal and Davy, Op.cit., pp. 61-62, p. 119..

أنه جزء أصيل من عملية التحليل اللغوى، لأن دراسة البنية اللغوية مقطوعة عن سياقها، هى جزء من دراسة «الكل التفاهمى» إن صح التعبير، حيث تمثل البنية جانبا واحدا منه، ولذلك رأى فيرث أن خير مايمثل العملية التفاهمية هو الفيلم الناطق الذى يجمع بين النص الكلامى والصورة الخارجية للمحيط الذى يجرى فيه الكلام من حيث السياق اللفظى والنفسى. وكل ذلك له تأثير واضح فى ظهور المعنى وتحديده ورفع الغموض عنه. كما كان من رأيه أيضا أن الظروف الخارجية أو المقام يمكن أن تقسم إلى أنواع وأن تحلل إلى وحدات تربطها علاقات، كما نفعل فى التحليل البنيوى للكلام.

وقد طور تلاميذه من بعده آراءه حول السياق فرأى هاليداى Halliday أن التحليل العلمى للحدث الكلامى، بما له من صلة بالسياق يقتضى التمييز بين مصطلحات ثلاثة هى: المجال Field والهدف target والوسيلة Tenor وهو يقصد بالمجال 'الظروف الخارجية التى لا صلة لها بالمتكلم أو السامع، وهى تتصل بالبيئة الخارجية التى يقع فيها الحدث الكلامى. بينما يقصد بالهدف الأمور المتعلقة بالمتكلم والسامع، والتى تحدد الغرض من كلامه كأن يكون المخاطب أبا أو أما أو رئيسا فى العمل أو خادما أو زميلا مما يجعل الكلام يأخذ طابعا معينا كالرجاء أو الأمر أو غير ذلك، وهو ما استثمره علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics فى تحليل الكلام بما له من صلة بالمتكلم من حيث ثقافته وجنسه وطبقته الاجتماعية، وبيئته الجغرافية وغير ذلك.

أما المقصود بالوسيلة فهى الطريقة التى يتم بها الحدث الكلامى، هل هى الكلام العادى أو الخطابة أو التلاوة، أو المحاورة، أم أن لها هدفا عمليا آخر كالوصف والإخبار. ويرى هاليداى أن تحليل هذه العناصر الخارجية يجب أن يتم، جنبا إلى جنب مع تحليل البنية اللغوية لكى نصل إلى المعنى الحقيقى للكلام يبتعد به عن اللبس والغموض (١). ولهذا جعلت مدرسة فيرث المقام أو السياق الخارجى للكلام جزءا لايتجزأ من عملية التفاهم فتقطيب الوجه قد يجعل جملة ما مفهومة أو ذات دلالة معينة لاينبىء عنها ظاهر اللفظ، ولذلك فإن الغموض أو اللبس يقع غالبا نتيجة لعزل الكلام عن سياقه.

ومع ذلك فقد يقع الغموض فى الكلام وهو موصول بسياقه بسبب احتمال دلالة لفظ ما أكثر من معنى، أو نتيجة لطبيعة التركيب النحوى لجملة ما لايستطيع السياق أن

---

(1) Trudgill, Peter, Sociolinguistics, p. 24.

وانظر ايضاً:

د. عبد الرحمن أيوب، التحليل الدلالى للجملة العربية، المجلة العربية للعلوم الانسانية، جامعة الكويت، المجلد الثالث، العدد العاشر سنة ١٩٨٣، ص ١٢٠.

يكشف غموضها، وإنما التحليل اللغوى للبنية هو الذى يعلل لهذا الغموض ويحدده مصادره.

وكما عالج علم اللغة الغموض فى الكلام العادى توقف علم الأسلوب Stylistics عند ظاهرة الغموض، سواء فى الاستخدام العادى للغة أو فى الاستخدام الفنى لها. إلا أن اهتمام علماء الأسلوب انصرف أكثر بصورة واضحة إلى دراسة اللغة الأدبية التى تسعى إلى التأثير الفنى أو الجمالى، كما تتمثل فى لغة الشعر والنثر حيث يتركز علماء الأسلوب على أنماط التنوع Variation فى استخدام اللغة وصلة ذلك بالبنية اللغوية صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا(١).

وكانت ظاهرة الغموض فى اللغة العادية بعامة وفى لغة الأدب خاصة من الظواهر التى لفتت انتباههم فتوقفوا عندها وحاولوا معرفة أسبابها ومظاهرها، ولايكاد مفهوم الغموض ومظاهره عندهم يختلف عن مفهومه ومظاهره عند علماء اللغة لأنهم يستخدمون فى الواقع مناهج علماء اللغة فى التحليل ومن ثم حددوا مفهوم الغموض كما حدده علماء اللغة على المستوى النحوى مثلا بأنه عبارة عن بنية سطحية مشتقة من أكثر من بنية عميقة. يقول تيرنر Turner :

"Ambiguity in literature ought to mean what it means in linguistics, ambiguity in syntax a surface structure which can be drived from more than one deep structure"(٢)

أى «إن مفهوم الغموض فى الأدب ينبغى أن يكون على غرار مفهومه فى علم اللغة فالغموض فى التركيب النحوى هو عبارة عن وجود بنية سطحية مشتقة من أكثر من بنية عميقة».

ولكن علماء الأسلوب يفرقون صدد هذا بين الغموض الذى يقع بسبب من التركيب النحوى، وذلك الذى يقع فى لغة الأدب، أو حتى فى بعض الوثائق الرسمية، لأن لغة الأدب ولغة الوثائق الرسمية بطبيعتها تنحو نحو الصياغة العامة أحيانا. وكذلك الغموض الذى يقع لأن اللغة المكتوب بها نص ماتنتمى إلى مرحلة تاريخية أقدم من المرحلة التى يقرأ فيها النص. وعلم اللغة التاريخى Historical linguistics قادر على أن يكشف أن

---

(1) Turner, G.W, Stylistics, p. 32, p. 69, p. 109.

وانظر أيضا:

- Crystal and Davy op. cit., pp. 15 - 20, pp. 83 - 85.

(2) Turner, op.cit., p. 102.

مثل هذه النصوص كانت مفهومة فى عصرها. وكذلك الغموض الذى يقع بسبب الترجمة، كما ينبغى ألا نخلط بين الغموض والسخرية، وكل هذه ألوان من الغموض لاتنتمى بصورة مباشرة عند بعض علماء الأسلوب إلى الغموض الحقيقى true ambiguity الذى يقع غالبا بسبب من التركيب النحوى[1].

ومن ثم فإن الغموض الحقيقى يقع عند علماء الأسلوب لسبب من الأسباب الآتية:

١ - الأداء الصوتى، كما يتمثل فى النبر والتنغيم والفواصل وغيرها من الملامح الصوتية التى تصاحب الكلام Paralinguistic features[2] حيث يقوم الأداء الصوتى بوظيفة دلالية عندما يربط بين أجزاء الجملة الواحدة أو بين عدة جملة منفصلة، وتظهر وظيفته تلك بشكل واضح فى الشعر والنثر، وقد يقع الغموض ننتيجة لسوء توزيع النبر أو التنغيم على مستوى المفردات والتراكيب، فجملة مثل: a spanish student

هى جملة غامضة، لأنها تحتمل معنيين:

١ - الطالب الذى يدرس اللغة الأسبانية.

٢ - الطالب الأسبانى الجنسية.

ويرتفع الغموض ويتحدد المعنى المقصود بوضع النبر على كلمة «طالب» Student اذا كان المقصود الطالب الأسبانى الجنسية، أو بوضع النبر على كلمة «أسبانى» Spanish إذا كان المقصود الطالب الذى يدرس اللغة الأسبانية[3].

٢ - الغموض بسبب المفردات، ويرى «تيررنر» أنه من النادر أن يقع الغموض بسبب من صيغة الكلمة[4]، ولكنه يقع بسبب تعدد معنى الكلمة نتيجة للتطور الدلالى أو الاستعمال المجازى، فالكلمات التى تدل على أشياء حسية مثلا غالبا ماتكون واضحة الدلالة، وقليلا مايتطرق اليها الغموض، فى حين أن الكلمات التى تدل على أشياء غير حسية هى التى تسبب الغموض غالبا. فكلمات مثل النافذة أو الباب أو المعلم أو مايشبهها، تدل على معناها دلالة مباشرة. أما عبارة مثل Hard Times أى «الأوقات العصيبة» فى جملة مثل: The opening of hard times

---

(1) Ibid, p. 101.
(2) Ibid, p. 34, p. 42, p. 55, p. 60.

وانظر أيضا:

- Crystal and Davy op. cit., pp. 37 - 40.

(3) Ibid, p. 89.
(4) Ibid, p. 110.

أى «بداية الأوقات العصبية»، فهى لاتنتمى إلى مثل هذه الكلمات من حيث وضوح المعنى، مما يجعلنا نشعر بأن هناك دلالات أخرى ينبغى أن نتوقف عندها[١] وهو مايحدث فى الاستعمال المجازى الذى يوضح المعنى باستخدام كلمتين أو أكثر على سبيل الإستعارة أو التشبيه، فجملة مثل:

The ship ploughed the waves

فسنجد أن الفعل «حرث» Ploughed قد يعنى هنا «يمخر» أو «يشق» أى أن السفينة تمخر عباب الموج. وهى دلالة هامشية اكتسبها الفعل بوضعه فى هذا الاستعمال المجازى، فليس ثمة تلازم دلالى Collecation بين الفعل «حرث» وكلمة «الموج» بل إننا لو حللنا هذه الجملة على الطريقة الأرسطية فسنجد أن هناك أربع علاقات هى أن (أ) بالنسبة إلى (ب) تشبه (جـ) بالنسبة إلى (د). أى أن السفينة تفعل بالأمواج مايفعله المحرات بالأرض ومعنى ذلك أن الاستعمال المجازى يضع الكلمات فى نظام جديد يؤدى إلى اكتسابها دلالات جديدة، فعندما يقول كيتس Keats مثلا: "Leaden despirs eyes" أى «النظرة الرصاصية اليائسة». فإنه يضيف إلى مدلول كلمة الرصاص Lead معانى أخرى مثل الثقل "Heavy"، الظلام "Dark" والبرودة "Coldness" وغيرها، بالإضافة إلى ماقد توحيه كلمة عين "eye" من معان أخر. ففى عبارة مثل:"Heavy: eyes"

أى «العيون الثقيلة»، قد توحى بعدة دلالات مثل مكتئب، بليد، غبى، نعسان، كسلان، خامل. وقد اكتسبت كل هذه الدلالات من خلال وضعها فى هذا السياق المجازى. والدليل على ذلك أن كلمة مثل كلمة «النار» فى اللغة الإنجليزية لو استخدمت بمفردها لتبادر إلى ذهن القارىء أو السامع اطلاق النار أو القتل ولكن عندما نضعها فى عبارة مثل:

"The fire in your eyes"

أى «النار فى عينيك»، فسنجد أن هناك دلالات أخرى انبثقت من خلال الإستعمال المجازى الذى وضعت فيه الكلمة، وحينئذ سنجد أن للكلمة فى هذا النمط من الإستعمال دلالة سطحية surface meaning ودلالات أخرى عميقة underlying meaning. وهذا التعدد الدلالى هو مايؤدى غالبا إلى غموض المعنى وبخاصة فى الاستعمالات المجازية المعقدة[٢].

---

(1) Ibid, p. 130.
(2) Ibid, pp. 130 - 132.

وانظر أيضا:

Empson, op.cit., pp. 45 - 48.

٣- الغموض بسبب التركيب النحوى، ويحدث عندما يفشل القارىء أو السامع دائما فى العثور على معنى واحد أو محدد لتركيب نحوى ما لأن التركيب السطحى للجملة يعكس أكثر من تركيب عميق.

"True ambiguity rests on permanent failure to find a single one satisfactory syntax. A single surface structure reflects more than o deep structure". (١)

حيث نجد فى اللغة الانجليزية جملة مثل:

He decided on the boat

أى «عقد العزم على القارب»، وهى جملة تدل على معنين هما:

١- أنه اختار القارب لشرائه مثلا.

٢- أنه وصل إلى قرار ما وهو على سطح القارب (٢).

وبناء على هذا المفهوم الذى استقر عند علماء الأسلوب حول الغموض، درس ريتشارد أوهمان Richard Ohmann مظاهر الغموض فى تراكيب الروائى الأمريكى جيمس جويس J.Joyce الذى استعمل كثيرا من الجمل الغامضة مثل:

1- "The creature was driven by vantity"

أى «الإنسان مسُوق بغروره»، وهى جملة مبنية للمجهول مشتقة من جملة مبنية للمعلوم تمثل البنية العمقيقة لها، وهى :

2- " vantity drove the creature"

أى «يسوق الغرور الإنسان». حيث نجد أن كلمة "Vanity"، أى «غرور» هى اسم مشتق له تركيب عميق أيضا، معناه:

3- "Someone is vain"

أى «شخص ما مغرور»، وهى فى هذا تشبه كلمة darkness التى لها أيضا تركيب عميق معناه: Something is dark، أى «شئ ما مظلم»(٣).

وبذلك وظّف الأسلوبيون مقولات علماء اللغة وبخاصة ما جاء منها عند تشومسكى فى التحليل الأسلوبى بعامة، وفى الكشف عن الغموض الحقيقى الذى يقع فى لغة بعض

(1) Ibid, pp. 99 - 02.
(2) Ibid, p. 99.
(3) Ibid, p., 102.

الكتاب والشعراء نتيجة للتركيب النحوى أو المفردات لأنهم رأوا فى هذا المنهج اللغوى المضبوط وسيلة تتحول بها الجمل المعقدة Complex senteces إلى جمل بسيطة sim-ple senteces، وبالتالى يكشفون عن أسباب الغموض فى لغة هذا الكاتب أو ذاك.

وهكذا لم يبتعد علماء الأسلوب كثيرا فى تحليل الغموض عن مناهج علماء اللغة، وإن كانت دائرة علم الأسلوب أوسع وأرحب، إذ لايكتفى علماء الأسلوب بالتحليل البنيوى للكلام، وإنما يتخذون من تنوع الاستعمال اللغوى مدخلا لدراسة لغة الكاتب أو الشاعر بما لها من صلة بثقافته وبيئته وطبقته الإجتماعية، وغير ذلك، ولذلك نجد أن مفهوم الغموض قد يتسع عند بعضهم بحيث يشمل أشياء كثيرة لايلتفت إليها علماء اللغة. فالنص اللغوى عند علماء الأسلوب يمكن أن يصنف طبقا لخصائصه الأسلوبية إلى أنواع وأنماط بالنظر إلى مايستطيع هذا النص أن يقدمه من دلالات حول شخصية الكاتب Individu-laity، أو اللهجة الاقليمية regional dialect أو اللهجة الاجتماعية class dialect أو الزمن time الذى قيل أو كتب فيه النص، وعما إذا كان مكتوبا أو منطوقا discourse medium، ومدى بساطة أو تعقيده simple or complex وماقيل أو كتب، والمشاركين فيه discourse participation وغير ذلك (1). وأى نص لايقدم لنا هذه المعلومات يصبح نصا غامضا بصورة من الصور.

وبالرغم من هذه النظرة الواسعة لمفهوم الغموض عند بعض علماء الأسلوب، إلا أن أبرز مظاهره تتمثل عندهم، كما تمثلت عند القدماء وعلماء اللغة المحدثين فيما يلى:

١- الجانب الصوتى، ويتمثل فى أمرين:

أ- الملامح الصوتية المصاحبة للكلام.

ب- البنية الصوتية للكلام.

٢- المفردات، وتتمثل فى دلالة اللفظ على معنيين أو أكثر.

٣- التركيب النحوى المعقد الذى يحتمل بسبب هذا التعقيد معنيين أو أكثر، أو يخفى معناه ولايتضح، وغالبا ماينكشف الغموض فى مثل هذه التراكيب بتحويل البنية السطحية إلى أكثر من بنية عميقة.

وسنجد من خلال هذا البحث أن علماء العربية من نحاة ولغويين وبلاغيين بل ومفسرين وأصوليين أيضا، لم يتجاوزون رصد مظاهر الغموض بما رصده علماء اللغة والأسلوب والنقاد فى العصر الحديث، وإن اختلف التحليل وطريقة التناول.

(1) Crystal and Davy, op.cit., p. 81 - 82.

الفصل الأول

الغموض بين غريب القرآن ومشكله

مرت العربية قبل أن تصل إلينا فى صورتها التى رأيناها عليها فى الشعر الجاهلى بمراحل من التطور استقرت فيها على ضوابط فى صياغة الجمل والمفردات، فميزت بين المفرد والمثنى والجمع، وبين المذكر والمؤنث والمعرفة والنكرة، كما ميزت بين المعلوم والمجهول وتقدمت فى ضبط الزمن اللغوى وتحديده، واستخدمت الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة استخداما مطردا للمتكلم والمخاطب، مفردا ومثنى وجمعا، كما تحكمت فى المعنى بالصيغ والأوزان فى المفردات وبالنظم وترتيب الكلمات، وعلامات الإعراب فى الجمل والعبارات، كما توسعت فى الدلالات لكى تلبى حاجات المتكلمين بها، فنقلت بعض الألفاظ من دلالاتها الحسية إلى دلالات مجردة، أو من معناها الأصلى إلى معان مجازية، كما تطورت أساليب الكلام فيها فخرجت بها عن أصل الوضع إلى معان وأساليب بلاغية، استخدمت فيها التشبيهات والاستعارات والكنايات وغيرها من الصور الفنية، وألوان البديع لغرض فنى جمالى.

ثم كان نزول القرآن الكريم تتويجا لما وصلت إليه هذه اللغة من تطور فعكست ألفاظه وتراكيبه كل الخصائص اللغوية التى وصلت إليها العربية عبر حياتها الطويلة، بل لقد أضاف إليها القرآن الكريم زادا جديدا وأظهر كل قدراتها اللغوية فى التعبير والتصوير. ومن ثم أجمع الباحثون قديما وحديثا على أن أهم حدث فى تاريخ هذه اللغة هو نزول القرآن وظهور الإسلام (١).

ولم تكن العربية حتى نزول القرآن وقبل الفتح الإسلامى إلا لغة الأعراب المقيمين فى شمال الجزيرة العربية والمتناثرين فى بعض مناطق بادية الشام والعراق، كما كانت لغة سكان بعض المدن التى ظهرت فى شمال الجزيرة مثل مكة والطائف ويثرب. ولم يكن هؤلاء البدو والحضر أصحاب حضارة راقية اذا ماقورنوا بالمناطق المجاورة لهم فى الشام والعراق وفارس ومصر ولكن بالقرآن والإسلام بدأت مرحلة جديدة فى حياة هذه اللغة وهى مازالت بعد لم تغادر موطنها الأصلى، فقد حوى القرآن كل الأفكار والمبادىء والتعاليم التى أتى بها الإسلام بطريقة عكست خصائص العربية، كما وصلت إليها فى تلك المرحلة، ولكن فى أسلوب فاق طاقة البشر. واستجابت العربية لهذا التطور. يقول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) «كانت العرب فى جاهليتها على إرث من إرث آبائهم فى لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال، ونسخت

(١) الباقلانى، اعجاز القرآن، ص ص١٩، ٣٥.
وانظر أيضا يوهان فك، العربية، ترجمة د. رمضان عبد التواب ص ١٣.

ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع بزيادات زيدت وشرائع شرعت، وشرائط شرطت فعفا الأول على الآخر» (١).

وتمثل هذا التغير اللغوى الذى حدث بعد الإسلام وأشار إليه ابن فارس فى اتجاهين واضحين:

١ - طرحت العربية ألفاظا وتراكيب لم تعد الحاجة تدعو إلى استعمالها.

٢ - تغيرت دلالات كلمات عربية قديمة إلى دلالات جديدة.

أما الاتجاه الأول فيحدد لنا الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) بعض ملامحه بقوله: «ترك الناس مما كان مستعملا فى الجاهلية أمورا كثيرة، فمن ذلك تسميتهم للخراج أتاوة، وكقولهم للرشوة وما يأخذه السلطان الحملان والمكس، كما تركوا أنعم صباحا وأنعم ظلاما وصاروا يقولون كيف أصبحتم وكيف أمسيتم، كما تركوا أن يقولوا للملك أو السيد المطاع أبيت اللعن. وقد ترك العبد أن يقول لسيده ربى، وكذلك حاشية السيد والملك تركوا أن يقولوا ربنا... ومن الكلام المتروك وأسماؤه زالت مع زوال معانيها المرباع والنشيطة.... فالمرباع ربع الغنيمة الذى كان خالصا للرئيس وصار فى الإسلام الخمس على ماسنه الله تعالى وأما النشيطة فإنه كان للرئيس أن ينشط عند قسمة المتاع العلق النفيس يراه إذا استحلاه، وبقى الصفى. وكان لرسول الله ﷺ من كل مغنم» (٢).

أما الاتجاه الثانى فيظهر فى صورة مبحث كامل التفت إليه الفقهاء وعلماء العربية القدماء فيما عرف باسم «الألفاظ الإسلامية» ويحدد لنا الجاحظ أيضا بعض سمات هذا التغير الدلالى فى ألفاظ العربية بقوله: «ومن المحدث المشتق اسم المنافق لمن تراءى بالإسلام واستتر بالكفر أخذ ذلك من النفقاء، ومثل ذلك الشرك والكفر والتيمم، قال تعالى: ﴿وتيمموا صعيدا طيبا﴾، أى تحروا ذلك وتوخوه .... فكثر هذا الكلام حتى صار التيمم هو المسح نفسه» (٣).

ويعد كتاب «الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية»، لأبى حاتم الرازى (ت ٣٢٢هـ) من الأعمال العلمية الناضجة التى أولت هذا التطور الدلالى عناية خاصة . بل فى الحقيقة إن هذا الكتاب يكاد يصل إلى شبه دراسة كاملة فى التطور الدلالى من خلال رصده لما طرأ على عدد كبير من الكلمات العربية من تغير فى دلالتها، ورد بعضها فى القرآن الكريم ، والبعض الآخر فى أحاديث الرسول، وتردد بعضها على ألسنة الفقهاء

---

(١) الصاحبى، ص ٧٨.

(٢) الحيوان ١/ ٣٢٧ - ٣٣٠، والسيوطى، المزهر ١/ ٢٩٧.

(٣) الحيوان ١ / ٣٣٢، وانظر أيضا الصاحبى ص ٨٣، والمزهر ١/ ٢٩٤ - ٢٩٦.

وأصحاب المذاهب الكلامية والفلسفية، وكلــها تـشترك فى أنها كلمات اكتسبت دلالات جديدة، كما تكوِّن فى مجموعها عصب المعجم الإسلامى الجديد(١).

ولم يكن المسلمون الأوائل، والنبى بعد مازال بين ظهرانيهم، فى حاجة إلى مثل هذه الأعمال العلمية، أو ما يشبهها أو يقترب منها لكى تشرح لهم دلالات ما جاء به القرآن من ألفاظ جديدة ترتبت عليها أحكام وعبادات وإنما احتاجوا إلى مثل هذا وأكثر منه بعد أن تعقدت الحياة الإسلامية بدخول أجناس وثقافات، وفقد العرب سليقتهم اللغوية، فالقرآن مثلا لم يذكر التكاليف العملية والأحكام الدينية المترتبة على دلالات بعض الألفاظ مثل: الأذان والصلاة والزكاة والحج والركوع والسجود والمؤمن والكافر وغيرها (٢) وإنما اكتفى فى أمر الصلاة بقوله تعالى﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ ومن ثم كانت إحدى المهام التى أناط بها الله الرسول ﷺ «البيان» لما جاء فى القرآن من معان ودلالات لم يعرفها العرب فى أوضاعها اللغوية الجديدة قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾. أما فيما عدا ذلك فقد اعتمد العرب على سليقتهم اللغوية فى فهم القرآن، فهم أبناء اللغة وجاء القرآن على طريقتهم فى الكلام. يقول أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) «فلم يحتج السلف الذين أدركوا وحيه إلى النبى أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسنة فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانية وعما فيه مما فى كلام العرب مثله من الوجوه»(٣).

ولكن هذه السليقة العربية لم تبق كما هى،فبعد وفاة الرسول وفى أقل من قرن من الزمان استطاع المسلمون فتح معظم بلاد العالم القديم وكانت هذه البيئات قبل الفتح الإسلامى تسكنها شعوب ذات ثقافات وحضارات ولغات مختلفة. وقد نتج عن فتح العرب لهذه البلاد عمليات مزج قوية بين الأمة الغالبة والأمم المغلوبة، وكانت العربية هى البوتقة التى انصهرت فيها هذه الأجناس والثقافات والحضارات واللغات، إذ أقبلت هذه الشعوب على التعريب إقبالا شديدا، إما لدوافع دينية خالصة وإما لدوافع دنيوية عملية. وعندما قامت دولة بنى العباس واستقر لها الأمر بدأت الحضارة الإسلامية الجديدة فى الظهور تغذيها معارف وعلوم وحركة واسعة فى الترجمة حولت العقل العربى من عقل

---

(١) انظر مقدمة كتاب الزينة ٥٦/١ وما بعدها، حيث ذكر أبو حاتم الرازى ما اشتمل عليه كتابه من الألفاظ، وانظر أيضاً كيف عالج بعض الألفاظ التى تدل على الصفات الإلهية مثل الواحد الأحد، الظاهر، الباطن، البارىء، المصور فى ٣٢/٢، ٤٩، ٥٦، ٦٣، ٧٠.

(٢) حول دلالة هذه الألفاظ وتطورها، انظر كتاب الزينة ١٤٦/١ وما بعدها، وانظر ايضاً الصاحبى ص ٨٣ – ٨٦، والمزهر ٢٩٤/١ – ٢٩٦.

(٣) مجاز القرآن ٨/١.

بدوى ساذج إلى عقل معقد مركب يتحدث عن الجزء الذى لا يتجزأ، والطفرة، والهيولى، والوجود، والعدم والمنطوق والفحوى والقرينة، وغير ذلك من معان وفلسفات لم يكن فى استطاعة العقل البدوى أن يقترب منها أو يفهمها. والنتيجة التى يخرج بها الباحث من استعراض ألوان الثقافات المختلفة ، أن العربية لم تعد سليقة.

ولكن هؤلاء العرب بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام احتاجوا إلى المسألة عن معانى القرآن نظراً لاختلافهم فى معرفة كلام العرب ودلالة بعض ألفاظه. وإذا كان أبو عبيدة قد أشار إلى أن العرب كانوا يعرفون جميع معانى القرآن ويدركون مقاصده، إلا أننا لا نستطيع أن نفهم من ذلك أن الرجل قد أراد التعميم، وإنما من الواضح أنهم كانوا يتفاضلون فى معرفة اللغة العربية وأساليبها، ومن ثم تفاضلوا أيضاً فى فهم القرآن. وكان أكثرهم فهماً له ومعرفة بأسراره هؤلاء الصحابة الذين لازموا النبى فسمعوا منه تفسير آيات القرآن الكريم ثم اعتمدوا على المأثور من حديثه فى التفسير بعد وفاته. ومع ذلك فمما يلفت النظر أن بعض المؤرخين والرواة يذكرون أن بعض كبار الصحابة، ممن كانوا وثيقى الصلة بالرسول ، ومن العرب الخلص أيضاً، أى من أبناء اللغة مثل أبى بكر وعمر كانوا يسألون عن بعض الكلمات التى جاءت فى الاستعمال القرآنى ولا يعرفون معناها. فمن ذلك مثلا أن أبا بكر سئل عن معنى كلمة «الأَب» فى قوله تعالى «وفاكهة وأَبا» فلم يعرف معناها وقال «أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى، إن أنا قلت فى كتاب الله بما لا أعلم» [١]، وأن عمر بن الخطاب قرأ وهو على المنبر الآية نفسها ثم قال «هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأَبّ؟» ثم رجع إلى نفسه فقال «إن هذا لهو التكلف ياعمر» [٢].

ويعلق الزركشى على هذه الروايات قائلا «وماذاك بجهل منهما لمعنى كلمة الأَبّ»، وانما يحتمل، والله أعلم، أن الأَبّ من الألفاظ المشتركة فى لغتهما، أو فى لغات فخشيا إن فسراه بمعنى من معانيه أن يكون غيره، ولهذا اختلف المفسرون فى معنى الأَبّ [٣].

ولكن الرواة والمؤرخين يقصون رواية أخرى عن تساؤلات عمر بن الخطاب حول دلالات بعض كلمات القرآن فتقول انه سأل – وهو على المنبر أيضا – عن معنى كلمة «تخوف» فى وقوله تعالى ﴿ويأخذكم على تخوف﴾، فقام إليه شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، والتخوف التنقص، فسأله عمر، وهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها، فقال الشيخ نعم، واستشهد ببيت من الشعر يقول:

---

(١) الزركشى، البرهان ١/٢٩٥، وانظر أيضا السيوطى، الإتقان ١/١١٥.
(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة، وانظر أيضا الاتقان، نفس الصفحة.
(٣) البرهان ١/٢٩٥ – ٢٩٦.

تخوف الرحل منا، تامكا قردا   كما تخوف عود النبعة السفن

ثم تضيف الرواية بعد ذلك أن عمراً، بعد أن سمع الشاهد على معنى كلمة التخوف قال «عليكم بديوانكم أن تضلوا، فقالوا، وماديواننا، قال « شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم» [1]. ومع ذلك فقد كان عمر رغم هذه الروايات، كما يصفه ابن عباس، من أروى الناس للشعر [2].

ومع مافى هذه الروايات من مبالغة وافتعال، إذ من غير المعقول أن يقف عمر، وهو خليفة المسلمين ليسأل من فوق المنبر عن معنى كلمة أو أخرى من كلمات القرآن، خفى معناها عليه، إلا أن هذه الروايات قد تدل بطريق غير مباشر على أن بعض الصحابة، غير عمر أو أبى بكر بالذات، لم يكونوا على قدم المساواة فى علمهم وفهمهم للقرآن. وتفاوت علمهم بمعانيه وكلماته بقدر تفاوتهم فى الإحاطة بمفردات العربية وخصائصها اللغوية فى التعبير، كما تدل أيضا هذه الروايات على أن عامة الناس كانوا فى حاجة لمن يفسر لهم القران بعد وفاة الرسول.

فالمسلمون، كما نعلم، مندوبون لقراءة القرآن وفهمه وتدبر آياته، ومن ثم بدأت الخطوات الأولى فى تفسير القرآن الكريم، وكان من أوائل الذين نهضوا بهذا العمل عبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ) ابن عم الرسول الذى يعزى اليه أنه أول من تكلم فى غريب القرآن. ومصطلح الغريب هنا، كما فسره الزركشى، هو معرفة المدلول [3] ومع ذلك فإن بعض الروايات أيضا تنسب إلى عبد الله بن عباس أنه لم يكن يعرف معنى قوله تعالى ﴿وحنانا من لدنا﴾ وأنه قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعا، «غسلين»، و«حنانا»، و«أواه»، و«الرقيم» [4] ويبدو أن ابن عباس بالإضافة إلى التفسير المأثور عن النبى على الصلاة والسلام قد التزم بالمنهج الذى أشار إليه عمر فيما ذكرناه من قبل من روايات وهو شرح دلالة الكلمة أو معرفة معناها على هدى من استعمالها فى الشعر الجاهلى، أو، كما قال الزركشى «تصيد المعانى من السياق» [5]. بل نجد رواية تنسب إلى عبد الله بن عباس ماسبق أن نسبته إلى عمر حول علاقة ألفاظ القرآن

---

(١) القرطبى، التفسير ١٠/١١٠.

(٢) المبرد، الكامل ٢/١٦٩.

(٣) البرهان ١/٢٩١.

(٤) الاتقان ١/١١٥.

(٥) البرهان ١/٢٩١.

بالشعر الجاهلى، تقول الرواية ان ابن عباس قال «الشعر ديوان العرب فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه» [1] كما كان يقول «إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فإن الشعر ديوان العرب» [2].

وبناء على ذلك أخذ ابن عباس فى تطبيق هذا المنهج فى شرحه لكثير من الكلمات والعبارات القرآنية، رأى بعض الناس أنها غامضة عليهم، وأن دلالتها تحتاج إلى شرح وتفسير. ولعل من أشهر مانسب إلى ابن عباس من ذلك مسائل نافع بن الأزرق الذى وصفه المبرد بقوله: إنه كان ذا نظر وتوغل وتعمق [3]، وهو مالايتفق وسؤاله عن كثير من الكلمات بعضها واضح المعنى لايحتاج إلى تفسير أو استشهاد، والآخر قد يحتاج إلى شرح وتفسير ويبدو أن نافعا لم يكن من المؤيدين لمنهج ابن عباس فى الاعتماد على الشعر الجاهلى فى شرح دلالات ألفاظ القرآن، لأنه وصف ابن عباس بقوله «هذا الذى يجترىء على تفسير القرآن بما لاعلم له به» [4].

ويشير ابن الانبارى إلى مايشبه هذا بقوله «قد جاء عن الصحابة والتابعين كثرة الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر، وأنكر جماعة لاعلم لهم على النحويين ذلك وقالوا، إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلا للقرآن، وقالوا، كيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن، وهو مذموم فى القرآن والحديث، وليس الأمر كما زعموا أنّا جعلنا الشعر أصلا للقرآن، بل أردنا تبيين الحرف من الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله قال، ﴿انا جعلناه قرآنا عربيا﴾ [5]. ثم يستشهد بعد ذلك بقول ابن عباس عن علاقة القرآن بالشعر، ومما يدل على أن نافعا لم يكن يسأل ليعرف دلالات بعض الكلمات القرآنية، وإنما كان يريد فيما يبدو التأكد من اطراد منهج ابن عباس فى شرح الكلمات الغريبة وغير الغريبة، لأنه كان يسأل، كما أشرت من قبل، عن كلمات لاتحتاج إلى شرح مما لايتفق مع ماوصف به من أنه كان صاحب نظر وتوغل وتعمق.

وقد نقل الفراء (ت ٢٠٧ هـ) بعضا من شروح ابن عباس، كما كان يطبق منهجه فى شرح بعض الألفاظ بالاستشهاد عليها بالشعر [6]. كما نقل المبرد طرفا من مسائل نافع

---

(١) المصدر السابق ١/٢٩٤ ، وانظر أيضا، الإتقان ١/١٢١.
(٢) المصدر السابق نفسه الصفحة.
(٣) الكامل، ١/١٦٣.
(٤) الإتقان ١/١٢١.
(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(٦) انظر معانى القرآن، صفحات ٢/١٧، ٦٤، ٦٦، ٢٠٠.

بن الأزرق [١] . وذكرها الانبارى فى كتاب الوقف والابتداء باسناده . ونقلها السيوطى كاملة فى الإتقان وبلغ عددها أكثر من مائة وثمانين مسألة [٢]، بعضها يسأل فيه نافع عن معنى كلمة مفردة، وبعضها يسأل فيه عن معنى تركيب أو جملة ولكنها لاتتفق جميعا فى درجة الغموض أو الغرابة، كما قالوا، بل تتفاوت تفاوتا كبيرا بين الوضوح الذى لايحتاج إلى شرح أو تفسير، والغرابة أو الغموض الذى تحتاج معه إلى شىء من ذلك[٣] .

فمن ذلك مثلا أن نافعا سأل ابن عباس عن مدلول كلمة «عزين» فى قوله تعالى ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ ففسرها ابن عباس بقوله، العزون حلق الرفاق، واستشهد على ذلك بقول عبيد بن الأبرص:

فجاءوا يهرعون إليه حتي ... يكونوا حول منبره عزينا[٤]

وسأله ابن الأزرق عن مدلول كلمة «سريا» فى قوله تعالى: ﴿وجعل ربك تحتك سريا﴾ فقال ابن عباس هو الجدول، فسأل نافع عن الشاهد فقال:

سلما تري الدارج منها أزورا ... اذا يعج في السري هرهرا[٥]

وسأله أيضا عن مدلول كلمة «زنيم» فى قوله تعالى ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ فقال ابن عباس هو الدعى الملزق، واستشهد على ذلك بقول حسان ابن ثابت:

زنيم تداعاه الرجال زيادة ... كما زيد في عرض الأديم الأكارع[٦]

وقد يكون مرد الغرابة أو الغموض فى بعض الكلمات التى سأل عنها نافع لأنها من استعمال لهجى معين، كما رأينا فى الراوية التى نسبت إلى عمر سؤاله عن معنى «التخوف»، وكما شرح أيضا ابن عباس كثيرا من الكلمات التى أرجعها إلى بعض اللهجات العربية، مثال ذلك قوله تعالى ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ فقال، ييأس بمعنى يعلم فى لغة بنى مالك[٧] . قال الفراء «قال المفسرون ييأس، يعلم، وهو فى المعنى على تفسيرهم، لأن

---

(١) الكامل ، ١٦٣/٢ ومابعدها.
(٢) البرهان، ٢٩٤/١ .
(٣) الاتقان ١٢١/١ - ١٣٤ .
(٤) المصدر السابق ١٢١/١ .
(٥)الكامل ١٦٤/١ ، وانظر أيضا، الاتقان ١٢٨/١ .
(٦) المصدر السابق ١٦٥/٢ ، وانظر أيضا الاتقان ١٢٦/١ .
(٧) الاتقان ١٢٢/١ .

الله قد أوقع إلى المؤمنين أنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا فقال، أفلم ييأسوا علما، يقول، يؤسهم فكان فيهم العلم مضمرا، كما تقول فى الكلام قد يئست منك ألا تفلح علما كأنك قلت علمته علما،[١].

كما فسر ابن عباس قوله تعالى ﴿بورا﴾ أى هلكى، بلغة عمان، «ولايلتكم» أى لاينقصكم، بلغة بنى عبس. «ومراغما» أى منفسخا، بلغة هذيل[٢] وقد تكون الغرابة فى الكلمة لأنها مقترضة من إحدى اللغات الأجنبية، كما رأى ذلك ابن عباس فى قوله تعالى﴿لن يحور﴾ أى ، لن يرجع، «وحوبا» بمعنى «اثما»، وهما، كما قال، من اللغة الحبشية[٣].

ومع ذلك نجد نافعا يسأل أيضا عن كلمات مثل «الوسيلة» فى قوله تعالى: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ و﴿شرعة ومنهاجا﴾، و﴿سنابرقة﴾، و﴿قصر مشيد﴾، و﴿قد أفلح المؤمنون﴾، و ﴿أمشاج﴾ و ﴿لبائس الفقير﴾ و ﴿لاتأس﴾ و ﴿يهرعون﴾ و﴿قولا سديدا﴾ وغيرها كثيرا[٤].

ومعنى ذلك أن ما اصطلح على تسميته بغريب القرآن، ونهض بتفسيره عبد الله بن عباس هو نوع من الدراسة الدلالية لبعض كلمات القرآن الكريم من خلال الاستخدام السياقى لها. أو هو، كما قال الزركشى، تصيد المعنى من السياق، وهو مايطلق عليه علماء اللغة المعاصرون التحديد السياقى للدلالة Contextual determination[٥]. وكان الغموض فيها نتيجة لاستخدام القرآن لها بدلالات لم يكن لدى عامة الناس، وبعض خاصتهم معرفة بها، لنقص فى معرفتهم بكلام العرب أو لهجاتهم أو اللغات التى اقترضت منها العربية بعض الكلمات، أى بعبارة أخرى، أن منشأ الغرابة أو الغموض فى دلالة هذه الكلمات جاء من نقص فى معارف الناس حول اللغة واستعمالاتها. وهو واحد من أسباب الغموض التى تتصل بالسامع لا بالحدث اللغوى[٦] ولذلك استخدم عبد الله بن عباس فى تفسيره لمثل هذه الكلمات منهجا يقوم على الرجوع إلى السياق الذى استعملت فيه الكلمة فى كلام العرب، لأن السياق كما أشار علماء اللغة المحدثون، هو الذى يحدد

---

(١) معانى القرآن ٦٣/٢.

(٢) الاتقان ١٣٢/١ - ١٣٣.

(٣) المصدر السابق ١٢٥/١، ١٢٩.

(٤) المصدر السابق ١٢١/١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨.

(5) Ducrot and Todorov, Encyclopedic dict. of sciences of lang. pp. 236 - 237.

(6) Empson, op.cit, p. 19 - 21.

وانظر أيضا ابن سنان الخفاجى، سر الفصاحة ص ٦٠ - ٦١.

دلالة الكلمة فى كثير من الحالات اذ أن الكلمة توجد فى كل مرة تستعمل فيها فى جو يحدد معناها تحديدا مؤقتا ولكن السياق هو الذى يفرض دلالة واحدة بعينها للكلمة بالرغم من تعدد معانيها التى فى وسعها أن تدل عليها.

والسياق أيضا هو الذى يخلص الكلمة من الدلالات التى تدعها الذاكرة تتراكم عليها، أى يخلق لمعناها قيمة حضورية[1] وهو انتباه مبكر لقيمة السياق ودوره فى رفع الغموض عن الدلالة. ولعل هذا أيضا ماجعل بعض الصحابة والتابعين يتورعون من الإقدام على شرح كلمات القرآن الكريم اعتمادا على علمه أو ذاكراته. ولذلك استقر منهج ابن عباس وتطور بعد ذلك وانتقل إلى المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى وهو حديث رسول الله ﷺ، فيما عرف عند القدماء «بغريب الحديث»، وهو أيضا شرح لدلالات بعض الكلمات التى لاتتضح دلالتها فى بعض الأحاديث النبوية. والمنهج الذى جمع بين غريب القرآن وغريب الحديث هو الرجوع إلى السياق الذى استعملت فيه هذه الكلمات عند العرب، أو هو، كما قال الزركشى عن القرآن التوصل إلى فهمه بالنظر إلى مفردات الألفاظ فى لغة العرب ومدولاتها واستعمالها بحسب السياق[2].

وهو ما أفاض فى الحديث عنه علماء اللغة وعلماء الأسلوب، من حيث صلة السياق بالمعنى وكشف الغموض الذى يحيط ببعض الكلمات والعبارات، وأقام فيرث على أساسه نظريته العلمية فى دراسة المعنى[3].

غير أن ظاهرة غموض وغرابة دلالات بعض الكلمات أو العبارات فى النص القرآن الكريم، لم تقف عند هذه الحدود البسيطة التى وقف عندها عبدالله بن عباس وطبقته من الصحابة والتابعين، وإنما اتخذت منهجا أكثر عمقا مع تطور الحياة العقلية للعرب والمسلمين بعد الفتح الإسلامى وخاصة فى القرنين الثانى والثالث، وانتشار المذاهب والفرق ومحاولة كل فرقة تفسير القرآن بما يتفق ومقولاتها المذهبية. وتمثل كل ذلك فيما أطلق عليه المفسرون مشكل القرآن ومتشابهه، وهما مصطلحان يدلان على نمطين من أنماط الغموض فى المفردات والتراكيب تعرض لهما المفسرون بما لهما من صلة بالنص القرآن وتفسيره وفهمه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى مصطلح «المتشابه» وإلى مصطلح آخر مقابل له وهو «المحكم»، وذلك فى وصفه لآيات القرآن الكريم، قال تعالى ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب

---

(١) فندريس، اللغة ص ٢٣١.

(٢) البرهان ٢/ ١٧٢.

(3) Lyons, op.cit vol. 2. p. 570.

وانظر أيضا: Leach Geoffrey, Semantics, pp. 71 76.

منه آيات محكمات، هن أم الكتاب واخر متشابهات﴾[1] . ومعنى هذا أننا أمام ثلاثة مصطلحات تصف آيات القرآن من حيث الوضوح والغموض، ذكر منها القرآن اثنين هما: المحكم والمتشابه، وذكر المفسرون الثالث، وهو «المشكل». أما المحكم فأصله فى اللغة من «حكم» التى تدل على المنع، تقول أحكمت بمعنى رددت ومنعت وسمى الحاكم حاكما لمنعه الظالم من أن يظلم، وحكمة اللجام هى التى تمنع الفرس من الاضطراب[2] . وأما معناه فى الاصطلاح، فهو ما أحكمته بالأمر والنهى وبيان الحلال والحرام ومن ثم فإن المحكم، كما قال الزركشى، «**هو ماوضح معناه واستقل بحيث لايحتمل تأويلاً**»[3] .

وأما المتشابه والمشكل فيحدد لنا ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) معناهما اللغوى والاصطلاحى وطبيعة العلاقة بينهما بقوله «**أصل التشابه أن يشبه اللفظ اللفظ فى الظاهر، والمعنيان مختلفان**» قال الله عز وجل فى وصف ثمر الجنة ﴿وأتوا به متشابها﴾ أى متفق المناظر مختلف الطعوم. ومنه يقال، اشتبه على الأمر اذا أشبه غيره فلم تكد تفرق بينهما، وشبهت على اذا ألبست الحق بالباطل. ومنه قيل لأصحاب المخاريق أصحاب الشبهة لأنهم يشبهون الباطل بالحق. «**ثم يقال لكل ماغمض ودق متشابه، وان لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره**». ألا ترى أنه قيل للحروف المقطعة فى أوائل السور متشابه، وليس الشك فيها والوقوف عندها لمشاكلتها غيرها والتباسها بها»[4] .

ومعنى قول ابن قتيبة إن المتشابه هو الغامض الدقيق من المعنى ويحدث ذلك نتيجة لواحد من أمرين هما:

١ - أن يشبه اللفظ اللفظ والمعنيان مختلفان.

٢ - أن لايشبه اللفظ اللفظ، ومع ذلك فمعنى كل منهما غامض. أى أن الغموض فى المشكل قد يأتى من اتفاق اللفظ أو اختلافه على السواء نتيجة لتعدد معنى كل منهما.

أما الأول فهو المشترك اللفظى Homonymy وأما الثانى فهو تعدد المعنى Polysemy، وهو ماسنتعرض له بالتفصيل عند الحديث عن الغموض عند اللغوين القدماء، غير أن بعض علماء اللغة المعاصرين ينظرون إلى كل من المشترك اللفظى وتعدد المعنى على أنهما موضوعان مستقلان، بينما يجمع بينهما علماء آخرون على أنهما صورتان لظاهرة واحدة هى تعدد المعنى للفظ الواحد، وهو سبب من أسباب الغموض عندهم[5] .

---

(١) سورة آل عمران، آية ٧ .

(٢) لسان العرب، مادة حكم.

(٣) البرهان، ٢/٦٨ - ٦٩ . وانظر أيضا الاتقان ٢/٢ .

(٤) تأويل مشكل القرآن، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(5) Zgusta, Manual of Lexicography, p. 60, 74.

وانظر أيضا: Lyons op.cit vol. 2 p. 550.

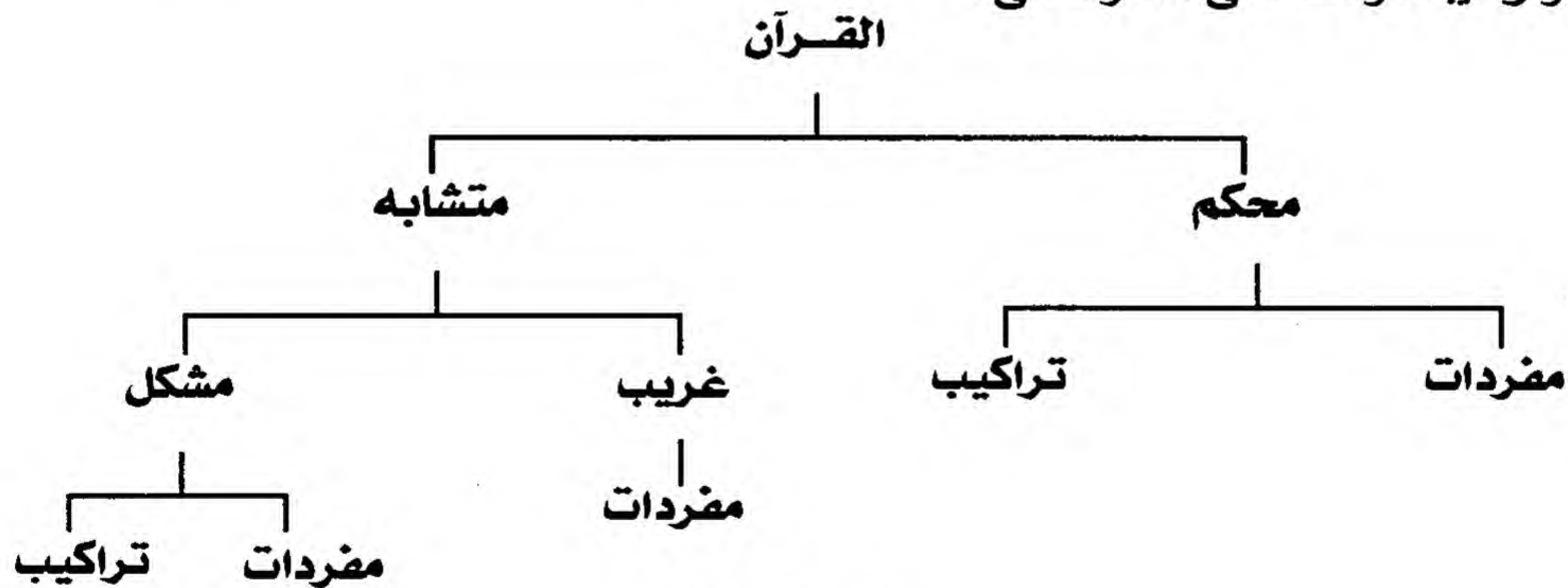
وانظر كذلك الفصل الثالث من هذا البحث.

ويبدو أن ابن قتيبة كان يأخذ بالرأى الثانى، لأنه يدخل المشكل فى المتشابه. يقول «ومثل المتشابه المشكل، وسمى مشكلا لأنه أشكل، أى دخل فى شكل غيره فأشبهه وشاكله» **«ثم قد يقال لكل ماغمض، وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة، مشكل... وقد بينت ماغمض من معناه لالتباسه بغيره واستتار المعاني المختلفة تحت لفظه».**(١)

ويبدو أيضا أن ابن قتيبة كان يعُد غريب القرآن جزءا من مشكل القرآن لأنه يقول «وأفردت للغريب كتابا كى لايطول هذا الكتاب»(٢) ويؤكد ذلك قوله فى مقدمة غريب القرآن «نفتح كتابنا هذا بذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى فنخبر بتأويلهما واشتقاقهما، ونتبع ذلك ألفاظا كثر تردد ها فى الكتاب، لم نر بعض السور أولى بها من بعض ثم نتبدىء فى تفسير غريب القرآن دون تأويل مشكله، إذ كنا قد أفردنا للمشكل كتابا جامعا كافيا بحمد الله»(٣).

الا أن غريب القرآن يتصل أكثر مايتصل بالمفردات وغموض معناها، يدل على ذلك صنيع ابن عباس، ويؤكد ذلك صنيع الراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢ هـ) فى معجمه، المفردات فى غريب القرآن(٤).

وأما المشكل والمتشابه فقد يتصل بالمفردات والتراكيب معا، كما سنرى ومعنى هذا أن القرآن ينقسم عند ابن قتيبة إلى محكم وغريب ومشكل ومتشابه، بالنظر إلى ألفاظه وتراكيبه، وذلك على النحو التالى:



شكل رقم (١)

---

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص ١٠٢.
وانظر أيضا، البرهان ص ٣٢.
(٢) المصدر السابق ص ٣٢.
(٣) المصدر السابق، مقدمة المحقق ص ١٤.
(٤) المفردات فى غريب القرآن ص ٦ وانظر أيضا الاتقان ٢/٢.

وابن قتيبة حين يحدد دلالة هذه المصطلحات المتصلة بغموض المعنى فى بعض آيات القرآن، لايكتفى بهذا التحديد النظرى، وإنما يكرس كتابه فى تأويل مشكل القرآن للتحليل والتطبيق انطلاقا من هذا التحديد النظرى لمصطلحات الغموض فى النص القرآنى. وهو ينحو فى هذا التحليل والتطبيق منحى لغويا خالصا، مستندا إلى طريقة العرب فى الكلام، ومتهما كل طاعن فى القرآن بجهله بمذاهب العرب وافتنانها فى الكلام. يقول «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا واتبعوا ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بأفهام كليلة وأبصار عليلة، ونظر مدخول فحرفوا الكلام عن مواضعه وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن وفساد النظم والاختلاف، وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر والحدث الغر، واعترضت بالشبهة فى القلوب، وقدحت بالشكوك فى الصدور.. فأحببت أن أنضح عن كتاب الله وأرمى من ورائه بالحجج النيرة والبراهين البينة، وأكشف للناس مايلبسون فألفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن، مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة فى الشرح والإيضاح وحاملا ما لا أعلم فيه مقالا لإمام مطلع على لغات العرب لأرى به المعاند موضع المجاز وطريق الإمكان من غير أن أحكم فيه برأى أو أقضى عليه بتأويل، ولم يجز لى أن أنص بالإسناد إلى من له أصل فى تفسير إذ كنت لم أقتصر على وحى القوم حتى كشفته، وعلى إيمائهم حتى أوضحته، وزدت فى الألفاظ ونقصت، وقدمت وأخرت وضربت لذلك الأمثال والأشكال حتى يستوى فى فهمه السامع»[1].

وأما حال العرب فى مبانى ألفاظها وإعرابها وألوان فروقها بين معانى الألفاظ، وهو المستوى اللغوى الذى يرى ابن قتيبة أن يتسلح به من أراد فهم النص القرآن فهما واضحا، والوصول إلى طرق الدلالة فيه فهو يحدده بقوله «وللعرب المجازات فى الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الإستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والجميع خطاب الإثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن، ولذلك لايقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شىء من الألسنة، كما نقل الإنجيل عن السريانية والحبشية والرومية، وترجمت التوارة والزبور وسائر كتب الله تعالى إلى العربية[2].

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢ - ٢٣.
(٢) تأويل مشكل القرآن ٢٠، ٢١.

وهو يبدأ بصور المجاز وأنواعه لأنه يرى أن كثرة الغلط وسوء فهم المتأولين كان من جهته، وبسببه تشعبت الطرق بالمسلمين، وكثرت الملل والنحل واختلفت، وهو يعتمد فى ذلك على ما أتى من المجاز فى النص القرآن، ويعقب عليه بأمثلة من الشعر وكلام العرب[1]. يرد بذلك طعن الطاعنين بخفاء معانى القرآن. يقول «وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز فإنهم زعموا أنه كذب لأن الجدار لايريد، والقرية لاتسأل، وهذا من أشنع جهالتهم وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم، ولو كان المجاز كذبا وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا، كان أكثر كلامنا فاسدا»[2]. ولكى يدلل على أن كثير من الكلام العادى فيه تجوز يأتى بجمل منه مثل: «نبتت البقل»، «وطالت الشجرة» و «أينعت الثمرة» و «أقام الجبل» و «رخص السعر»، وهو يرى أن هذه الجمل ومايجرى مجراها مصاغة على المجاز لأن الفاعل فيها ليس فاعلا فى الحقيقة ولكنه فاعل طبقا لأوضاع اللغة. ولعل كثرة مثل هذه الجمل فى الكلام هى التى جعلت النحاة يعرفون الفاعل عن طريق الإسناد لا القيام بالفعل على الحقيقة، فقالوا، هو ما أسند إليه فعل، كما قالوا أيضا، ليس من شرط الفاعل أن يكون موجدا للفعل، أو مؤثرا فيه[3]. وهو مايطلق عليه البلاغيون مصطلح المجاز العقلى. وعلى هذا جرى الاستعمال القرآنى. قال تعالى ﴿فإذا عزم الأمر﴾ وهو إنما يعزم عليه، ويقول تعالى ﴿فما ربحت تجارتهم﴾، وإنما يربح فيها. وقوله تعالى ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ وإنما كذب به[4].

وبناء على ذلك يناقش ابن قتيبة المنكرين للمجاز فى قوله تعالى: ﴿جدارا يريد أن ينقض﴾ فيقول: «كيف أنت قائلا فى جدار رأيته على شفا انهيار، رأيت جدارا ماذا؟ لم يجد بدا من أن يقول، جدارا يهم أن ينقض، أو يكاد أن ينقض أو يقارب أن ينقض، وأياما قال فقد جعله فاعلا»[5].

وينتقل ابن قتيبة بعد باب المجاز إلى باب الإستعارة، وهى عنده تندرج تحت أنواع المجاز، فيشير إلى أن العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاورا لها، أو مشاكلا، فيقولون للمطر «سماء» لأنه من السماء

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٢.

(٣) ابن يعيش، شرح الفصل ١/٧٤.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٣٢.

(٥) المصدر السابق ص ١٣٣، وانظر أيضا ابن جنى، الخصائص ٢/٤٤٢ - ٤٥٦ حيث يؤيد ما ذهب إليه ابن قتيبة، ويرى أن أكثر الاستعمالات اللغوية مثل قام زيد، وقعد عمر، وانطلق بشر، وجاء الصيف من المجاز.

ينزل، ويقولون «ضحكت الأرض» إذا أنبتت لأنها تبدى عن حسن النبات وتتفق عن الزهر كما يفتر الضاحك عن الثغر ومنه جاء فى القرآن الكثير مثل قوله تعالى ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ أى عن شدة الأمر، وأصل هذا أن الرجل اذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى المعاناة والجد فيه، شمر عن ساقه فاستعيرت الساق فى موضوع الشبهة(١) وبمثل هذا يشرح ابن قتيبة صور المجاز المختلفة فى القرآن الكريم بما يكشف عن المعنى، وخصص لذلك أبوابا من كتابه مثل باب المقلوب والحذف والتكرار والكناية والتعريض ومخالفة ظاهر اللفظ معناه، وكلها ألوان من المجاز قد تؤدى إلى خفاء الدلالة وغموضها أحيانا. والصورة الوحيدة التى شرحها كاملة هى صورة الجن لما فيها من أشكال وغموض، كما يقول، ولما وقع فيها من تكرار «إن» واختلاف القراء فى فتحها وكسرها. يقول، عن سورة الجن «فى هذه السورة إشكال وغموض بما وقع فيها من تكرار «إن» واختلاف القراء فى نصبها وكسرها، واشتباه مافيها من قول الله تعالى وقول الجن، فاحتجنا إلى تأويل السورة كلها»(٢).

ومن أهم أبواب الكتاب فيما يتصل بظاهرة الغموض فى الكلمة المفردة الباب الذى عقده ابن قتيبة عن اللفظ الواحد للمعانى(٣). وفيه يتحدث عن الألفاظ التى جاءت فى القرآن متحدة المبنى مختلفة المعنى، كالقضاء، والبلاء، والأمة، والرؤية، والإمام، والإسلام، والفتنة، والسلطان، والضلال، والنسيان، والحساب، والكتاب. وبلغ عدد هذه الألفاظ حوالى خمسين لفظة، كثير منها يمكن عده من الألفاظ الإسلامية التى اكتسبت من الإستعمال القرآنى دلالات جديدة. فكلمة «العهد» مثلا تدل على معان عدة. وذلك من خلال استقراء الاستعمال القرآنى لها، فهى تدل على الأمان واليمين والوصية، والحفاظ والزمان والميثاق(٤). وانتبه ابن قتيبة إلى رجوع الدلالات المختلفة للكلمة الواحدة إلى معنى أصلى واحد، أو مايطلق عليه علماء المعاجم واللغة المعنى المعجمى Lexical meaning لأنه يقول بعد أن استعرض الدلالت المختلفة لكلمة القضاء. «وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد»(٥).

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ص ١٣٥ - ١٣٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٢٦ ومابعدها.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٣٩ - ٥١٥.
(٤) المصدر السابق ص ٤٤٧ - ٤٤٨.
(٥) المصدر السابق ص ٤٤٠.
وانظر أيضا: Hartmann and Stork, op.cit. p. 138.

ومعنى هذا أن الغموض أو الإشكال يقع عند ابن قتيبة فى بعض ألفاظ القرآن وتراكيبه لأسباب عدة، بعضها يتصل بالألفاظ والآخر بالتراكيب. أما مايتصل منها بالألفاظ فيحدده ابن قتيبة فيما يلى:

١- ابدال صوت بصوت آخر فى بعض القراءات لقرب المخرج.

٢- حذف بعض أصوات الكلمة.

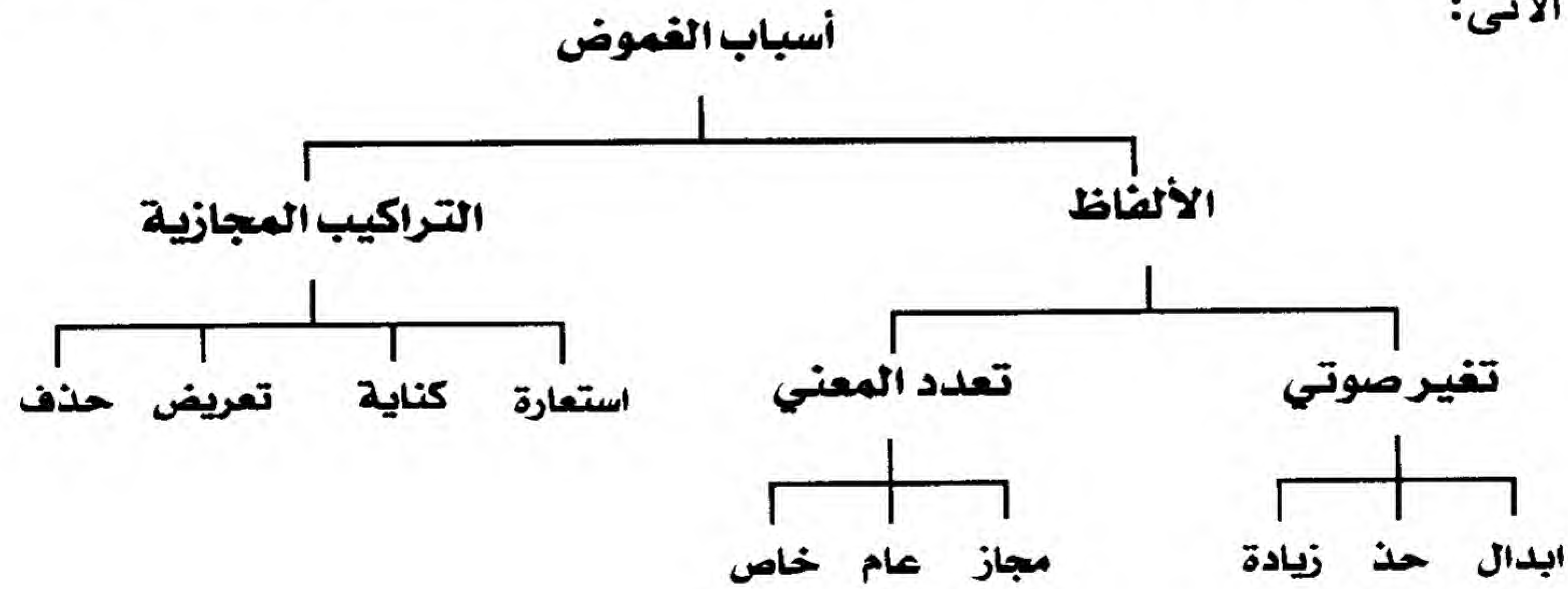
٣- زيادة بعض الأصوات على بنية الكلمة.

٤- استخدام الأصوات فى أبنية مخصوصة، كما فى الحروف المقطعة[١].

ولكن السبب الأساسى لغموض الدلالة فيما يتصل بالمفردات يرجع عنده إلى تعدد المعنى أو مخالفة ظاهر اللفظ لمعناه، أو لاستخدام اللفظ الخاص فى معنى العموم أو العكس، أو استخدام اللفظ الواحد للمعانى المختلفة[٢].

أما فى التراكيب فإن الغموض عنده يقع غالبا من الإستعمال المجازى بصورة المختلفة وخاصة مايسميه، المجاز بالإستعارة أو بالحذف أو بالكناية أو التعريض أو غيرها[٣].

ويمكن بصورة عامة أن نلخص أسباب وقوع الغموض عند ابن قتيبة فى الشكل الآتى:



شكل رقم (٢)

(١) تأويل مشكل القرآن، ص ٣٣ - ٤٩، ٢٩٩ - ٣١٠.
(٢) المصدر السابق ص ٢٧٥ - ٢٩٨، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٤٥، حيث يذكر أمثلة على هذا اللون من تعدد المعنى.
(٣) المصدر السابق ص ١٣٥ - ١٨٤ ، ١٨٥ - ٢٠٩.

ونلاحظ أن ابن قتيبة قد يستخدم المصطلح الواحد للدلالة على جوانب من الغموض فى الألفاظ والتراكيب معا مثل، المجاز للدلالة على تغير المعنى فى اللفظ والتركيب. أما فى اللفظ فبسبب نقل المعنى لعلاقة من العلاقات المجازية وأما فى التركيب فبسبب الإستعارة أو التشبيه[١]. ومن الواضح أن ابن قتيبة فى تفسيره لآيات من القرآن الكريم كان يعتمد على التحليل اللغوى متخذا من مذاهب العرب فى الكلام معيارا للحكم بالوضوح أو الغموض، الذى كان يعتمد فى تفسيره على مافى البنية اللغوية من أوضاع لم يألفها هؤلاء الطاعنين على القرآن بالغموض، ولكنه أحيانا كان لايجد تفسيرا لغويا مقبولا لبعض مظاهر الغموض فى القرآن فيقر بغموضه كما فعل عندما تعرض للحروف المقطعة فى أوائل بعض سور القرآن الكريم، فبعد أن عرض لأقوال المفسرين حولها قال «وهذا ما لانعرض فيه لأنا لا ندرى كيف هو، ولا من أى شىء أخذ» [٢].

على هذا النحو حاول ابن قتيبة أن يدرس بعض ظواهر الغموض فى القرآن الكريم بما لها من صلة بالبنية اللغوية ويفسرها تفسيرا لغويا ولايكاد ماذكره ابن قتيبة معللا به أسباب الغموض لايخرج عما ذكره بعض علماء اللغة المحدثين، فالغموض، أو خفاء المعنى عنده قد يرجع إلى اللفظة المفردة أو التركيب بما له من صلة بالصور الفنية. غير أننا نلاحظ أنه لم يتوقف عند بعض التراكيب النحوية فى القرآن، والتى تحتمل أكثر من معنى، وهو ما لاحظه علماء أصول الفقه، كما سنرى فى الفصل التالى من هذا البحث.

(١) المصدر السابق ص ١٠٣ - ١٠٥.
(٢) المصدر السابق ص ٣١٠.

الفصل الثاني

الأصوليـون والغمـوض

لعلى لا أجاوز الحقيقة إذا قلت إن دراسة المعنى بوجه عام، والغموض بوجه خاص عند الأصوليين تعد إسهاما حقيقا فى تاريخ الفكر اللغوى العربى، بل الإنسانى، إذا اتخذت دراسة المعنى عندهم منهجا علميا تجريديا أكثر دقة وموضوعية وشمولا عما كانت عليه عند مفسرى غريب القرآن ومشكلة، الذين استغرقتهم ألفاظ بعينها وتراكيب مخصوصة وقفوا عندها دون أن يتجاوزوا ذلك إلى نظرة كلية شاملة لماهية الدلالة وجهاتها وتطورها، كما فعل الأصوليون. ربما لأن الأصوليين فى هذ الفترة من حياة المسلمين، ومن دراسة اللغة، كانوا أكثر وعيا وتنبها لمشكلة المعنى وأثرها فى فهم مضمون النص القرآنى وتحديد المستوى الفكرى الذى يدل عليه. وكان ادراك الأصوليين لمشكلة المعنى يظلله لون من التحرج وذلك لارتباطه بأمر عقدى أو تشريعى، ومن هنا حاولوا أن يطرحوا المشكلة وأن يدرسوها بعيدا عن هذا التحرج، فربطوها بالاستعمال اللغوى بصورة عامة، وعلى هدى من هذا اقتربوا من النص القرآنى، ولذلك انتهت دراساتهم حول المعنى إلى وضع قواعد وضوابط عامة يتوصل بها إلى فهم الكلام من النص، واعتمدوا فى ذلك أيضا على المزج بين الدراسة اللغوية والمنطقية، ولذلك تحتل المقدمة اللغوية فى كتب أصول الفقه وضعا متميزا لمن أراد أن يدرس علم الدلالة عند الأصوليين (١). ويرى أستاذنا الدكتور السيد خليل -يرحمه الله- أن الأصوليين كانوا أول من تصدى لدراسة المعنى دراسة علمية فى تاريخ الفكر الإسلامى، وذلك لارتباطه بالحكم الذى يراد فهمه وتطبيقه ولذلك اتجهت دراسة المعنى عند الأصوليين هذه الوجهة العلمية التجريدية (٢).

---

(١) انظر على سبيل المثال، حديث الغزالى عن صور البرهان وعلاقته بالمعنى فى المفردات والتراكيب فى المستصفى، ١/٢٢ - ٣٥.

(٢) حول دراسة المعنى عند الأصوليين انظر على سبيل المثال:

أ- عند القدماء:

١- الشافعى، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، مطبعة البابى الحلبى ١٣٥٨ - ١٩٤٠.

٢- الغزالى، المستصفى فى علم الأصول، مصر، المكتبة التجارية، ط أولى ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م.

٣- الآمدى، الاحكام فى أصول الأحكام، القاهرة، دار الكتب الخديوية، مطبعة العارف، ١٣٣٢ - ١٩١٤.

ب- عند المحدثين:

١- د. السيد خليل، دراسات فى القرآن الكريم، القاهرة، دار المعارف ١٩٧٢م.

٢- د. السيد عبد الغفار، التصور اللغوى عند الأصوليين، الرياض، مكتبة عكاظ ١٤٠١هـ - ١٩٨١.

٣- د. طاهر حموده، دراسة المعنى عند الأصوليين، الاسكندرية، الدار الجامعية للطباعة والنشر ١٤٠٣ - ١٩٨٣.

وقد قسم الغزالى (ت ٥٠٥هـ) علم أصول الفقه إلى أربعة أقسام أو أقطاب كما يقول. أما القطب الأول فيختص بدراسة طبيعة الحكم الشرعى وأقسامه وأنواعه، ومايتصل به من حيث هو خطاب الشرع. أما القطب الثانى فيتصل بمصدر الحكم أو ما أسماه «المثمر» وهو القرآن والسنة والإجماع والبحث فيه يقوم على دراسة القرآن من حيث حده وأصله، وماهو منه وماليس منه، وطريق اثباته بالتواتر وبيان مايجوز أن يشتمل عليه من حقيقة ومجاز وعربى وعجمى. وكذلك السنة من حيث أقوال الرسول وأفعاله وطرق ثبوتها وروايتها وعدالة الراوى، وغير ذلك مما يتصل بها. ثم الإجماع من حيث حقيقته ودليله وأقسامه وأنواعه واجماع الصحابة ومن بعدهم. وأما القطب الثالث فهو فى كيفية استثمار الأحكام من الأصول، وهى القرآن والسنة والإجماع. ويضيف الغزالى هنا أصلا رابعا وهو العقل، لاتصاله باللغة من ناحية، وبفهم الدلالة من ناحية أخرى، ويرى أن هذا القطب أو هذا القسم من علم الأصول هو عمدة هذا العلم، لأنه ميدان سعى المجتهدين فى اقتباس الأحكام من أصولها، وفى هذا القطب تقع المباحث اللغوية والدلالية عند الأصوليين. أما القطب الرابع فهو يتصل بالمجتهد أو المستنبط للحكم من حيث صفاته، والفرق بينه وبين المقلد، ومايجرى فيه اجتهاد المجتهد وما لايجرى فيه «وغير ذلك (١).

واذا كان القطب الثالث، كما قال الغزالى، هو عمدة علم الأصول لاتصاله بدراسة المعنى، ومن ثم اقتباس الحكم، إلا أننا نجد لهذه الأقطاب الأربعة مقدمات أو سوابق، كما أطلق عليها الغزالى لاتقل أهمية من الناحية اللغوية عن القطب الثالث المتصل بدراسة المعنى واستنباط الحكم. ففى الفصل الأول من هذه السوابق نجد جانبا هاما من الدراسة الدلالية عند الأصوليين من حيث طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول، أوكما اصطلحوا على تسميتها «دلالة الألفاظ على المعانى» (٢).

ويتناولون فى هذه الدراسة دلالة اللفظ من حيث علاقته بالمدلول من ناحيتين لاثالث لهما، وهما: الوضوح ودرجاته، والغموض ودرجاته. لما يترتب على الوضوح من استخلاص الحكم الصحيح، أو، كما يقولون، على وجه القطع، ولما يترتب على الغموض من الاختلاف فى استخلاص الحكم، وكلاهما يتصل بحياة المسلمين ويؤثر فيها تحليلا وتحريما، أو تكليفا وندبا، ولذلك ينظر الأصوليون فى دلالة الألفاظ والتراكيب على المعنى من جهات مختلفة، فيما يسمى عندهم بجهات الدلالة.

---

(١) المستصفى ١/٦، ١/١٤٤.

(٢) المصدر السابق ١/٢٠.

وبناء على ذلك قسم الغزالى البنية اللغوية، من حيث الدلالة على المعنى، إلى قسمين: الألفاظ المفردة، من حيث العلاقة بين الدال والمدلول والتراكيب، من حيث دلالة التركيب على المعنى. ومن خلال هذا التقسيم تعرض الغزالى لمفهومى الوضوح والغموض ودرجتهما فى الألفاظ والتراكيب وذلك على النحو التالى [١]:

١- الألفاظ المفردة:

أولاً: من حيث كمال دلالة اللفظ علي المعني وتمامه، فنجد ثلاثة أنواع من الدلالات تتدرج من أكثرها وضوحا إلى الأقل فالأقل، وهى:

أ- دلالة المطابقة: وتتمثل فيما يشير إليه اللفظ بالوضع، وهو مايطلق عليه علماء اللغة المحدثون مصطلح denotation أو designation أى الدلالة الأصلية أو المركزية كدلالة لفظ «البيت» على معناه، فى اصطلاح المتكلمين بالعربية [٢].

ب- دلالة التضمين: كدلالة لفظ البيت على السقف، لأن البيت يتضمن السقف، إذ البيت يتألف من السقف والحيطان، وكما يدل لفظ الفرس على الجسم، إذ لافرس إلا وله جسم [٣].

جـ- دلالة الالتزام: كدلالة لفظ السقف على الحائط، فإنه غير موضوع للحائط أصلا، كما وضع لفظ الحائط للدلالة على الحائط من حيث المطابقة، ولا هو متضمن لأن الحائط ليس جزءا من السقف، كدلالة لفظ البيت على السقف بالتضمين، وإنما جاءت دلالة لفظ السقف على الحائط عن طريق المرافقة والتلازم، إذ لاينفك السقف عنه[٤].

ومعنى هذا أن الفرق بين دلال التضمين ودلالة الالتزام أن دلالة التضمين تتناول جزءا من مدلول اللفظ، فهى لذلك تعد عند الأصوليين دلالة لفظية أما دلالة الالتزام فتتصل بشىء خارج عن مدلول اللفظ لاتتضمنه، ولذلك سميت دلالة غير لفظية [٥]، وهى الدلالة التى يشير اليها علماء اللغة المعاصرون بمصطلح Connotation أى الدلالة الهامشية، وهو مصطلح يشير إلى دلالات أخرى للفظ لاتتصل اتصالا مباشرا بدلالته

---

(1) Lyons, op.cit, vol. (I) pp. 206 - 215.

وانظر أيضا: Hartmann and stork, op.cit, p. 61.

(٢) المستصفى ١/٢٠، ١/١٤٨.

(٢) المصدر السابق ١/٢٠.

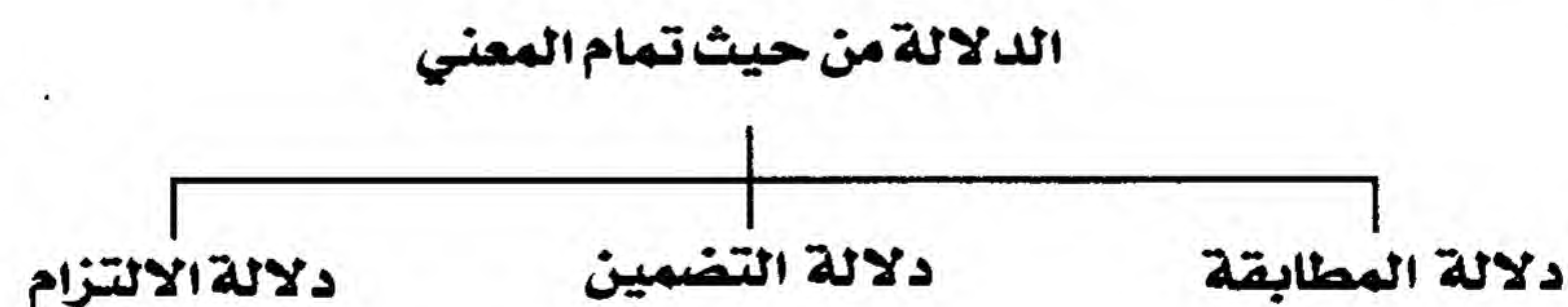
(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٥) د. طاهر حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، ص ١٨.

الوضعية، أو بدلالة المطابقة كما يقول الأصوليون، وإنما يشير إلى دلالات أخرى يستدعيها اللفظ إلى ذهن المتكلم أو الكاتب أو السامع، ويشمل ذلك كل مايوحيه اللفظ ومايرتبط به من دلالات، سواء أكانت مادية أو غير مادية (١).

ولذلك يستبعد الغزالى دلالة الالتزام من النظر الشرعى، لأنها عنصر واسع وعريض من عناصر الدلالة. ويرى الاقتصار عند النظر فى الدلالة الشرعية على دلالتى التضمين والمطابقة، لأن دلالة الالتزام، كما يقول «لاتنحصر فى حد» (٢)، إذ السقف يلزم الحائط، والحائط يلزم الأساس، والأساس الأرض، وهكذا، وهو ما رآه أيضا علماء اللغة فى الدلالة الهامشية Connotation (٣) فكلمة البيت، إذا كانت تدل على البيت بالمواضعة، أى بالتطابق، أو تدل على السقف بالتضمين، إلا أنها قد تدل عن طريق التلازم، لا على الحائط أو الأساس، أو الأرض فحسب، وإنما قد تدل أيضا على بعض المشاعر فقد تتلازم كلمة البيت فى ذهن بعض الأشخاص بمعانى الرحمة والحب والحنان، بينما تتلازم فى ذهن آخرين بمعنى الشقاء والعذاب، وقد تتلازم فى ذهن شخص ثالث برؤية أم أو ابن أو زوجة، أو حتى الجلوس فى مكان خاص ومعنى هذا أن دلالة الالتزام لاترتبط بمستوى محدد من الإستعمال، بل تختلف من شخص إلى شخص آخر، ومن طبقة اجتماعية إلى أخرى، ومن بلد إلى بلد فى نطاق اللغة الواحدة، وكل ذلك يؤكد نسبية الدلالة، وهو ما استغله علماء النفس فى التحيل النفسى.

وتتلخص دلالة اللفظ على المعنى عند الغزالى من حيث كمال المعنى وتمامه فى الشكل الآتى:



شكل رقم (٣)

---

(1) Hartmann and Stork op.cit p. 49.
وانظر أيضا:
Leech, op.cit, p. 14 - 16.

(٢) المستصفى ١/٢٠.

(3) Leech, op.cit. p. 20 - 21.

ومعنى هذا أن الدلالة عن طريق التلازم هى دلالة فضفاضة غير محددة تنحو نحو الغموض، ولاسبيل إلى تحديدها أو حصرها، كما قال الغزالى ولذلك استبعدها الأصوليون من النظر فى الأدلة الشرعية لأنها لاتؤدى إلى التحديد والقطع والوضوح الذى يسعى إليه الأصوليون.

ثانيا: من حيث دلالة اللفظ علي خصوص المعني أو شموله:

وهى دلالة تالية لدلالة المطابقة ودلالة التضمين من حيث الوضوح والغموض، ويحصرها الغزالى فى نوعين من الألفاظ.

١- **المعين:** وهو اللفظ الذى يدل على شيء واحد أو عين واحدة كقولك زيد، وهذه شجرة، وهذا الفرس، وهذا السواد، أى أن اللفظ المعين هو ما لايدل إلا على شيء محدد معين بحيث لو أراد المتكلم أن يدخل تحته دلالة أخرى، امتنع ذلك. وإسم الإشارة هنا فى قولنا هذه شجرة وهذا الفرس هى التى تمنع اشتراك دلالات أخرى لأنها تعين المقصود بما لايسمح للغموض أن يتطرق إلى المعنى [١].

٢- **المطلق:** وهو اللفظ الذى يدل على أشياء كثيرة تتفق فى معنى واحد كقولك: السواد، والحركة والفرس والإنسان. ويرى الغزالى أن الألف واللام لا تفيد معينا ولاتمنع الاشتراك فى مثل هذه الألفاظ، وإنما الذى يمنع هو الإشارة التى تفيد تعيينا لأن هناك فرقا فى الدلالة بين قولنا السواد، وهذا السواد، والفرس وهذا الفرس. بل يذهب إلى القول بأننا عندما نقول «الشمس» أو «الأرض» أو«الإله» فإن مثل هذه الألفاظ تدل على العموم أو المطلق لأن اجتماع الاشتراك لم يأت من الدلالة وإنما من المواضعة اللغوية، لأن واضع اللغة افترض وجود شمس واحدة، وكذلك أرض واحدة وإله واحد. فإن افترضنا وجود عوالم أخرى فيها شموس وأراض، أو جاز وجود أكثر من إله لكان قولنا الشمس والأرض والإله شاملا لكل هذا وحدث الاشتراك، ولذلك فان المعين عند الأصوليين أكثر وضوحا من المطلق، فى حين أن المطلق أقل وضوحا، أو بعبارة أخرى، أكثر غموضا من المعين [٢].

ويقسم بعض الأصوليين دلالة اللفظ من حيث خصوص المعنى أو شموله، أى باعتبار الأفراد الذين تشملهم دلالته إلى ثلاثة أنواع هى: الخاص والعام والمشترك.

أما الخاص فهو اللفظ الذى وضع لمدلول واحد أو لأفراد محصورين، وأما العام فهو

---

(١) المستصفى، ١/٢٠.
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

الذى وضع لمدلول متعدد غير محصور، وإن كان يدل على أكثر من معنى بالوضع المشترك

ويتعرض القول لعموم الألفاظ وخصوصها لكثير من الجدل والخلاف بين الأصوليين اذ يختلف معيار العموم والخصوص من طائفة إلى أخرى. فهناك أرباب العموم كما يسميهم الغزالى[١]. ويرون أن الأصل فى الألفاظ أنها موضوعة للاستغراق، إلا أن يتجوز بها عن وضعها الأصلى. أما الطائفة الثانية فهى أرباب الخصوص، كما يسميهم الغزالى أيضا[٢]، وهم ينفون وجود العام فى اللغة ويرون أن الألفاظ الدالة على العموم موضوعة للدلالة على أقل الجمع، سواء أكان اثنين أم ثلاثة، أى تدل على خصوص.

وهناك طائفة ثالثة وهم أربا الوقف كما يسميهم الغزالى كذلك[٣]، وترى أن الألفاظ لم توضع لعموم ولاخصوص، بل أقل الجمع داخل فى اللفظ لضرورة صدقة على مدلوله بحكم الوضع، فاللفظ صالح لاستغراق الجميع أو الاقتصار على الأقل، أو تناول عدد بين الأقل والاستغراق، ويتعين ذلك بالقرائن، ولكل طائفة من هذه الطوائف الثلاث حجاج طويل فيما تذهب إليه[٤] . ولكن جمهور الفقهاء يذهبون إلى اثبات ألفاظ العموم ودلالتها فى الأصل على الاستغراق، ويوافقهم الغزالى، وهو يستند فى اثبات العموم للألفاظ الى السياق واستعمال أهل اللغة.

فإذا قال السيد لعبده مثلا: من دخل اليوم دارى فاعطه درهما أو رغيفا فأعطى العبد كل داخل، فلايحق للسيد أن يعترض عليه، فإن عاتبه فى إعطائه واحدا من الداخلين وقال، لم أعطيت هذا من جملتهم، وهو قصير وانما أردت الطوال، أو هو أسود، وانما أردت البيض،فللعبد أن يقول، ما أمرتنى باعطاء الطوال ولا البيض، بل باعطاء من دخل. وهذا داخل، فالعقلاء اذا سمعوا هذا الكلام فى اللغات كلها رأوا أن اعتراض السيد على العبد ساقط، والعبد محق فيما فعل لأن لفظ السيد يدل على العموم. ولو أن العبد أعطى الجميع إلا واحدا ثم عاتبه سيده على ذلك، وقال العبد لأنه طويل أو أبيض، وكان لفظك عاما فقلت لعلك أردت القصار أو السود. فالغبد فى هذه الحالة يستوجب التأديب لأنه خالف أمر سيده[٥] .

---

(١) المصدر السابق ٢/١٤.
(٢) المصدر السابق ٢/١٣.
(٣) المصدر السابق ٢/١٦
(٤) المصدر السابق ٢ /١١-١٦، وانظر أيضا د. طاهر حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين ص ٢٨، ٢٩.
(٥) المصدر السابق ٢/١٧.

ومعنى هذا أن الغزالى يثبت لألفاظ العموم ودلالتها على الاستغراق مالم يقم دليل من السياق على غير ذلك، سواء أكان هذا السياق لفظيا linguistics context أو حاليا Situational context كما سنرى فيما بعد.

وعلى ذلك فان المطلق عند الغزالى، أو العام عند غيره من الفقهاء أقل وضوحا من المعين أو الخاص. أما المشترك فهو أكثرها غموضا، «فكل لفظ مشترك مبهم»(١) لاحتمال دلالته على أكثر من معنى، والسياق فى النهاية هو الذى يعين العام ويحدد المشترك.

وإذا كان الغزالى وغيره من علماء أصول الفقه قد نظروا إلى دلالة اللفظ من حيث دلالته على تمام المعنى أو كماله، كما نظروا إليه من حيث دلالته على العموم والخصوص كما رأينا، وهى مباحث دلالية تتصل بعلاقة الدال بالمدلول من حيث درجات الوضوح، إلا أننا نجدهم يخصون ظاهرة غموض المعنى بمبحث خاص ينظرون فيه صراحة إلى اللفظ من حيث درجة غموضه فى الدلالة على معناه وهو القسم الثالث من أقسام دلالة اللفظ على المعنى عند الأصوليين.

ثالثا: دلالة اللفظ علي المعني من حيث الوضوح والغموض، أو كما أسماه الغزالي، الألفاظ المتعدد، بالإضافة إلي المسميات المتعدده: (٢)

يقسم الغزالى دلالة اللفظ على المعنى بهذا الاعتبار أربعة أقسام تتدرج من حيث الوضوح والغموض إلى:

١- **المتباينة:** وهى أكثر الالفاظ وضوحا وشيوعا واستعمالا. حيث يدل كل لفظ على دلالة مختلفة كالسواد والقدرة والأسد والمفتاح والسماء والأرض وغيرها.

٢- **المترادفة:** وهى الألفاظ المختلفة والصيغ المتواردة على مسمى واحد كالخمر والعقار، والليث والأسد، والسهم والنشاب، أى كل لفظتين أو أكثر تدلان على معنى واحد بحيث يتناوله أحدهم من حيث يتناوله الآخرون دون فرق (٣).

٣- **المتواطئة:** وهى الألفاظ التى تطلق على أشياء متغايرة من حيث العدد، ولكنها متفقة من حيث المعنى الذى وضع اللفظ له. مثال ذلك لفظ «الرجل»، فإنه ينطبق على زيد وعمرو و بكر وخالد. و«الجسم»، فإنه ينطبق على الأرض والسماء والإنسان لاشتراكهما فى معنى الجسمية. ومعنى هذا أن كل لفظ مطلق وليس بمعين فإنه

---

(١) المصدر السابق ١/١٤٨.

(٢) المستصفى ١/٢٠.

(٣) انظر الفصل الثالث من هذا البحث.

يصدق على أفراد مسمياته بالتواطؤ، كاسم اللون للسواد والبياض والحمرة، فإنها متفقة فى المعنى الذى به سمى اللون لونا، وهو ما أطلق عليه النحاة اسم الجنس.

٣- **المشتركة:** وهى الألفاظ التى تدل على معان مختلفة لاتشترك فى الحد والحقيقة، كاسم العين للعضو الباصر، وللميزان، وللموضع الذى يتفجر منه الماء، وللذهب والشمس، وكاسم المشترى لقابل عقد البيع، وللكوكب المعروف.

ويعد الغزالى الألفاظ المتضادة من المشترك مثل اطلاق لفظ «القرء» على الحيض والطهر، و«الناهل» للعطشان والريان، و«الجون» للأبيض والأسود [١] ولكنه يفرق بين المشترك اللفظى والأضداد من ناحية، وبين ما أسماه الألفاظ المتواطئة من ناحية أخرى. فالمشترك عنده قد يدل على شيئين مختلفين، كما يدل على المتضادين، ولكن المشترك قد يكون مشابها للمتواطىء حتى يصبح من العسير التفريق بينهما، ولذلك يرى أن يطلق على هذا النوع من الألفاظ التى تتداخل مع المشترك والمتواطىء «المشكل» مثال ذلك لفظ النور فهو من المشكل لأنه يدل على ضوء الشمس والنار، كما يدل على العقل الذى به يهتدى الإنسان. ومعنى هذا أن الاشتراك وقع بين حقيقة العقل والضوء، كما تقع مشاركة السماء للإنسان فى كونها جسما.

ومثل ذلك أيضا لفظ «الحى» عند اطلاقه على النبات والحيوان، إذ يراد به من النبات المعنى الذى به نماؤه، ومن الحيوان، المعنى الذى به يحس ويتحرك، ثم هو يطلق على الله سبحانه وتعالى، وفى كل حالة نجد له معنى مختلفا. ومن ثم فهو من المشكل.

وكما يتداخل المشترك مع المتواطىء قد يتداخل أيضا المترادف مع المتباين، وذلك إذا أطلقنا أسماء مختلفة على شىء واحد ولكن باعتبارات مختلفة مثل: السيف والمهند والصارم، فإنها جميعا تدل على شىء واحد، ولكن لفظة «المهند» مثلا تدل على السيف مع زيادة نسبة إلى الهند، وبذلك تختلف لفظة المهند فى الدلالة عن لفظة السيف بعنصر دلالى، و«الصارم» يدل على السيف مع صفة الحدة والقطع، وهو من هذه الناحية يختلف عن المترادفة مثل الأسد والليث [٢] .

وهذه التفرقة التى يحلل على أساسها الغزالى الفرق بين المشترك والمشكل والمتواطىء هى مايدرسه علماء اللغة المعاصرين تحت اسم العلاقات الدلالية semantic relations، وهى تتصل بتعدد معنى الكلمة، وهى جزء أيضا من نظرية أوسع وأشمل

---

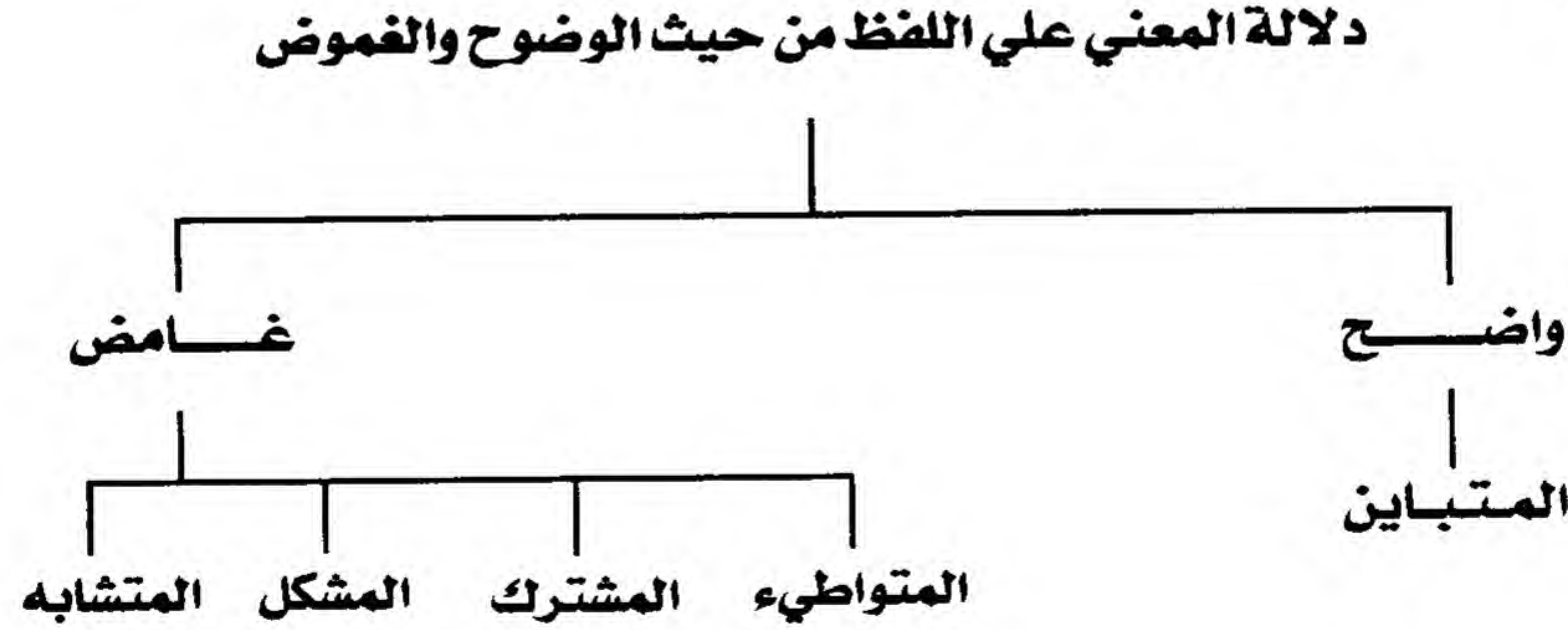
(١) المستصفى ٢١/١، وانظر أيضا الفصل الثالث من هذا البحث.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

يطلقون عليها اسم علم الدلالة البنيوى structural semantics، حيث يرى علماء اللغة أن معنى كل لفظة يمكن أن يحلل إلى عناصر دلالية، كل عنصر منها يمثل جزءا من دلالة الكلمة، وأطلقوا على هذه العناصر أو «الوحدات الدلالية» مصطلح sememe. وهذه الوحدة الدلالية ترتبط مع وحدات أخرى لكى تكون معا دلالة لفظ ما، وهى تساوى الفونيم Phoneme على المستوى الصوتى فى التحليل البنيوى للكلام، وفى مقابل الوحدة الدلالية يستخدمون مصطلح الوحدة المعجمية lexeme للدلالة على الكلمة. فإذا أردنا أن نعبر مثلا عن العلاقات الدلالية بين مجموعة الكلمات المترادفة لنفرق بينها، كما فعل الغزالى، قلنا أن الوحدات المعجمية lexemes يمكن أن ترتبط بوحدة دلالية واحدة، وهنا نجد، كما وجد الغزالى أنه من الصعب اثبات التطابق التام بين الكلمات المترادفة، لأن ذلك يعنى أن الوحدات المعجمية تتطابق تماما مع الوحدات الدلالية، وهو مادلل عليه الغزالى حينما استعرض مجموعة الألفاظ المترادفة الدالة على شىء واحد مثل السيف والمهند والصارم فأثبت أن كل لفظ منها يختلف على الأقل عن الآخر بوحدة دلالية واحدة sememe، وذلك حين قال أن لفظ المهند يدل على السيف مع زيادة نسبة إلى الهند، وأن الصارم يدل على السيف مع زيادة صفة القطع والحدة (١).

ومعنى ذلك أن الغزالى يقول بالترادف النسبى near sononymy بين الكلمات، ويرى أن الترادف المطلق absolute sononymy نادر الوقوع (٢).

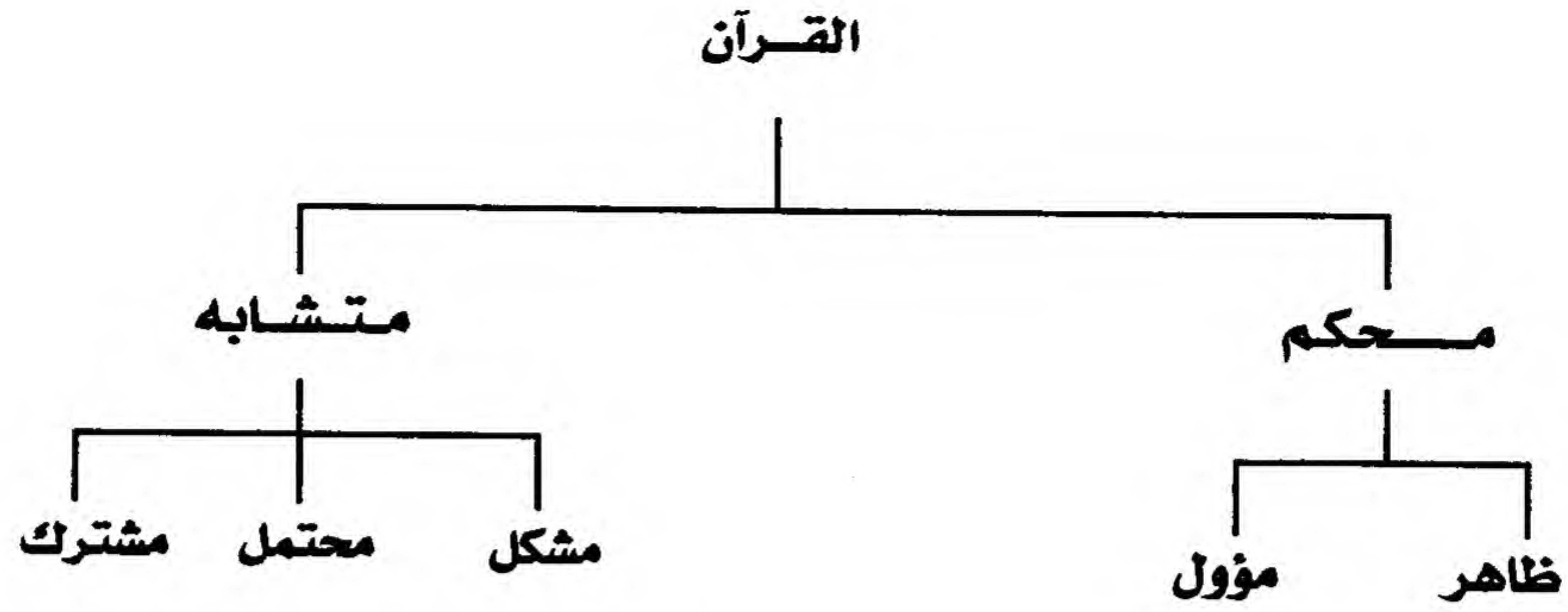
ويمكن أن نلخص دلالة الألفاظ عند الغزالى من حيث الوضوح والغموض فى الشكل الآتى:



شكل رقم (٤)

(1) Lyons , op.cit. vol. I. p. 270.

(٢) انظر الفصل الثالث من هذا البحث.



شكل رقم (٥)

٢- التراكيب:

يرى الغزالى، كما رأى من قبل ابن قتيبة وغيره ممن تعرضوا لدراسة الوضوح والغموض فى آيات القرآن الكريم، أن الوضوح أو الغموض ليس وقفا على الألفاظ المفردة، وإنما يتصل أيضا بالتراكيب، سواء أكانت موصولة بسياقها، أو مقطوعة عنه، ويقر الغزالى بوجود المتشابه فى القرآن لقوله تعالى ﴿ منه آيات محكمات، هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ ويرى أن المتشابه إذا لم يرد توقيف فى بيانه فينبغى أن يفسر طبقا لاستعمال أبناء اللغة، سواء فى الألفاظ أو التراكيب. وما يتناسب مع اللفظ من حيث الوضع، ويرفض مايراه بعض المفسرين والفقهاء من قصر المتشابه على الحروف المقطعة فى أوائل السور.

وماعدا ذلك فهو المحكم، كما يرفض قولهم إن المحكم هو مايعرفه الراسخون فى العلم، والمتشابه ماينفرد الله تعالى بعلمه، أو قول بعضهم إن المحكم هو الوعد والوعيد والحلا والحرام أما المتشابه فالقصص والأمثال. ويبدو أن رفض الغزالى لهذه التعريفات لكل من المحكم والمتشابه. لأنها قائمة على أساس غير لغوى، لأنه يفرق بين المحكم والمتشابه على أساس من المعنى، أو بمعيار لغوى فيرى أن المحكم فى القرآن يرجع إلى معنيين هما:

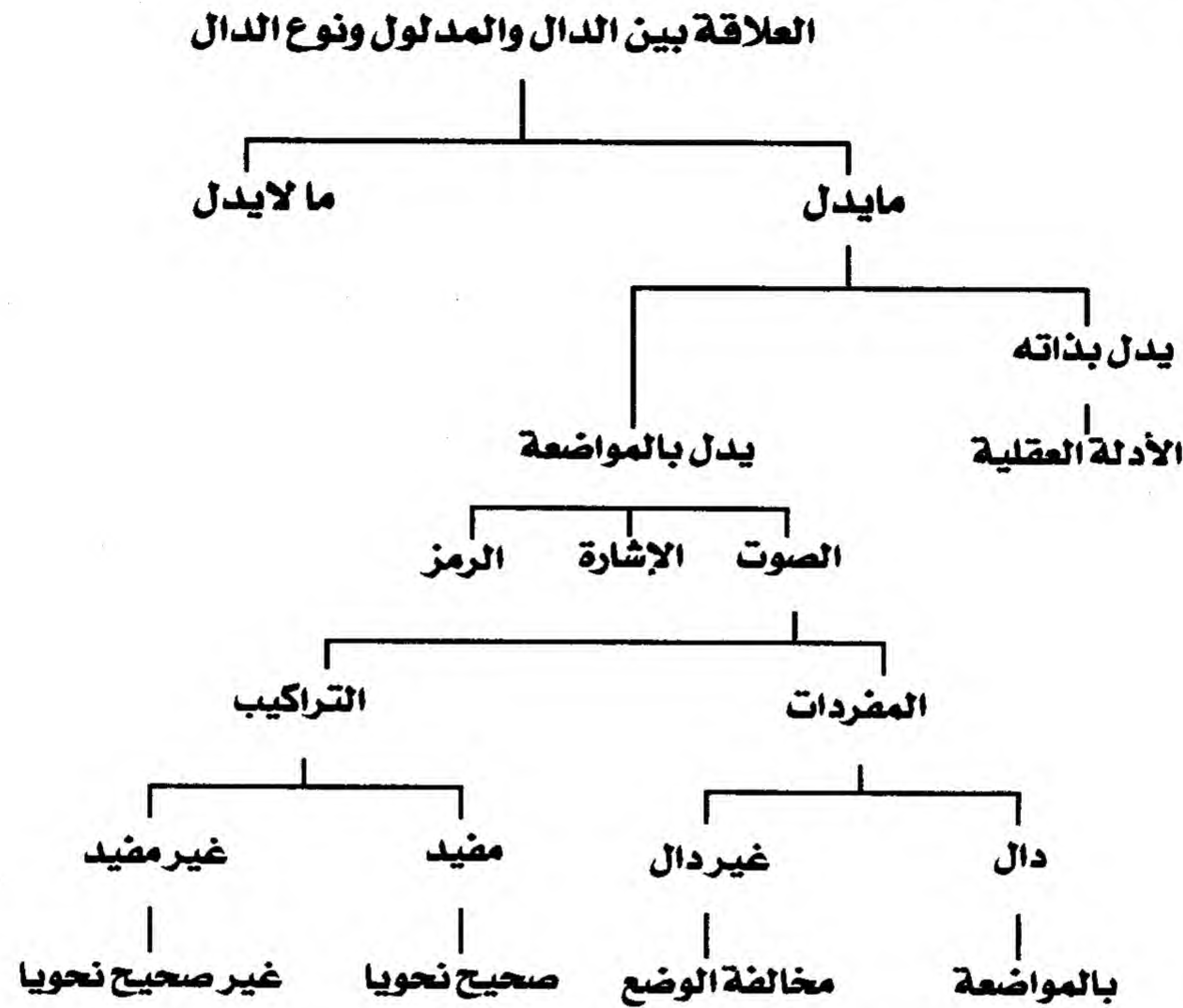
١ – المكشوف المعنى، الذى لايتطرق إليه أشكال أو احتمال سواء أكان لفظا أو تركيبا، أو كما يقول «ما انتظم وترتب ترتيبا مفيدا إما ظاهراً أوعلى تأويل» [(١)] .

٢ – المتشابه، وهو ماتعارض فيه الاحتمال، أى احتمل أكثر من معنى ويعبر به أحيانا عن المتضاد من الألفاظ كالقرء للحيض والطهر، أو المشترك كقوله تعالى ﴿الذى بيده

(١) المستصفى ٦٨/١.

عقدة النكاح﴾ فإنه يحتمل الزوج والولى، والمس ويحتمل المس والوطء كما يطلق المتشابه أيضا على ماورد فى صفات الله مما يوهم ظاهرة بالجهة والتشبيه [(١)] .

وبناء على ذلك يمكن أن نقسم آيات القرآن من حيث الوضوح والغموض طبقا لتقسيم الغزالى لها إلى مايأتى:



شكل رقم (٦)

وهو لايكتفى بهذا التحديد العام للوضوح والغموض فى آيات القرآن الكريم وإنما ينظر إلى كل قسم من هذه الاقسام من خلال التركيب اللغوى ودلالة هذا التركيب على المعنى. وهو يمهد لذلك بتحليل العلاقة بين الدال والمدلول ونوع الدال من حيث كونه أصواتا لغوية أو غير ذلك، وتنحل هذه العلاقة عند الغزالى إلى عدة جوانب، وبخاصة، فيما أطلق عليه «الدال الذى يدل على غيره» [(٢)] أما ما لايدل فلايدخل فى نطاق الدراسة بطبيعة الحال. ويقسم مايدل على غيره إلى قسمين:

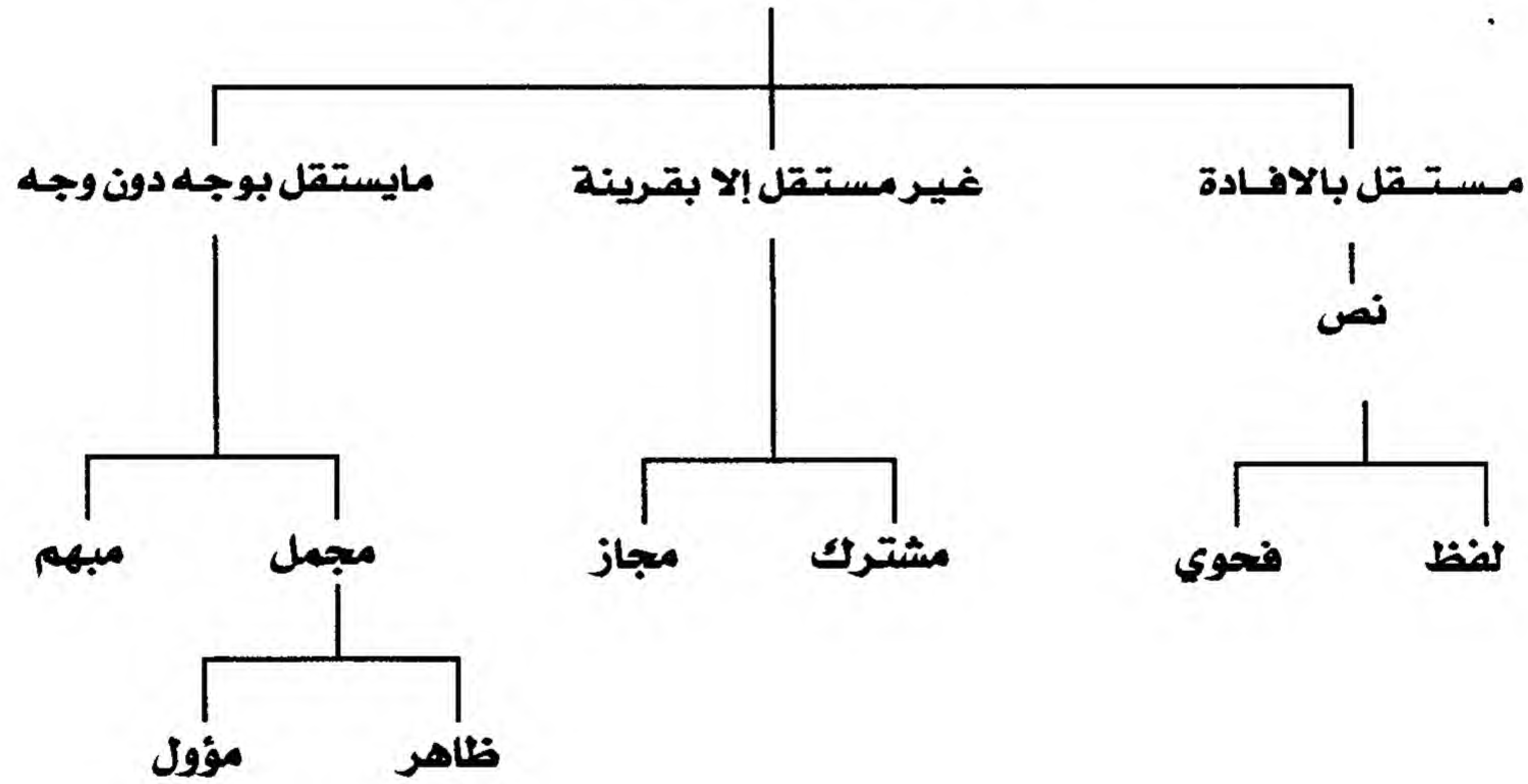
(١) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(٢) المصدر السابق ١/ ١٤٨.

١- مايدل بذاته وهى الأدلة والبراهين العقلية التى يصل إليها العقل بالبحث والنظر.

٢- مايدل بالمواضعة، وهو الصوت والإشارة والرمز (١).

والصوت ينصرف عنده إلى الصوت اللغوى لا غير، ويقسمه إلى مفيد وغير مفيد، ومايفيد يكتسب دلالته بالوضع، وما لايفيد هو الذى يخالف الوضع. ويتمثل الصوت عنده فى المفردات والتراكيب، وإذا كانت المفردات تكتسب دلالتها بالوضع فإن التراكيب تكتسب دلالتها إذا وضعت الموضع الذى يقتضيه النحو، أى كانت صحيحة نحويا، مثل قولنا، «زيد قائم»، و«خرج زيد راكبا». أما مايخالف الوضع فى الألفاظ والنحو فى التراكيب فهو لايؤدى إلى معنى أو لايفيد، كقولك «لجر» فى «رجل» أو «ديز» فى «زيد» فى المفردات أو «ضرب قام» أو «ضرب رجل قائم»، أو «زيد لا وعمرو» فى الجمل، لأن هذا ومثله لايحصل منه معنى، وإن كانت مفرداته موضوعة للدلالة. ويمكن أن نجمل العلاقة بين الدال والمدلول ونوع الدال طبقا لتقسيم الغزالى فى الشكل الآتى:

الكلام من حيث الوضوح والغموض



شكل رقم (٧)

---

(١) المصدر السابق ١ / ١٦ ومابعدها.

ولذلك فإن مصطلح الكلام عند الغزالى، كما هو عند النحاة ينصرف إلى ماتحصل به الفائدة، ومن ثم ينقسم عنده إلى اسم وفعل وحرف، كما فى علم النحو أيضا، ولايكون الكلام مفيدا حتى يشتمل على إسمين أسند أحدهما إلى الآخر نحو «زيد أخوك»، و«الله ربك»، أو اسم أسند إلى فعل نحو قولك، «ضرب زيد» و«قام عمرو»، وأما الاسم والحرف كقولك «زيد فى»، و«عمرو من» ، فلايفيد حتى يتم الكلام كأن تقول زيد فى الدار، وعمرو من مصر(١).

ولكن الكلام المفيد قد يكون واضحا أو غامضا، ولذلك يقسم الغزالى الكلام طبقا للوضوح والغموض إلى ثلاثة أقسام:

١-مستقل بالإفادة مثل قوله تعالى ﴿ ولاتقربوا الزنا ﴾ أو ﴿ولاتقتلوا أنفسكم﴾ ويسمى الغزالى هذا «نصا» لظهوره ووضوحه. وينقسم النص عنده إلى ضربين:

أ- نص بلفظه ونظمه، كما فى المثالين السابقين.

ب- نص بفحواه ومفهومه كقوله تعالى ﴿ولاتقل لهما أف﴾ أو ﴿ولاتظلمون فتيلا﴾ أو ﴿ومن يعمل مثقال ذرة﴾ فقد اتفق أبناء اللغة على أن مافوق التأفف من الضرب والشتم، وماوراء الفتيل والذرة من المقدار، أسبق إلى الفهم من دلالة لفظ الذرة أو الفتيل أو التأفف.

وبناء على ذلك فإن النص هو مالا يحتمل أكثر من معنى، سواء أكان ذلك باللفظ والنظم، أو بالمفهوم والفحوى.

٢- ما لايستقل بالفهم إلا بقرينة، مثل قوله تعالى ﴿أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح﴾ وقوله «ثلاثة قروء» أو قولك، «رأيت أسدا» أو «حمارا» وأنت تريد شجاعا أو بليدا، أى مايحتوى على لفظ مشترك أو مبهم، أو بسبب من المجاز بحيث لاتتضح دلالته دون قرينة.

٣- مايستقل بالفهم من وجه دون وجه كقوله تعالى ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ وقوله أيضا ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾.

فإن الايتاء يوم الحصاد معلوم ولكن مقدار مايؤتى غير معلوم، ومثل ذلك مقدار الجزية، ويسمى هذا مجملا، فإن استقل بالفهم من وجه فهو ظاهر أو مؤول وإلا فهو مبهم(٢).

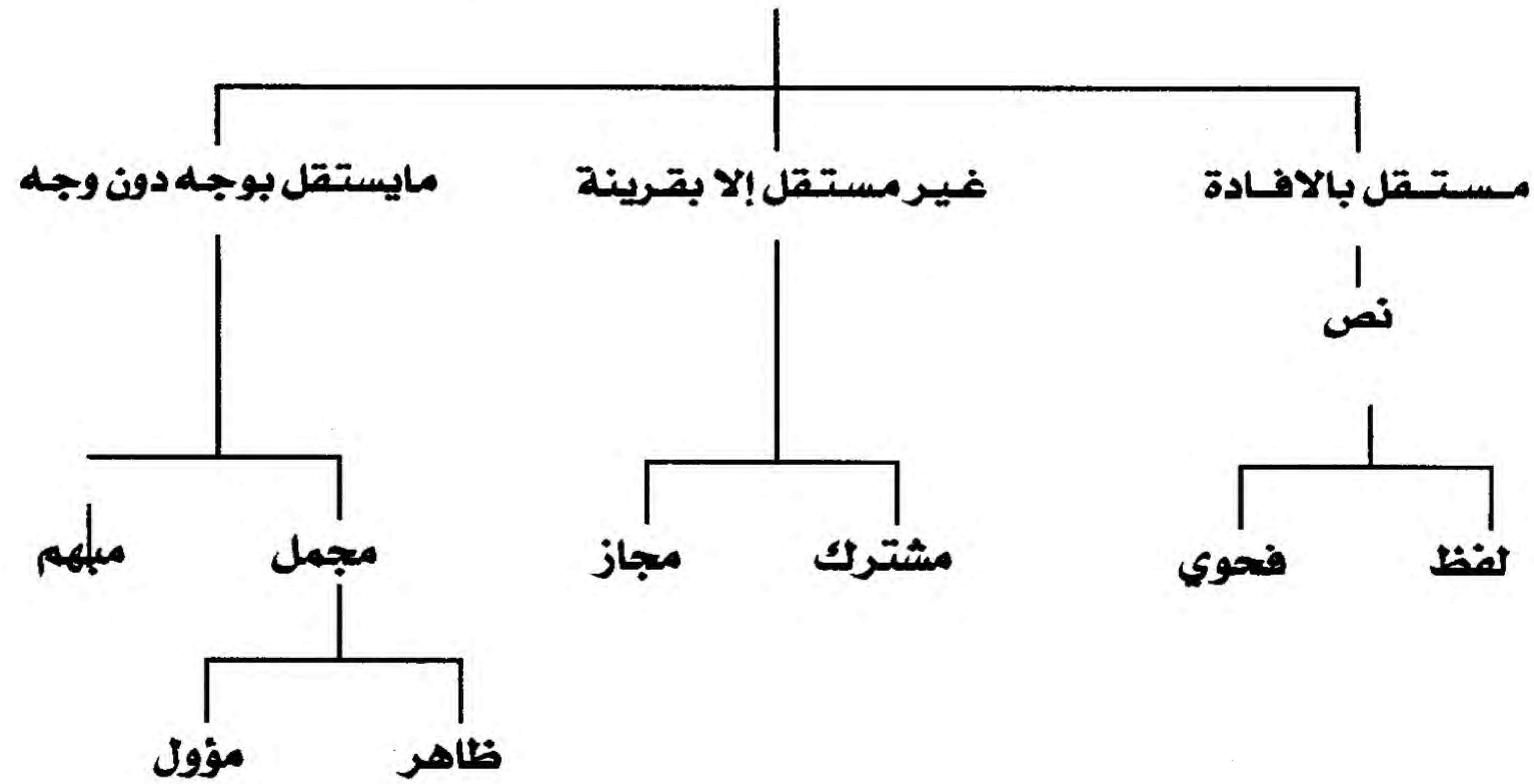
---

(١) المصدر السابق ١٤٨/١.

(٢) المصدر السابق ١٤٨/١ ومابعدها.

ومعنى هذا أن الغزالى يحدد الوضوح والغموض فى الكلام طبقا لاستقلال المعنى ووضوحه من ناحية، وعدم الاستقلال وتطرق الاحتمال إلى المعنى من ناحية أخرى. فما لايتطرق إليه الاحتمال واستقل بنفسه سماه نصا لوضوحه، وماتتعارض فيه الاحتمالات، أى يتعدد معناه دون أن نستطيع أن نرجح معنى على معنى فهو المبهم. فإذا رجحنا احتمالا على آخر فهو المجمل. والأقرب احتمالا يسمى ظاهرا والأبعد يسمى مؤولا، وأما المجاز فالأصل فيه الدلالة على الحقيقة، مالم يقم دليل على ارادة المجاز مثل الحذف أو التشبيه أو الإستعارة، أو غيرها من صور المجاز، والقرينة أو السياق، سواء أكان لغويا أو غير لغوى، أى من قرائن الأحوال التى قد تكون إشارة أو رمز أو حركة أو مقدمات للكلام أو لواحق له، وهى لاتدخل تحت الحصر أو التخمين، فهى التى ترجح إحدى الدلالات حين يتعدد المعنى أو يتطرق إليه الاحتمال [١].

وفكرة تعدد المعنى أو تطرق الاحتمال إليه هى ما استقر عليه علماء اللغة والأسلوب فى تحديد مفهوم الغموض وتعريفه [٢]. ويمكن أن نجمل المصطلحات الدالة على الوضوح والغموض فى الكلام عند الأصوليين، كما شرحها الغزالى، فى الشكل الآتى:



شكل رقم (٧)

---

(١) المصدر السابق ١/١٤٩ ومابعدها.

(2) Empson, op.cit, p. 80, p. 104.

وانظر أيضا: Lyons, op.cit. vol. 2 . 396.

غير أن الغموض فى الدلالة قد يقع فى الكلام نتيجة لعدد من الأسباب يتصل بعضها بدلالة اللفظ ويتصل البعض الآخر بالبنية اللغوية، ويحدد الأصوليون أسباب وقوع الغموض فيما يتصل بالدلالة والبينة فيما يلى:

١- **دلالة اللفظ:** كأن يكون من الأضداد أو المشترك أو المجاز أو غير ذلك.

٢-**الصيغة:** مثل كلمة «المختار» التى تصلح للدلالة على اسم الفاعل واسم المفعول.

٣-**التركيب أو نظم الكلام:** وهو مايسميه علماء اللغة grammatical Ambiguity مثل قولك «كل ما علمه الحكيم فهو كما علمه». فالضمير فى قولك «كما علمه» يحتمل أن يرجع إلى «كل ما»، ويحتمل أن يرجع إلى «الحكيم».

٤-**الوقف والابتداء:** مثال ذلك الوقف على «السموات» فى قوله تعالى: ﴿وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم﴾ له معنى يخالف الوقف على كلمة «الأرض» والابتداء بقوله تعالى ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ ومثل ذلك فى قوله تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم﴾ من غير وقف يخالف الوقف على قوله «إلا الله» وذلك لتردد معنى الواو بين العطف والإستئناف. وبناء على ذلك يمكن أن نجمل أسباب الغموض بما لها من صلة بالبينة اللغوية أو الأداء الصوتى فى الشكل الآتى:



شكل رقم (٨)

وبذلك يكون الأصوليون هم أول من درسوا ظاهرة الغموض فى المعنى بما لها من صلة بالمبنى دراسة علمية قائمة على أصول عامة من التجريد والتعميم، وبناء على التحليل البنيوى للغة، سواء من ناحية البنية أو الدلالة. ولعلنا قد لاحظنا أن الغموض عندهم ينصرف إلى احتمال البنية أكثر من معنى، سواء على مستوى المفردات أو التراكيب. ولكن الغموض يتدرج عندهم إلى مايمكن تفسيره أو تأويله بدليل من البنية أو السياق، وإلى ما لايظهر معناه، وهو «المبهم».

ولم تحل قدسية القرآن الكريم وتحرجهم لارتباطه بالتشريع من تناولهم لهذه الظاهرة تناولا علميا انتهوا فيه إلى تلك المفاهيم العامة حول الغموض وظواهره، وإلى إجراءات واضحة للكشف عنه، وهى دراسة تصلح منهجا لغويا، لا فى دراسة النص القرآنى فحسب، وإنما فى دراسة كافة النصوص الأدبية وغير الأدبية. ولعل من أهم ما التفت إليه الأصوليون دور السياق بمعناه الواسع من قرائن وظروف وملابسات فى تحديد المعنى وتوضيحه.

الفصل الثالث

الغموض بين اللغويين والنحاة

إذا كان الأصوليون قد أهتموا، كما رأينا، بظاهرة الغموض على مستوى المفردات والتراكيب، بما لها من صلة بالنص القرآنى، فإن علماء اللغة والنحو قد اهتموا بالمفردات والتراكيب على مستوى اللغة العربية دون أن يربطوا ذلك بنص بعينه. وكان اهتمام اللغويين منصبا على المفردات، فى حين اهتم النحاة بالتراكيب أكثر من اهتمامهم بالمفردات، وربما كان ذلك أثرا من آثار التفرقة فى الفكر اللغوى العربى بين اللغوى والنحوى فاللغوى، كما قالوا، يجمع المادة اللغوية ولا يتصرف فيها، أما النحوى فهو يأخذ ما يجمعه اللغوى ويتصرف فيه. وكان اهتمام اللغويين بالمفردات، أو بما أطلق عليه قديما «متن اللغة»، أكثر من التراكيب، ومن ثم خلفوا لنا فيما خلفوا من تراث لغوى فى دراسة المفردات، دراسات علمية تتصل بدلالة الكلمات وذلك فى موضوعات محددة هى: الترادف والمشترك اللفظى والأضداد وكلها ظواهر تتصل بوضوح الدلالة وغموضها.

فى حين اهتم النحاة بالتراكيب وخلفوا لنا ملاحظات هامة حول الغموض والوضوح فيها، فيما سمى عندهم «باللبس» للدلالة على الغموض، و«أمن اللبس» للدلالة على وضوح المعنى.

وفيما يلى سنتناول جهود كل من اللغويين والنحاة فى دراستهم لظاهرة الغموض فى المعنى وصلتها بالمبنى. وسنبدأ باللغويين.

أولاً: اللغويون والغموض:

لاحظ اللغويون فى المفردات التى جمعوها بالرواية أن هناك كلمات فى هذه المفردات تحتمل أكثر من معنى، وهو ما أشار إليه ابن فارس فى ملاحظة جامعة بقوله «ويسمى الشيئان المختلفان بالاسمين المختلفين وذلك أكثر الكلام كرجل وفرس، وتسمى الأشياء الكثيرة بالإسم الواحد نحو عين الماء، وعين السحاب. ويسمى الشئ الواحد بالأسماء المختلفة نحو السيف والمهند والحسام ... ومن سنن العرب فى الأسماء أن يسموا المتضادين باسم واحد، سموا الجون للأسود والجون للأبيض[1].

وابن فارس بهذه الملاحظة يقسم الثروة اللفظية فى اللغة العربية طبقا لدلالة الألفاظ إلى ثلاثة أقسام أو مستويات هى:

١ - الكلمات ذات الدلالات المختلفة أو المتباينة أو المعينة، كما قال الأصوليون مثل، رجل وفرس، وهو أكثر الكلام وأشيعه.

٢ - المشترك اللفظى مثل عين الماء وعين المال وعين السحاب، وهى كلمة تحتمل أكثر من معنى.

(١) الصاحبى ص ١١٦ - ١١٧.

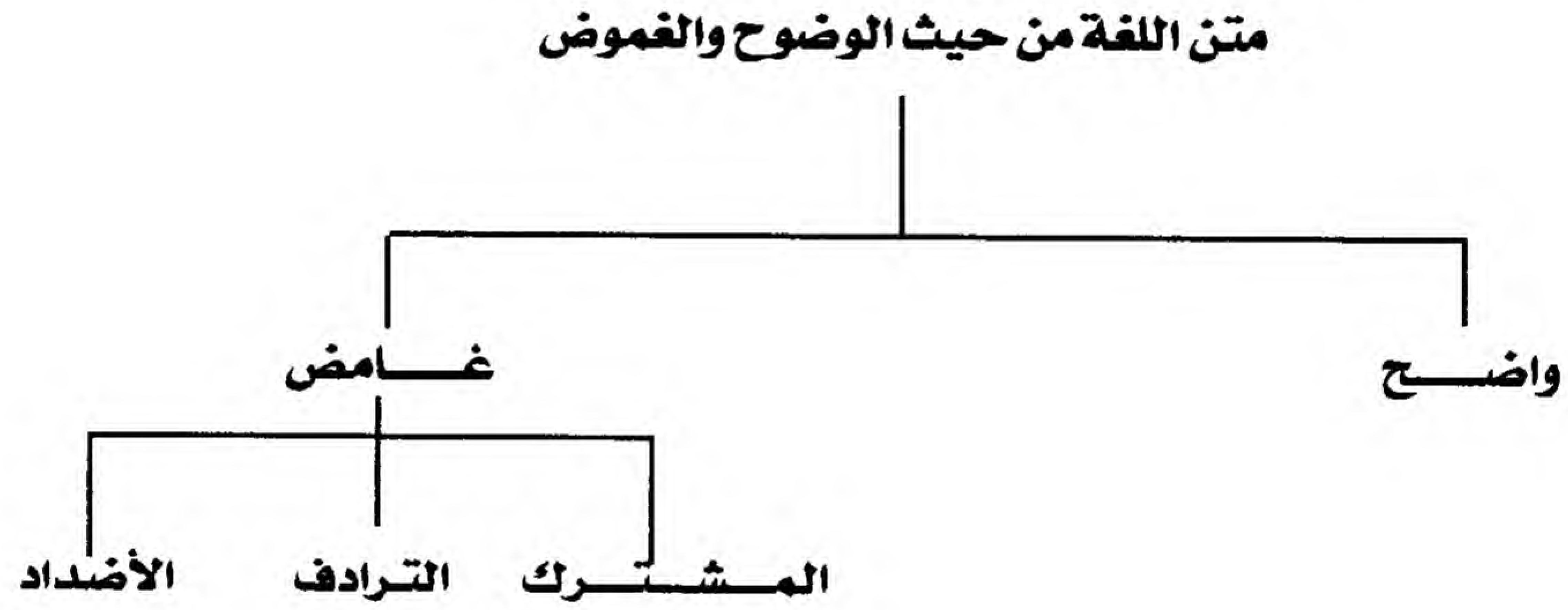
٣ – كلمات مختلفة اللفظ متحدة المعنى مثل: السيف والمهند والحسام، وهى المترادفة الدلالة.

٤ – الأضداد، وهى كلمة واحدة لها معنيان متضادان.

وإذا اخذنا فى الحُسبان أن تعدد المعنى أو ترادفه أو تضاده يدخل الدلالة فى نطاق الغموض، لوجدنا أن المستوى الأول يمثل الكلمات الواضحة الدلالة. أما المستويات الثانى والثالث والرابع فتحتمل درجة من درجات الغموض، أو التى تؤدى دلالتها إلى الغموض، وهذا التقسيم الذى أشار إليه ابن فارس هو ما استقر عليه اللغويون فى بحثهم للوضوح والغموض فى دلالة الألفاظ، وهو ما استفاد منه الأصوليون وزادوا عليه فى دراستهم للوضوح والغموض فى النص القرآنى.

وبناء على هذا التقسيم يمكن أن نقسم متن اللغة العربية، أو مفردات اللغة العربية من حيث الوضوح والغموض طبقا للشكل الآتى:

وسنتناول هذه الظواهر طبقا لهذا التقسيم.



(شكل رقم ٩)

١ - المشترك اللفظي:

وحده الغزالى بقوله: «هو الأسماء التى تطلق على مسميات مختلفة لا تشترك فى الحد والحقيقة»[١]. واتفق بعض اللغويين والأصوليين على تعريفه بأنه: «اللفظ الدال على معنيين مختلفين فأكثر، دلالة على السواء عند أبناء اللغة»[٢].

(١) المستصفى ٢١/١.

(٢) المزهر ٣٦٩/١

وقـد ظهرت منذ وقت مبكر عند العرب دراسات تعالج ظاهرة الإشتـراك اللفظـى فـى اللغة العربية، ومن الرواد فى التأليف فى هذا المجال الأصمعى (ت ٢١٥هـ) وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) (١).

غير أن كتاب «المنجد» لأبى الحسن على بن الحسن الهنائى، المشهور بكراع (ت ٣١٠ هـ) يعد من أشمل الكتب العربية التى ألفت فى موضوع الإشتراك اللفظى، إذ يحتوى هذا الكتاب على ما يقرب من تسعمائة كلمة(٢). والملاحظ على المؤلفات التى اهتمت بدراسة المشترك اللفظى أنها كانت تكتفى أحيانا بسرد الكلمات وذكر الدلالات، كما كانت تختلف فى عدد الكلمات أو الدلالات التى تثبتها للكلمة الواحدة. ولم تهتم بتفسير ظاهرة الإشتراك اللفظى، أو معالجتها بصورة علمية، وإنما كان معظم الخلاف يدور بين اللغويين حول وقوع الإشتراك فى ألفاظ اللغة العربية، أو عدم وقوعه.

ومع ذلك فقد نجد بعض التعليلات العلمية لوجود ظاهرة الإشتراك فى اللغة العربية كقول بعض اللغويين إن الاشتراك قد حدث لأن الألفاظ متناهية والمعانى غير متناهية. فإذا وزع كل منهما على الآخر لزم الإشتراك(٣). كما نجد أيضا من بين علماء اللغة القدماء من لا يقر بوجود الإشتراك اللفظى إلا على نطاق ضيق، كابن درستوية (ت ٢٤٧ هـ) الذى يعلل وجود الإشتراك بأسباب لغوية وغير لغوية، بعضها يتصل بالدلالة، وبعضها يتصل باختلاف اللهجات. يقول «لو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين أو أحدهما ضد الآخر، لما كان ذلك إبانة بل تعمية وتغطية، ولكن قد يجئ الشئ النادر من هذا لعلل .... فيتوهم من لا يعرف العلل أنهما لمعنيين مختلفين، وأن اتفق اللفظان .... وإنما يجئ ذلك فى لغتين متباينتين أو لحذف أو اختصار وقع فى الكلام، حتى اشتبه اللفظان وخفى سبب ذلك على السامع(٤).

أى أن أسباب الإشتراك عند ابن درستويه ترجع إلى:

١ – اختلاف اللهجات.

---

(١) المصدر الاسبق، نفس الصفحة، وانظر عرضا لمؤلفات هؤلاء الرواد وغيرهم حول المشترك اللفظى فى:

١ – د. رمضان عبد التواب، فصول فى فقه العربية ص ٢٨٦ وما بعدها.

٢ – د. أحمد مختار عمر، من قضايا اللغة والنحو، ص ١٢ وما بعدها.

(٢) كراع، المنجد فى اللغة، المقدمة ص ١٢ – ١٧.

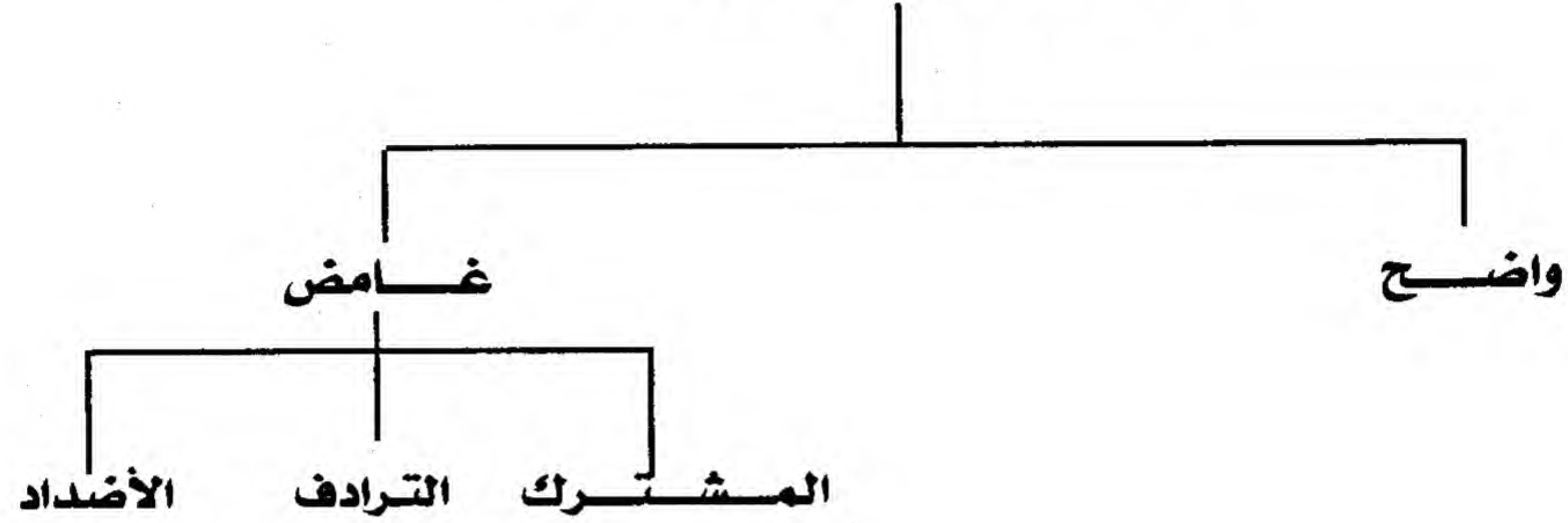
(٣) المزهر ١/٣٦٩.

(٤) المصدر السابق ١/٣٨٥.

٢ – عدم إدراك السامع للفروق الدلالية بين الكلمات.

٣ – الحذف أو الاختصار في الكلام.

وبصورة عامة يمكن أن نجمل أسباب وقوع الإشتراك في دلالة الكلمات، من خلال الآراء القليلة التي حاولت أن تفسر هذه الظاهرة فيما يلي:



(شكل رقم ٩)

أما الأسباب الخارجية فتتحقق حينما تستعمل الكلمة بدلالتين في بيئتين مختلفتين أو لهجتين بحيث إذا نظرنا إلى الكلمة في اللهجة التي تستعمل فيها، لم يكن ثمة اشتراك، ولكن إذا نظرنا إليها في إطار الثروة اللفظية العامة، أو ما يسمى بمتن اللغة، حدث الإشتراك مثال ذلك كلمة «الضنا» التي تستعمل بمعنى «المرض»، وتطلق في الوقت نفسه على «الطفل»، في لهجة طئ[1]، وكلمة «السيد» التي تدل على «الذئب»، ولكنها في لهجة هذيل تعني «الأسد»[2]، وفي لهجة تميم نجدهم يسمون الأعسر «الألفت»، في حين أن قيس تطلقه على «الأحمق»[3].

وأما الأسباب الداخلية فتتمثل في التغير في طريقة النطق، سواء عن طريق القلب أو الابدال، فمثلا ما يمكن أن يشتق من الجذر «دام» والجذر «دمى» على صيغة «استفعل» فنجده من «دام» «استدام» ومن «دمى» «استدمى» غير أن الفعل «استدام» قد يستعمل بمعنى «استدمى» وبذلك يصبح لدينا الفعل «استدام» المقلوب عن «استدمى»، والذى يتطابق مع

(١) انظر مقدمة تحقيق في اللغة ص ٢٢.
وانظر ايضا، د. أحمد مختار عمر، من قضايا اللغة والنحو، ص ١٩.
(٢) كراع، المنجد في اللغة ص ٢٤٨.
(٣) المصد السابق ٦٣.

الفعل «استدام» غير المقلوب فيحدث الإشتراك[1]، ومثل ذلك أيضا إطلاق كلمة «الفروة» على جلد الرأس، والغنى، وأصل الكلمة بالدلالة الثانية هى «الثروة»، فقلبت الثاء فاء مثل: حثالة وحفالة. وجدث، وجدف.

وكذلك ما روى من «دعم الشئ» بمعنى قواه ودعمه، وبمعنى رفضه ورماه وطعنه. وأصل الكلمة بالمعنى الثانى هو «دحم» بالحاء وقد تطورت هذه الحاء وجهرت بسبب مجاورتها للدال المجهورة فقلبت إلى النظير المجهور للحاء وهو العين، فصارت «دعم». والتبست لذلك بكلمة «دعم» بمعنى قوى، فحدث الإشتراك، وكذلك نجد اشتراكا لفظيا بين الفعلين «خاط» من الخياطة، و«خطا» من الخطو، ولكن بقلب خطا إلى خاط[2].

وقد يحدث الإشتراك نتيجة لتغير طرأ على دلالة الكلمة، ويحدث هذا التغير الدلالى بطريقة مقصودة، كما حدث فى كثير من الكلمات العربية عندما أخذت تتحول إلى مصطلحات علمية، وكما حدث لكثير من الكلمات فيما أسماه اللغويون، « الألفاظ الإسلامية» وأشرنا إليها من قبل[3].

وقد يحدث هذا التغير الدلالى بطريقة غير مقصودة، فيحدث الإشتراك عندما تكتسب الكلمة دلالة جديدة لسبب او آخر مثل كلمة «العين» التى أفاض اللغويون فى ذكر الدلالات المختلفة لها[4]. ونظرا لكثرة المشترك اللفظى فى العربية، فقد استغل استغلالا فنيا فانتشرت ظاهرة التورية فى الشعر والنثر، واستغل الإشتراك فى غموض الدلالة واللغز، وهو ما لاحظه البلاغيون كسبب من أسباب غموض المعنى، كما سنرى فيما بعد.

أما علماء اللغة المحدثون فقد اختلفت نظرتهم بالنسبة لظاهرة الإشتراك اللفظى عن نظرة القدماء، ولذلك وجد عندهم مصطلحان يدلان على هذه الظاهرة هما:

١ – المشترك اللفظى Homonymy ٢ – تعدد المعنى Polysemy

وينظر بعض علماء اللغة المحدثين إلى كل من المشترك اللفظى وتعدد المعنى على أنهما موضوعان مستقلان[5]، بينما يجمع بينهما علماء آخرون على أنهما صورتان لظاهرة واحدة هى تعدد المعنى[6].

---

(١) المزهر، ١/ ٣٨١.

(٢) د. رمضان عبد التواب، فصول فى فقه العربية ص ٢٩٢.

(٣) المرجع السابق ص ٢٩٢ – ٢٩٣.

وانظر فى أمثلة اخرى فى مقدمة تحقيق كتاب المنجد ص ٢١.

(٤) انظر الفصل الأول من هذا البحث.

(٥) المزهر ١/ ٣٧٢ – ٣٧٥.

(6) Zgusta, op., p. 60, p. 74.

ولكن المصطلح الأول يدل عندهم جميعا على كلمة أو أكثر تتطابقان فى النطق ولكن تختلفان فى المعنى. مثال ذلك فى اللغة الانجليزية كلمة "Flour" بمعنى الدقيق أو الطحين، وكلمة "Flower" بمعنى الزهرة، فإذا تشابهت الكلمتان فى النطق والهجاء، فقد يستخدمون فى الدلالة على ذلك مصطلحا ثالثا هو Homography مثال ذلك فى اللغة الانجليزية كلمة "Rest" بمعنى «الباقى» وبمعنى «يستريح»[1]، ولا يعد بعض علماء اللغة والمعاجم هذا النوع الأخير من المشترك اللفظى، لأن المعول عندهم على الدلالة وحدها، لا على النطق[2].

وأما المصطلح الثانى، وهو «تعدد المعنى»، فقد يستعمل للدلالة على أى كلمة أو جملة تحتمل أكثر من دلالة واحدة. مثال ذلك فى اللغة الانجليزية كلمة "head" بمعنى رأس الإنسان، وبمعنى «رأس عود الكبريت»[3]، ويرى زجوستا Zgusta أن هذا المصطلح ما هو إلا نوع من المصطلحات اللغوية العامة التى تستعمل أحيانا بمعناها اللغوى دون المعنى الاصطلاحى، لكى تدل على الدلالات المتعددة لكلمة واحدة. ويرى أن من الأفضل تحاشى ذلك، وأن نتحدث بدلا من ذلك عن تزايد معنى كلمة ما. ولذلك فهو يحلل دلالة الكلمة من المشترك اللفظى إلى المعنى المباشر أو الدلالة المباشرة direct sense، وهذا المعنى المباشر للكلمة عنده هو الذى تتحدد بالنسبة له بقية الدلالات الأخرى التى يمكن أن نتعرف عليها من خلال مستويات معينة من الإستعمال اللغوى، أى بعبارة أخرى، إن الدلالة المباشرة هى عبارة عن المعنى الذى يتبادر إلى ذهن المتكلم عند رؤيته أو سماعه لكلمة ما وهى فى حالة الإفراد بعيدا عن السياق[4].

فمثلا كلمة «البرق» فى العربية يدل معناها المباشر على الضوء الخاطف، ولكنها تدل فى العربية الحديثة على «التلغراف»، وهى بهذا المعنى تعد من المشترك اللفظى بالمفهوم الاصطلاحى عند علماء اللغة المحدثين.

غير أنه يمكن القول بشكل عام بأن علماء اللغة يذكرون أنواعا ثلاثة تدخل فى نطاق الإشتراك اللفظى وتؤدى إلى غموض معنى الكلمة وهى :

١ - تعدد المعنى لكلمة ما نتيجة لاستعمالها فى مواقف مختلفة.

٢ - دلالة الكلمة الواحدة على أكثر من معنى بسبب التطور الدلالى المقصود وغير المقصود.

---

(1) Lyons, op. cit., vol. I. 2, p. 550

(2) Hartmann and stork op. cit., p. 105.

(3) Zgusta, op. cit., p. 78.

(4) Hartmann and stork, op. cit., p. 150.

٣ – وجود أكثر من كلمة تدل كل منها على معنى، ولكنها جميعا متحدة فى النطق.

ويرى المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس أن النوعين الأول والثانى ليسا من المشترك، كذلك لا يعتبر كلمات النوع الثالث مما يمكن أن يدخل تحت هذا المصطلح إلا ما تباينت فيه الدلالتان كل التباين، ولهذا فهو يوافق على ما ذهب إليه ابن درستويه من رفض معظم الكلمات التى عدت من المشترك واعتبرها من المجاز(١).

ويبدو ان الخلاف بين القدماء والمحدثين فى تحقيق الفرق بين المشترك اللفظى Homonymy وتعدد المعنى Polysemy يتصل بمفهوم الكلمة عندهم لأن المصطلحين يشيران إلى دلالة كلمة واحدة على مدلولين، وعلى ذلك فان الإشتراك اللفظى ليس اختلاف الدلالة فى إطار نفس الكلمة، بل هو وجود دلالتين أو أكثر لكلمتين أو عدة كلمات، لأن لكل كلمة صيغة دالة على معنى، فاذا تنوعت الصيغ واختلفت تعددت الكلمات، وبالمثل، لو تنوعت الدلالات وتعددت الصيغ فإن هذا يعنى أن صيغة لغوية واحدة لها أكثر من دلالتين، إحداهما تتمثل فى المعنى المباشر، والأخرى، التى حدثت عن طريق التطور الدلالى أو المجاز. وقد يحدث اللبس أو الغموض فى بعض الكلمات فيظن أنها من المشترك اللفظى أو تعدد المعنى، وهى ليست كذلك، والحكم فى مثل هذه الحالات للسياق. وبذلك نستطيع ان نحدد الفرق بين تعدد المعنى والمشترك اللفظى بالنظر إلى الصيغة أو السياق أو الإشتقاق أحيانا، وذلك قبل القول بأن هذه الكلمة أو تلك من قبيل الإشتراك اللفظى أو تعدد المعنى.

٢ - الترادف:

وهو أيضا من الظواهر اللغوية فى العربية التى تتصل بغموض دلالة الكلمة، وإذا كان المشترك اللفظى هو عبارة عن كلمات متشابهة فى النطق والكتابة، ولكنها مختلفة الدلالة، فإن الترادف هو عبارة عن كلمات مختلفة النطق والكتابة، ولكنها تدل على شئ واحد، أو ذات دلالة متحدة.

وكما لفتت ظاهرة الإشتراك اللفظى علماء اللغة القدماء، لفتت أيضا ظاهرة الترادف انتباههم وعدها بعضهم من أبرز خصائص اللغة العربية. ولذلك أفرد بعضهم كتبا للالفاظ المترادفة مثل ابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) والفيروزبادى (ت ٨١٧ هـ) وغيرهما(٢)، وقد اختلفوا حول وقوع الترادف فى العربية، كما اختلفوا حول وقوع المشترك، فأنكر فريق منهم وجود الترادف وأثبته فريق آخر. ويؤكد ابن الاعرابى (ت ٢٣١ هـ) عدم ايمانه

(1) Zgusta, op. cit., p. 61.

(٢) دلالة الالفاظ ص ٢١٣ – ٢١٤.

بوقوع الترادف فيقول «كل حرفين أوقعهما العرب على معنى واحد، فى كل واحد منهما ليس فى صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا فلا نلزم العرب جهله»(١).
ويؤكد ابن درستويه عدم إيمانه بوجود الترادف فى العربية فيقول «لا يكون فعل وأفعل بمعنى واحد، كما لم يكونا على بناء واحد، إلا أن يجئ ذلك فى لغتين مختلفتين. فأما فى لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد. كما يظن كثير من اللغويين والنحويين، وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها وما فى نفوسها من معانيها المختلفة على ما جرت به عاداتها وتعارفها، ولم يعرف السامعون لذلك العلة فيه والفروق، فظنوا أنها بمعنى واحد، وتأولوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسهم. فإن كانوا قد صدقوا فى رواية ذلك عن العرب فقد أخطأوا عليهم فى تأويلهم ما لا يجوز فى الحكمة، وليس يجئ شئ من هذا الباب إلا على لغتين متباينتين كما بينا، أو يكون على معنيين مختلفين، أو تشابه شئ بشئ»(٢).

ومعنى هذا أن الترادف قد يحدث عند ابن درستويه للأسباب الآتية:

١ - عدم إدراك السامع للفروق الدلالية.

٢ - اختلاف اللهجات.

٣ - المجاز.

وهو يخص ذلك فى إطار اللغة العربية بلهجاتها. أما فى نطاق لهجة واحدة فمحال، كما قال.

وأما ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فيتناول المسألة بشرح وتفصيل أكثر، ويستعرض آراء المؤيدين والمعارضين لوجود الترادف أو عدم وجوده ويبدأ المناقشه بتعريف الظاهرة «ويسمى الشئ الواحد بالأسماء المختلفة نحو السيف والمهند والحسام»(٣). أما رأيه فى وقوع الترادف فيوضحه بقوله «والذى نقوله فى هذا أن الإسم واحد وهو السيف، وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى. وقد خالف فى ذلك قوم فزعموا أنها، وإن اختلفت ألفاظها فإنها ترجع الى معنى واحد ... وقال آخرون، ليس منها أسم أو صفة وإلا معناه غير معنى الآخر. وقالوا كذلك الأفعال نحو مضى وذهب وانطلق وقعد وجلس ورقد ونام وهجع .. واحتج أصحاب المقالة الاولى بأنه لو كان لكل لفظة معنى غير الأخرى، لما أمكن أن يعبر عن شئ بغير عبارته. وذلك

---

(١) المزهر، ١/٣٧٢ - ٣٧٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٣) المصدر السابق، ١/ ٣٨٤ - ٣٨٥.

أنا نقول فى «لا ريب فيه» «لا شك فيه» فلو كان الريب غير الشك لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأ. فلما عبر عن هذا بهذا، عُلم أن المعنى واحد»(١).

وبناء على ذلك يكّون ابن فارس رأيه فى الترادف بالقول بالفروق الدلالية بين الكلمات، والتى لابد أن تلحظ فى الاستخدام، وخاصة من خلال السياق. يقول «ونحن نقول إن فى «قعد» معنى ليس فى «جلس»، ألا ترى أنا نقول قام ثم قعد، وأخذه المقيم والمقعد، وقعدت المرأة عن الحيض، ونقول لناس من الخوارج «قعدة»، ثم نقول كان مضطجعا فجلس، فيكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هى دون الجلوس، لأن الجِلْس المرتفع، فالجلوس هو ارتفاع عما هو دونه، وعلى هذا يجرى الباب كله»(٢).

ومعنى هذا أن ابن فارس وغيره من علماء اللغة القدماء لا ينكرون الترادف مطلقا، وإنما ينكرون التطابق التام بين دلالة كلمتين، أى ينكرون ما يطلق عليه علماء اللغة المحدثون الترادف المطلق true or pure synonymy، أما ما يطلقون عليه شبه الترادف،أو الترادف النسبى near synonymy(٣)، فهو ما يقر به ابن درستويه وابن الإعرابى وابن فارس.

ويبدو أن فكرة الفروق الدلالية بين الكلمات التى يظن أنها مترادفة أو كما يقول علماء اللغة التى تقع فى اطار الترادف النسبى، يبدو أن هذه الفكرة قد شغلت أبا هلال العسكرى (ت ٤٠٠هـ) فوضع كتابا كاملا يدور حول هذه الفكرة أسماه «الفروق فى اللغة» أو «الفروق اللغوية»، حاول أن يثبت فيه من الناحيتين النظرية والتحليلية وجود فروق دلالية، لا بين الكلمات فحسب، كما فعل علماء اللغة القدماء، وإنما بين التراكيب التى يظن أنها تؤدى دلالات واحدة.

فمن الناحية النظرية يستند أبو هلال العسكرى إلى طبيعة العلاقة بين اللفظ وما يشير إليه فيقول «إن الشاهد على اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعانى، لأن الأسم كلمة تدل على معنى كدلالة الإشارة، وإذا أشير إلى شئ مرة واحدة فعرف، فالإشارة إليه مرات أخرى غير مفيد، وبما أن واضع اللغة حكيم لا يأتى فيها بما لا يفيد، فلابد أن يكون فى الإشارة الثانية والثالثة خلاف، لما أشير فى الأولى. ويخلص أبو هلال

(١) الصاحبى ص ١٤.
(٢) المصدر السابق ص ١١٤، ١١٥.
(٣) المصدر السابق ص ١١٦.

من هذا الى أن كل اسمين يجريان على معنى من المعانى وعين من الأعيان فى مستوى لغوى واحد فإن كلا منهما يقضى خلاف الآخر وإلا لكان الثانى فضلا لا يحتاج اليه»(١).

أى ان الأصل فى دلالة الكلمات هو التباين والاختلاف فى نطاق المستوى اللغوى الواحد، وما خرج عن هذا الأصل وأدى الى غموض الدلالة يمكن تفسيره، ويترتب على رأى أبى هلال هذا أن الترادف الكامل الذى يؤدى إلى الغموض والإبهام غير موجود فى العربية. وأن الذى يوجد هو الترادف النسبى الذى قد لا يفطن إليه السامع أو القارئ، ولكى يثبت وجهة نظره هذه يحاول أن يحلل بعض العبارات والكلمات مستندا الى معايير لغوية فى اثبات الفروق الدلالية مثل تعدى الفعل ولزومه، فالفرق بين «العلم» و«المعرفة» أن العلم يتعدى إلى مفعولين والمعرفة تتعدى إلى مفعول واحد فتصريفهما على هذا الوجه واستعمال أهل اللغة لهما يدل على الفرق الدلالى بينهما، كما يستند إلى دلالة الحرف الذى يتعدى به الفعل لإثبات الفرق الدلالى، فالفرق بين «العفو» و«الغفران» يظهر فى قولنا، «عفوت عنه»، فيقضى ذلك محو الذنب والعقاب. أما اذا قلت، «غفرت له»، فيقضى ذلك ستر الذنب وعدم فضحه»(٢).

وقد ينظر إلى الوظائف الشكلية للكلمات، كمعيار فى التفريق الدلالى فيتحدث عن الفرق بين الإسم والصفة والحال(٣)، أو يعتمد على الدلالة الأصلية للكلمة دون الدلالات الهامشية فى إظهار الفروق الدلالية، كما فعل عندما فرق بين «المدح» و«التقريظ»، فالمدح يكون للحى والميت، والتقريظ لا يكون إلا للحى. وخلافه التأبين، لا يكون إلا للميت. وأصل التقريظ من القرظ وهو شئ يدبغ به ألاديم، فإذا دبغ به حسن وصلح وزادت قيمته فشبه مدحك للإنسان الحى بذلك. وبناء على ذلك لا يصح هذا المعنى فى الميت، ولذلك يقال، مدح الله، ولا يقال قرظه(٤). «وبناء على هذا المنهج أخذ أبو هلال يتعقب الفروق الدلالية بين الثناء والمدح والإطراء والهجو والذم والسب والشتم والعتاب واللوم والهمز واللمز وغير ذلك(٥).

على هذا النحو تعامل علماء اللغة القدماء مع ظاهرة الترادف من حيث هى ظاهرة تؤدى الى غموض المعنى وخفائه، وبالرغم من اختلافهم حول وقوعه إلا أن ما ذهب

---

(١) انظر . - Lyons, op. cit, vol. 2. p. 550.
انظر ايضا - Hartmann and stork, op. cit., p. 150, 150, p. 230.
(٢) الفروق، ص ١٣.
(٣) المصدر السابق، ص ١٧.
(٤) المصدر السابق، ص ٢١ – ٢٣.
(٥) المصدر السابق ص ٤٢.

إليه بعضهم من وجود الترادف النسبى يؤكد أن الغموض الدلالى قد يحدث بين بعض الكلمات، كما نلاحظ أن القدماء عرفوا الترادف وحددوه بالتعريف الذى عرفه به المحدثون، وهو وجود كلمتين أو أكثر لهما دلالة واحدة. وقد التفت كل من القدماء والمحدثين إلى أهمية السياق فى تحديد الفروق الدلالية بين الكلمات التى يظن أنها مترادفة، وذلك فيما شار إليه القدماء من أن عدم معرفة السامع لكلام العرب والعلة فيه، قد يؤدى إلى غموض المعنى بالنسبة لغير ابن اللغة. وذلك لا يلزم العرب أبناء اللغة جهله، وهم بذلك يشيرون إلى ما أشار إليه بعض علماء الأسلوب حديثا من أن الغموض قد يأتى لانتماء نص ما إلى مرحلة تاريخية غير التى يقرأ فيها. ومن ثم قد يظن أن بعض الكلمات من المترادف وهى بالنسبة لأبناء اللغة فى مرحلة تاريخية معينة، ليست كذلك. أى بعبارة أخرى، أن التطور اللغوى قد يكون سببا هاما من أسباب الترادف. وقد رأينا من قبل كيف استفاد علماء الأصول من آراء علماء اللغة فى دراسة الترادف، وإن اختلفت المصطلحات، وربما كانت دراسة علماء الاصول أكثر دقة واحاطة لارتباطها بالنص القرآنى.

٣ - الأضــــداد.

وهى ظاهرة دلالية أخرى تتصل بغموض الكلمة وتعدد معناها، وتنفرد بها اللغات السامية بوجه خاص حتى أن بعض علماء المعاجم المعاصرين لم يجد مثالا لهذه الظاهرة لكى يوضحها إلا من خلال اللغة العربية(١).

ويقصد بمصطلح الأضداد أو التضاد عند علماء اللغة القدماء الكلمات التى تؤدى دلالتين متضادتين بلفظ واحد. ويحده ابن الانبارى (ت ٣٢٧ هـ) فى مقدمة كتابه الأضداد، بقوله «هذا كتاب ذكر الحروف التى توقعها العرب على المعانى المتضادة، فيكون الحرف فيها مؤديا عن معنيين مختلفين»(٢).

وكما اختلف علماء اللغة القدماء حول ظاهرتى المشترك والترادف اختلفوا أيضا حول ظاهرة الأضداد ووقوعها فى اللغة العربية، ولكنهم رغم هذا الاختلاف اهتموا بجمع الكلمات التى تمثلها، سواء ما ورد منها فى القرآن أو الحديث النبوى، أو كلام العرب، وأفردوها بالتأليف والتصنيف. وقد حظيت بعض هذه المؤلفات حديثا بكثير من العناية والنشر والتحقيق(٣).

---

(1) Zgusta, op. cit, p. 74 - 75.

وانظر أيضا د. رمضان عبد التواب، فصول فى فقه العربية ص ٣٠٢.

(٢) انظر مقدمة كتاب الأضداد لابن الانبارى، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، وأنظر ايضا مقدمة كتاب الأضداد فى كلام العرب، تحقيق د. عزت حسن.

(٣) انظر المرجعين السابقين.

وقد رأى السيوطى أن التضاد ما هو إلا نوع من المشترك اللفظى[1]، وأنكر وقوعه فى اللغة ابن سيدة (ت ٤٥٨ هـ) قائلا: «كان ثعلب يقول، ليس فى كلام العرب ضد لأنه لو كان فيه ضد لكان محالا»[2]، وانتصر الجواليقى (ت ٥٤٠هـ) لهذا الرأى ونسبه الى المحققين من علماء العربية، ثم عرض لبعض من الكلمات المتضادة وحاول أن يثبت عدم التضاد فيها، مستندا إلى فكرة الفروق الدلالية[3]. ومن الذين أنكروا التضاد أيضا ابن درستويه الذى ألف كتابا فى ابطاله، كما ذكر السيوطى[4] ورد ابن الانبارى على المنكرين لوقوع التضاد أو الكلمات المتضادة فقال: «إن كلام العرب يصحح بعضه بعضا، ويربط اوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين. لأنهما يتقدمان ويأتى بعدهما ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، فمن ذلك قول الشاعر:

كل شئ ما خلا الموت جلل والفتي يسعي ويلهيه الأمل

فيدل ما تقدم قبل «جلل»، وما تأخر بعده على أن معناه، كل شئ ماخلا الموت يسير، ولا يتوهم ذو عقل وتمييز أن الجلل هنا معناه العظيم»[5]. وبذلك يثبت ابن الانبارى أن الكلمة بعيدا عن السياق المستخدمة فيه، قد يغمض معناها وتحتمل أكثر من دلالة، ولكن السياق يحدد المقصود من المعنيين، والأضداد فى ذلك تشبه أى كلمة أخرى، فهى فى حالة بعدها عن السياق قد يتطرق إليها الاحتمال والتعدد. أما فى داخل السياق فيتحدد معناها ويرتفع الغموض عنها، ويقرر ابن الانبارى ذلك فى صورة واضحة فى قوله: «ومجرى حروف الأضداد مجرى الحروف التى تقع على المعانى المختلفة، وإن لم تكن متضادة، فلا يعرف المعنى المقصود منها إلا بتقديم الحرف وبتأخيره مما يوضح تأويله»[6].

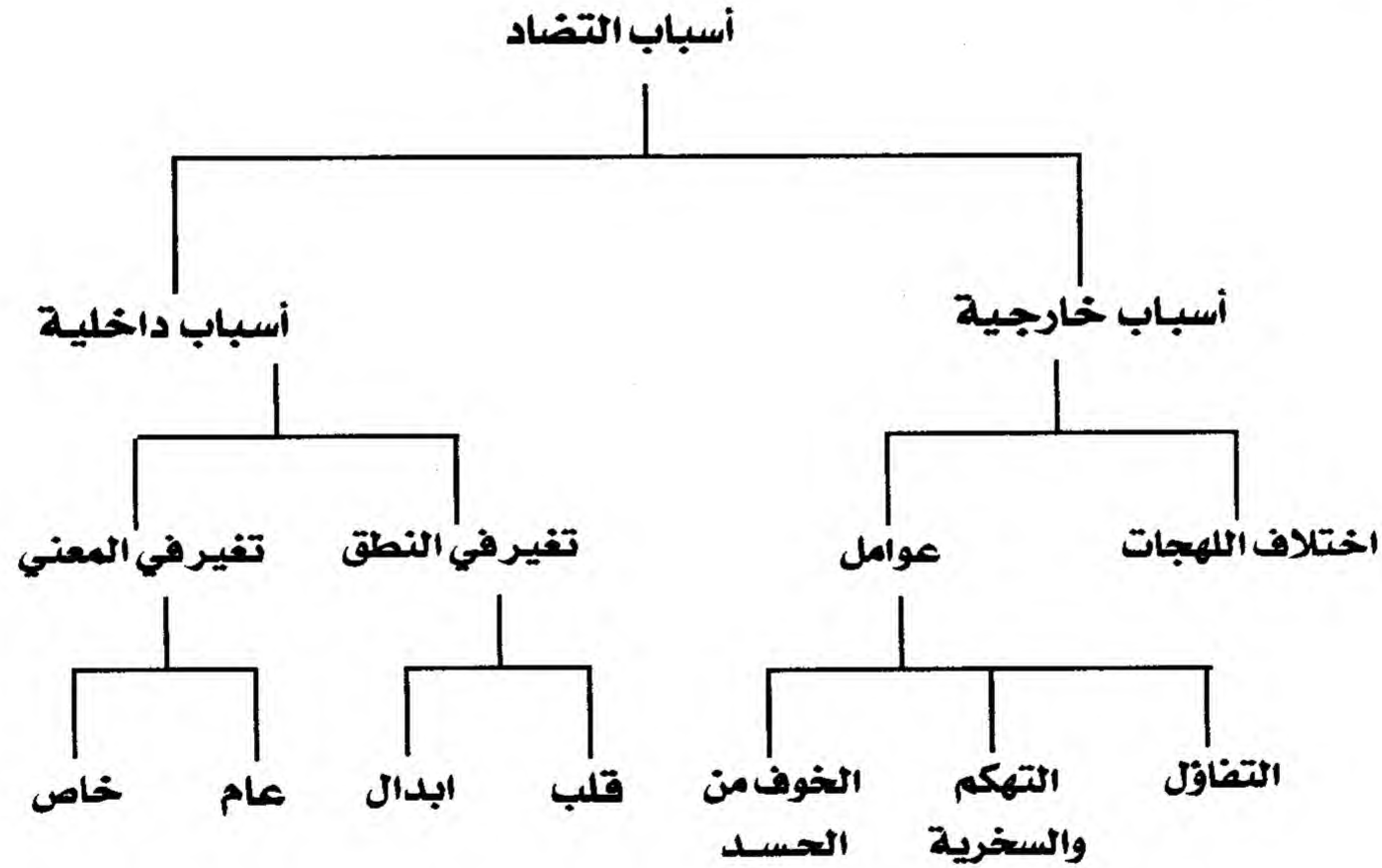
وكأن ابن الانبارى، كما قلت، يرى ان احتمال الغموض يتطرق الى جميع الكلمات على السواء. والسياق هو الذى يحدد دلالة واحدة آنية للكلمة أما بعيدا عن السياق فالمعنى متعدد ومحتمل. ولعل هذا ما لاحظه علماء اللغة المحدثون حينما عدوا الغموض خصيصة من خصائص اللغات الإنسانية. وابن الانبارى لا يحاول هنا تفسير نشأة

(١) المزهر ١/٣٨٧.
(٢) المخصص ١٣/٢٥٩.
(٣) شرح ادب الكاتب ص ٢٥١.
(٤) المزهر ١/٣٩٦.
(٥) الاضداد، ص ٢.
(٦) المصدر السابق، ص ٤.

الأضداد بقدر ما يحاول أن يرسى قواعد فى طريقة رفع الغموض عن المعنى وذلك بفهم العلاقات الدلالية بين الكلمات داخل السياق.

ولكن بعض علماء اللغة القدماء حاول تفسير نشأة التضاد فذهب بعضهم إلى أن أصل التضاد كأصل الألفاظ الأخرى، وقع فيها بالوضع ولكن ابن سيده يرد هذا الرأى ويرى أن اتفاق اللفظتين واختلاف المعنيين لا يمكن أن يكون قصدا فى الوضع ولا أصلا(١). ويرى أن أسباب نشأة التضاد قد ترجع الى التداخل اللهجى أو أن تكون كلمة ما تستعمل بمعنى ثم تستعار لمعنى آخر فيغلب عليها الإستعمال الثانى فتصير بمنزلة الأصل(٢).

وقد درس عدد من المحدثين ظاهرة التضاد وحددوا لها أسبابا يمكن أن نجملها فى الشكل الآتى:



(شكل رقم ١١)

أما الأسباب الخارجية فتتمثل فى اختلاف اللهجات، فقد تستعمل إحدى اللهجات كلمة بمعنى، ثم تستعمل لهجة أخرى نفس الكلمة فى المعنى المضاد، وعند جمع اللغة لم يفرق اللغويون بين اللهجات فيقع التضاد، كما يتمثل أيضا فى عوامل نفسية مثل التشاؤم

(١) المخصص ٦٩١/١.

(٢) المصدر السابق ٦٩٢/١.

أو التفاؤل. فقد يتشاءم المتكلم من استعمال كلمة، ويتفاءل باستعمال أخرى، مثل كلمة «المفازة»، وأصل معناها النجاة من الهلاك. وجاء إطلاقها على الصحراءوهى مهلكة من قبيل التفاؤل. ومثل ذلك كلمة «السليم» فاطلاقها على اللديغ من باب التفاؤل ومن السخرية إطلاق كلمة «العاقل» على الجاهل والأحمق.

وقد يدفع الخوف من الحسد الى استعمال الكلمات فى معان متضادة فيطلق العربى على فرسه الجميلة إسم «شوهاء»، وعلى المرأة العاقلة «بلهاء»، وعلى السيف المصقول «الخشيب» وكل ذلك اتقاء للحسد(١).

أما العوامل الداخلية فتتصل بالبنية اللغوية وتتمثل فى بعض التغيرات الصوتية فى نطق الكلمة مما يؤدى الى وقوع التضاد. فمن ذلك مثلا الفعل «ضاع» الذى يدل على الاختفاء والظهور معا. والأصل فيه الجذر «ضيع» أما دلالة الظهور والانتشار فهى من «ضوع» وتطور الفعلان إلى صورة واحدة هى «ضاع». ويدل على ذلك صيغة المضارع التى بمعنى الاختفاء والفقد وهى «ضاع» «يضيع»، وبمعنى الانتشار والظهور «ضاع» «يضوع».

وقد يرجع التضاد إلى احتمال الصيغة الصرفية لأكثر من دلالة، فصيغة «فعيل» قد تأتى بمعنى «فاعل» مثل سميع وعليم وقدير، كما قد تأتى أيضا بمعنى «معفول» مثل دهين بمعنى مدهون وقتيل بمعنى مقتول وكحيل. بمعنى مكحول، ومن هنا قيل بالتضاد فى «الغريم» بمعنى الدائن والمدين، و«القنيص» بمعنى القانص والمقنوص. ومثل ذلك أيضا فى صيغة «فاعل» التى قد تستخدم بمعنى «مفعول» مثل «خائف» بمعنى «مخوف» وعائذ وعارف.

وقد يحدث التضاد نتيجة للتطور الدلالى، فقد يكون معنى الكلمة عاما ثم يخصص بالاستعمال مثل كلمة «الطرب» وأصل معناها خفة تصيب الإنسان لشدة الفرح أو الحزن، ثم خصص معناها للدلالة على «الحزن». وقد تستعمل فى العربية الحديثة بمعنى النشوة من الغناء، ومثل ذلك كلمة «المأتم» وأصل معناها، النساء يجتمعن فى الحزن والفرح، ثم خصصت للدلالة على اجتماعهن فى الحزن خاصة.

ولعلنا قد لاحظنا أن الأسباب التى ذكرها علماء اللغة القدماء والمحدثون لوقوع الغموض فى المعنى بسبب من الإشتراك اللفظى أو الترادف أو التضاد تكاد تكون واحدة، وتتمثل فى أسباب داخلية تتصل ببنية الكلمة أو دلالتها كما تتمثل فى اختلاف اللهجات واستعمال الكلمات فى مستويات لغوية مختلفة.

---

(١) د. رمضان عبد التواب، فصول فى فقه العربية، ص ٣٩٢ وما بعدها.

ولكن معرفة الأسباب لا تنفى وجود تعدد المعنى واحتماله، ومن ثم غموضه فى بعض الاستعمالات، وهو ما حاول كثير من علماء العربية القدماء نفيه عن اللغة العربية إيمانا منهم بكمال هذه اللغة، أو لحجج عقلية لا لغوية. ولكن الأصوليين، كما رأينا كانوا أكثر واقعية من اللغويين، فنظروا إلى ظاهرة تعدد المعنى وغموضه، سواء فى الألفاظ أو التراكيب نظرة علمية فتعاملوا مع ظواهر الإشتراك والترادف والأضداد كظواهر لغوية واقعة فى اللغة العربية، وحاولوا وضع قواعد وقوانين يكشفون بها ظواهر الغموض فى الكلمات المتعددة المعنى بسبب الاشتراك أو الترادف أو التضاد. ولا شك أنهم استفادوا من جهود اللغويين، يدل على ذلك تشابه المصطلحات عند هؤلاء وهؤلاء، وإن كان الأصوليون أكثر دقة فى بيان درجات الغموض بمصطلحات خاصة تفرق بينها.

ثانياً: النحاة والغموض:

إذا كان المفسرون والأصوليون واللغويون قد اهتموا بالمعنى من حيث الوضوح والغموض على النحو الذى عرضنا له من قبل، فإن اهتمام النحاة بوضوح المعنى أو غموضه فيما ازعم، كان قطب الرحى الذى دارت عليه دراسة النحاة العرب للتراكيب، إذا استثنينا بعض الجوانب من دراسة الأصوليين لصيغ الأمر والنهى وغيرها.

ولعلنا قد لاحظنا أن كثيرا من دراسات أصحاب غريب القرآن واللغويين قد انصبت على دراسة دلالة المفردات من حيث وضوح المعنى أو تعدده أو غموضه. أما النحاة فقد انصبت دراساتهم بطبيعة الحال على قواعد التركيب النحوى بما لها من صلة بالمعنى. وإذا كان علماء اللغة المحدثون قد أشاروا الى إن اللغة الإنسانية تتميز بثنائية التركيب Duality of structure، وهى الصوت والمعنى، فإن هذه الحقيقة لم تغب عن عقول نحاة العربية وتحليلاتهم، وبخاصة، من حيث علاقة المعنى بالوضوح والغموض.

وآداء المعنى الواضح يتم فى تصور النحاة بطرق مختلفة، ولكن طبقا للقواعد اللغوية والنحوية التى استنبطوها، فغاية التحليل النحوى أو الإعراب بالمعنى الاصطلاحى عندهم، هو بيان لوظائف تتصل دائما بالمعنى عندهم. ولعل من أقدم النصوص التى تبين دور الإعراب فى أداء المعنى ما أورده الزجاجى (ت ٣٣٧هـ) فى كتابه «الإيضاح فى علل النحو» حيث عرض لموقف المؤيدين لدور المعنى فى الإعراب، والرافضين له. ولكن الرأى القائل بدور الإعراب فى آداء المعنى هو الذى ساد فى أمهات كتب النحو، ولذلك أجمع البصريون والكوفيون على دور الإعراب فى آداء المعنى، وإن اختلفوا فى

تحليل البنية اللغوية[1]. ولذلك نجد ابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) يعرف الإعراب بقوله هو «الإبانة عن المعانى بالألفاظ»[2].

وقد استعمل النحاة للدلالة على عدم وضوح المعنى أو غموضه مصطلحين هما: «اللبس» و «الإبهام». والمصطلح الأول، أى «اللبس»، أكثر شيوعا ودورانا فى الدلالة على غموض المعنى. أما المصطلح الثانى فهو مصطلح خاص بجمل بعينها ولا يستعمل إلا فى الدلالة على غموض المعنى فى جملتى الحال والتمييز.

وقد استعمل سيبويه (ت ١٨٠ هـ) مصطلح «اللبس» للدلالة على الغموض الناشئ عن وجود لفظ يحتمل أكثر من معنى أو تركيب يؤدى إلى تعدد المعنى وغموضه. وقد شاع هذا المصطلح بهذه الدلالة عند النحاة بعد ذلك[3]، يقول سيبويه «وينبغى لك ان تسأل عن خبر من هو معروف عنده (يقصد السامع) كما حدثته عن خبر من هو معروف عندك، وهو المبدوء به»[4]. وسيبويه يشير هنا إلى أن الأصل فى المبتدأ أن يكون معرفة لكى يصح السؤال أو الكلام عنه، أو الحكم عليه، لأنه لو لم يكن معرفة لوقع الغموض فى الكلام، ولم يفهم السامع المقصود لأن المبتدأ إذا كان مجهولا لدى السامع أدى الإخبار عنه إلى عدم الإفادة. كما أن ذكر المجهول فى بداية الكلام يورث السامع الحيرة. ويحدد سيبويه هذا المجهول أو غير المحدد بالنكرة، يقول «ولا يبدأ بما فيه اللبس وهو النكرة، ألا ترى أنك لو قلت «كان إنسان حليما»، أو «كان رجل منطلقا» كنت تلبس لأنه لا يستنكر أن يكون فى الدنيا إنسان هكذا فكرهوا أن يبدأوا بما فيه اللبس، ويجعلوا المعرفة خبراً لما يكون فيه اللبس[5].

والجملتان اللتان مثل بهما سيبويه لم تفيدا معنى واضحا لوجود كلمة إنسان النكرة، والنكرة تدل على العموم، أى أن عدم الوضوح أو الغموض فى هاتين الجملتين جاء من وجود لفظ يدل على العموم، لا من التركيب النحوى، وهو أحد معانى مصطلح اللبس عند النحاة، وأقلها شيوعا بهذه الدلالة. وتوضيحا لهذا اللبس اشترط سيبويه والنحاة من بعده أن يكون المبتدأ معرفة، وهو الأصل. ولكن يجوز أن يكون نكرة بشرط ان تدخل فى حيز المعرفة، وهو ما أجمله ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) فى ألفيته بقوله:

---

(١) انظر الإيضاح صفحات ٧١، ٧٧ – ٨٢.

(٢) الخصائص ١/٣٥.

(٣) انظر على سبيل المثال، السيوطى، همع الهوامع ١/٢٤٤، ٢/١٢ – ١٣، ١٨، ٩٢، ١٦٢، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٤ – ٣/٤٢ – ٤٣.

(٤) الكتاب ط هارون ١/٤٨.

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة. وانظر ايضا السيرافى، شرح كتاب سيبويه ١/١٤٥، ١٦٠، ١٦٢.

ولا يجـــــوز الابتـــــدا بالنكرة ما لم تفـد، كعند زيد نمـرة

وهل فـتي فـيكم فمـا خل لنا ورجـل مـن الكـرام عـنـدنـا

وتشبه الجملتان اللتان مثل سيبويه، وهما: «كان إنسان حليما» و «كان رجل منطلقا» بعض الجمل التى يمثل بها علماء اللغة المحدثون للجمل الغامضة عندهم من حيث الدلالة على العموم، مثل: everyone loves someone(١).

والتى يمكن ترجمتها الى: «كل إنسان يحب بعض الناس». وهى جملة غامضة لانها تتألف طبقا لتحليلهم من حد عام فى صيغة النكرة «كل إنسان» أى لا تحدد انسانا بعينه، ومثل ذلك أيضا فى عبارة «بعض الناس» لأن الألفاظ مثل «كل» و«بعض» من ألفاظ العموم كما قال الأصوليون، أو هى، كما يقول المناطقة تمثل سور القضية.

ومن ثم يرى علماء اللغة، وبخاصة التحويليون منهم، أن هذه العبارة مشتقة على النحو التالى:

١ - الناس يحبون.

٢ - كل إنسان يحب.

٣ - بعض الناس يحبون.

أى أن التركيب الأول هو الذى يمثل البنية العميقة للجملة، ويدل على معناها. فلو طبقنا تلك الفكرة على جملة سيبويه الأولى لكانت كما يلى:

١ - الإنسان حليم.

٢ - كان الإنسان حليما.

٣ - كان إنسان حليما.

أما الجملة الثانية فتكون:

١ - الرجل منطلق.

٢ - كان الرجل منطلقا.

٣ - كان رجل منطلقا.

(١) انظر، نظرية تشومسكى اللغوية، ص ١٩٠.

أى أن البنيـة العـمـيـقـة وهـى الجـملة الأولى فى كل من المـثـالين هى التى توضح المعنى.

أمـا المـعنى الثـانى من مـعـانـى اللبس عند النحـاة، وهو أكـثـرها شـيـوعا فـيـدل على غموض المعنى أو تعدده بسب من التركيب، مثال ذلك:

١ - سرت طويلا.

وهو تركيب صـحيح نـحويا، ولكنه يـحتمل أكثر من معنى، فهو يدل على ثلاثة معان محتملة هى:

١ - سرت سيرا طويلا.

٢ - سرت زمناً طويلا.

٣ - سير سرته طويلا.

ومنه قوله تعالى﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ وهى تحتمل ثلاثة معان هى:

١ - وأزلفت الجنة للمتقين إزلافا غير بعيد.

٢ - وأزلفت الجنة للمتقين زمنا غير بعيد.

٣ - وأزلفت الجنة للمتقين الإزلاف غير بعيد.

أى الإزلاف كونـه غيـر بعيـد، أى على الحـالية لا المـصدرية أو الظرفيـة كمـا فى الجملتين الأولى والثانية.

ومثل ذلك فى قوله تعالى ﴿ سبح اسم ربك الأعلى﴾ وهى تحتمل معنيين:

١ - سبح الاسم الأعلى لربك، على أن «الأعلى» وصف «للإسم».

٢ - سبح اسم ربك الأعلى، على أن «الأعلى» وصف «لربك»[١].

ومقابل مصطلح «اللبس» بهاتين الدلالتين استخدم النحاة مصطلح «أمن اللبس» أو «عدم اللبس» أو «خوف اللبس»[٢] للدلالة على التحرز من وقوع اللبس فى المعنى نتيجة لوضع التركيب النحوى وضعا معينا.

والخوف من اللبس هو الذى يوجه النظام اللغوى فى أى لغة لا فى العربية وحدها، أو هو الإطار العام الذى تتحرك فيه أنظمة اللغة المختلفة الصوتية والصرفية والنحوية حيث

---

(١) مغنى البيب، ٢/٥٦١، ٥٦٨.

(٢) السيرافى، شرح كتاب سيبويه ١/١٦٢، وانظر ايضا همع الهوامع ٢/٢٥٨، ٢٦٠، ٣/٨، ٢٥، ٤٣.

يقوم كل نظام من خلال الأنظمة الأخرى بالتعبير عن المعنى بوضوح أى دون لبس وهو الهدف النهائى من التفاهم باللغة. وكل نظام من أنظمة اللغة، بل كل نظام لغوى بشكل عام يقوم على مجموعة من الملامح المميزة. distinctive features التى يتحقق بها أمن اللبس.

فالنظام الفونولوجى فى اللغة العربية مثلا يقوم على مجموعة من الملامح المميزة التى تنبع من الخصائص النطقية والسمعية لكل صوت من أصوات اللغة العربية مثل موضع النطق وصفته، فتقسيم الصوائت Vowels والصوامت Consonants ليس مبنيا على أساس فسيولوجى فحسب من حيث اندفاع الهواء دون اعتراض مع الصوائت واعتراضه مع الصوامت وإنما أيضا على اعتبارات سمعية وكل ذلك يكّون الملامح المميزة لكل فونيم بحيث لا يؤدى إلى اللبس، لأن تشابه هذه الوحدات أو الفونيمات يؤدى إلى وقوع اللبس.

ومثل ذلك أيضا على المستوى المورفولوجى حيث يتنوع النظام الصرفى من خلال وحدات صرفية هى المورفيمات التى لكل مورفيم منها خصائص نطقية ووظيفية تجعله مختلفا أو مميزا عن الآخر، مثل الألف والتاء فى جمع المؤنث السالم فى مقابل الواو والنون فى جمع المذكر السالم، وبصورة عامة فإن النظام المورفورلوجى فى اللغة العربية يقوم على مجموعة من السوابق Preffexes واللواحق suffexes والمقحمات inffexes والصيغ التى تتميز بخواص نطقية ووظيفية من حيث الدلالة على المعنى ويعتمد النظام النحوى أيضا فى التعبير عن المعنى على النظامين الفونولوجى والمورفولوجى، بالاضافة الى مجموعة من العلاقات النحوية وأهمها علاقة الإسناد، ثم النسبة والتبعية وغيرها، بالإضافة إلى حركات الإعراب التى هى فى الواقع مورفيمات لكل منها دلالة على معنى من معانى النحو، لأنها تحدث بسبب التركيب[1].

وهذه الملامح المميزة لكل نظام من أنظمة اللغة ضرورية لفهم المعنى وأمن اللبس، ولذلك تتميز بالثبات والاطراد، وهى التى تميز أيضا لغة عن لغة، ومع ذلك فقد يحتاج إلى الخروج على هذه القواعد المطردة ولكن يشترط أمن اللبس، ويؤكد ذلك قولِ النحاةِ وقد ينصِب الفاعل ويرفع المفعول إذا أمن اللبس، كما ورد عِن العرِب قولهم «خرقَ الثوبُ المسمارَ» برفع الثوب ونصب المسمار. وكذلك «كسرَ الزجاجُ الحجرَ» برفع الزجاج ونصب الحجر، ومنه وقول الأخطل:

مثل القنافذ هداجون قد بلغت ... نجران أو بلغت سوءاتهم هجروا[2]

---

(١) شرح الكافية ١/٦.

(٢) شرح ابن عقيل ٢/٧٤.

يجتنب»(١) . وقد استطاع الرضى الإسترابادى (ت ٦٨٦ هـ) أن ينظر من خلال قاعدة أمن اللبس هذه نظرة عامة إلى المفردات والتراكيب من حيث دلالتها على المعنى، وفى ضوء فكرة الملامح المميزة فقال «اعلم أن ما يحتاج إلى التمييز بين معانى الكلم على ضربين: أحدهما أن يكون فى الكلمة معنيان أو أكثر غير طارئ أحدهما على الآخر كمعانى الكلم المشترك فى الطهر الحيض وضرب فى التأثير المعروف والسير. وكذا جميع الأفعال المضارعة عند من قال باشتراكها، ومن للابتداء والتبيين والتبعيض فمثل هذا لا يلزمه العلامة المميزة لاحد المعنيين أو المعانى عن الآخر لأن جاعله لأحد المعنيين وضعا كان أو مستعملا لم يراع فيه المعنى الآخر حتى يخاف اللبس فيضع العلامة لأحدهما(٢).

هذا بالنسبة للمفردات، ومن النص تتضح لنا الحقائق الآتية:

١ – إن البنية اللغوية تحتاج الى علامة مميزة حتى لا يقع اللبس فى الكلام.

٢ – إن الغموض أو اللبس قد يقع فى المفردات، سواء أكانت أسماء أم افعالا أم حروفا.

٣ – إن اللبس يقع فى المفردات إما بالوضع أو الاستعمال.

٤ – إن المفردات تخلو من العلامات المميزة لأن الواضع أو المستعمل لم يراع فيها المعنى الآخر لأنه لم يتوقع اللبس ولذلك خلت من العلامات المميزة.

والرضى لم يلتفت إلى الجانب الصوتى أو الصيغ كعلامات مميزة للمفردات لأنه كان يمهد بذلك للتراكيب التى رأى أنها ذات معان طارئة تحدث للكلمات نتيجة التركيب، ومن ثم احتاجت إلى علامات مميزة. ويحصر الرضى العلامات المميزة التى ترفع اللبس فى التركيب فيما يلى:

١ – القرينة فى المجاز.

٢ – تغيير صيغة الكلمة.

٣ – الزوائد، كما فى المثنى والجمع وغيرها.

٤ – إضافة كلمة أخرى لتوضيح المعنى الطارئ كالوصف والإضافة.

---

(١) المصدر السابق ٢/١١٧ – ١١٨.

(٢) الرضى الاسترابادى، شرح الكافية ١/١٩ – ٢٠.

٥ – الإعراب بالحركات والحروف[١].

ومعنى هذا أن أى إهدار أو خروج على هذه الخصائص المميزة التى حاول الرضى أن يحصرها يؤدى إلى اللبس والغموض، ولذا فإن الشرط الوحيد لإهدارها أو الخروج عليها هو أمن اللبس أو اجتنابه، كما قال ابن مالك.

وقد يترتب على ذلك أن القاعدة العامة الكلية التى تحكم التركيب النحوى فى اللغة العربية، بل فى غيرها من اللغات هى أمن اللبس، أما بواسطة الالتزام الخصائص المميزة لكل لغة، وهو الأصل، وإما بالخروج عليها مع أمن اللبس، وبالتالى يمكن أن نقسم تراكيب اللغة العربية من حيث الوضوح والغموض إلى نوعين من التراكيب:

١ – تراكيب واضحة لأنها التزمت بالخصائص المميزة للغة العربية أو خرجت عليها مع الالتزام بقاعدة أمن اللبس.

٢ – تراكيب غامضة، إما لأنها لم تلتزم بالخصائص المميزة، أو لم تلتزم بقاعدة أمن اللبس.

وبالتالى يمكن تقسيم هذه التراكيب إلى ثلاثة أنواع أساسية هى:

١ – تراكيب واضحة، أو محكمة كما يقول الأصوليون.

٢ – تراكيب أقل وضوحا أو شبه غامضة.

٣ – تراكيب غامضة، أى تحتمل أكثر من معنى.

أما التراكيب الواضحة فهى أكثر الكلام وأشيعه، وهى التى تلتزم بالخصائص المميزة. وأما التراكيب الأقل وضوحا، أو شبه الغامضة فهى التراكيب التى لا تلتزم بالخصائص المميزة ولكن تلتزم بقاعدة أمن اللبس. مثال ذلك فى القرآن الكريم:

١ – قوله تعالى ﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا﴾. فحذف حرف الجر المتصل بالضمير العائد على اليوم، ولم يؤد هذا الحذف الى حدوث اللبس لأن المعنى، واتقوا يوما لا تجزيه فيه نفس عن نفس شيئًا، وقد اختلف النحاة حول حذف حرف الجر فكان الكسائى لا يجيز إضمار حرف الجر لأن ذلك قد يؤدى إلى اللبس فى مثل «أنت الذى تكلمت»، والمعنى أنت الذى تكلمت فيه، وقال الفراء بجواز ذلك الحذف لوضوح المعنى وأمن اللبس[٢].

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) معانى القرآن ١/٣١ – ٣٢.

٢ - قوله تعالى ﴿إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصائبون والنصارى﴾ فعطف «الصائبون» على اسم إنّ «الذين» وهى فى محل نصب، ولكن ذلك لم يؤد الى غموض المعنى، ويفسر الفراء عدم وقوع اللبس مع مخالفة الإعراب بأن الاسم الموصول «الذين» صرف على جهة واحدة فى رفعه ونصبه وخفضه وهو يقصد بذلك أنه مبنى، فلما كان إعرابه واحدا جاز رفع الصئبين[١].

٣ - قوله تعالى ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾.

ولم يقل زينت، وكذلك قوله تعالى ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾ ولم يقل من جاءته، وكذلك قوله تعالى ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾، ولم يقل وأخذت إذ لا لبس فى كل هذا، وإنما ذكر الفعل والاسم مؤنث لأنه مشتق من فعل فى مذهب المصدر، فمن أنث أخرج الكلام على اللفظ ومن ذكر ذهب إلى تذكير المصدر[٢].

٤ - وقوله تعالى ﴿إن هذان لساحران﴾.

وقد اختلف فيها القراء حتى قيل إنها لحن[٣]. وقال بعضهم إنه خطأ من الكاتب ولذلك قرأ أبو عمرو بن العلاء «إنّ هذين لساحران» وقرأها بعضهم بتخفيف إن وفتحها، ومع ذلك فلم تؤد هذه المخالفة إلى لبس لوضوح المعنى.

أما فى الشعر فالشواهد أكثر من أن تحصى، بل يمكن أن نعد معظم الشواهد النحوية من قبيل الخروج على القاعدة مع أمن اللبس. فمن ذلك مثلا قول الفرزدق:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحة أو مجلف

برفع «مجلف». واستنكر ذلك ابن أبى اسحاق الحضرمى، (ت ١١٧هـ) ومع ذلك فلم يؤد ذلك إلى لبس فى المعنى. وعزا بعضهم هذا الى الضرورة الشعرية وقال ابن قتيبة، إن كل ما يأتى به النحاة من علل لتخريج البيت إنما هو احتيال. وتمويه[٤].

ومثل ذلك قول الفرزدق أيضا:

ما أنت بالحكم الترضي حكومته ... ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣١٠، ٢/ ١٨٣.
(٢) المصدر السابق، ١/١٢٥، ١/٣٦١ - ٣٦٢.
(٣) المصدر السابق، ١/١٠٦، وانظر ايضا ٢/١٨٣.
(٤) الشعر والشعراء ١/٩٥.

فأدخل الألف واللام على الفعل المضارع، وهو استعمال غير مطرد فى العربية ومع ذلك لم يؤد إلى لبس[١].

ومنه أيضا قول حسان بن ثابت:

ولو أن مـجـدا أخلد الدهر واحـدا من الناس، أبقي مجـده الدهر مطعما

ففى قوله «أبقى مجده مطعما» تأخير للمفعول «مطعما» عن الفاعل وهو «مجد» مع أن الفاعل مضاف إلى ضمير يعود إلى المفعول به، أى فيه رجوع إلى متأخر لفظا ورتبة. وجمهور النحاة على منع ذلك لأنه يخالف القاعدة المطردة فى عودة الضمير، ولكن الأخفش وابن جنى جوزا ذلك لأمن اللبس ووضوح المعنى.

وهو ما أجمله ابن مالك بقوله:

وشـاع نحـو خـاف ربه عـمـر وشـذ نحـو زان نوره الشـجـر[٢]

وأما التراكيب التى تحتمل أكثر من معنى فهى تراكيب تدخل فى حيز الغموض، نتيجة لأن المبنى يسمح بفهم أكثر من معنى، لأن الأصل فى المبنى أن يرتبط بمعنى واحد لا يدل على سواه، وبناء على هذا جرد النحاة قواعدهم حسب الأصل، وأى خروج عن الأصل، كما أشرنا من قبل لابد معه من أمن اللبس، ولكن بعض الاستعمالات، أو بعض التراكيب النحوية لا تحافظ على هذه القاعدة، وبذلك تقع فى الغموض، وهى التراكيب التى اطلق عليها علماء اللغة المعاصرون التراكيب النحوية الغامضة grammatical ambiguity[٣]. مثال ذلك:

١ – قال بعض العرب: هذا ليل نائم[٤].

ومن يسمع هذا الكلام لا يستطيع أن يحدد المعنى المقصود لأن التركيب هنا يسمح بأكثر من معنى مثل:

(أ) هذا ليل هادئ ساكن.

(ب) هذا ليل ينام فيه الإنسان.

وقد حمل الفراء هذه الجملة على مثل قوله تعالى ﴿ فما ربحت تجارتهم﴾ فالمعنى الظاهر أن التجارة هى التى تربح، وإنما يربح التاجر لا التجارة، ولذلك رأى أن معنى

---

(١) شرح ابن عقيل ١/١٥٧.

(٢) شرح ابن عقيل، ٢/١٠٤ – ١١٠.

(3) Lyons. op. cit., vol. 2 p. 396.

(٤) معانى القرآن ١/١٤.

الجملة السابقة «هذا ليل ينام الإنسان فيه»، والواقع أن الغموض فى الجملة جاء من التركيب النحوى والدلالى معا. فمن حيث التركيب النحوى فهذه الجملة مشتقة من الجملة العميقة الأولى، أى «هذا ليل هادئ ينام فيه الإنسان»، وأما من الناحية الدلالية فكلمة «نائم» التى يصف بها الليل لا تأتلف دلاليا مع الليل، ومن هنا جاء الغموض.

٢ – قال الفراء، تقول: قد خسر عبدك[١].

فهذه الجملة قد يفهم منها معنيان هما:

(أ) العبد قد خسر فى تجارة له.

(ب) بعت العبد نفسه بخسارة.

وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ فما أصبرهم على النار﴾ ففيه وجهان من المعنى، كما يقول الفراء هما:

(أ) فما الذى صبرهم على النار.

(ب) فما أجرأهم على النار[٢].

٣ – قال تعالى ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما﴾ وبنية الآية لا تمنع من أن يكون الجناح على الزوج والزوجة معا، وإنما الجناح فيما يذهب الناس على الزوج لأنه أخذ ما أعطى من مال.

ولذلك رأى الفراء أن الآية تحتمل وجهين من المعنى هما:

(أ) أن يراد الزوج دون الزوجة، وإن كانا قد ذكرا معا، ومثله فى القرآن كثير، مثل قوله تعالى ﴿ونسيا حوتهما ﴾ والناسى هو صاحب موسى وحده، ومنه فى كلام العرب أن تقول «عندى دابتان أركبهما واستقى عليهما»، وإنما تركب أحداهما وتستقى على الأخرى، ويحتمل المعنى أيضا أن تكونا جميعا تركبان ويستقى عليهما.

(ب) أن يشتركا جميعا فى ألا يكون عليهما جناح[٣].

أما المصطلح الثانى الذى يستعمله النحاة، بالإضافة إلى مصطلح اللبس للدلالة على خفاء المعنى وغموضه فهو «الإبهام»، واستعمالهم له استعمال مخصوص فى باب التمييز، وهو يدل عندهم على أن الجملة تامة من ناحية التركيب النحوى ولكنها غامضة من ناحية المعنى.

---

(١) المصدر السابق ١/١١٥.

(٢) معانى القرآن ١/١٠٣.

(٣) المصدر السابق ١/١٤٧.

قـال سيبويـه «إذا قلت (لـى مثلـه) فقد أبهمت، كما أنك إذا قلت (لى عشرون) فقد أبهمت الأنواع، فإذا قلت (درهما) فقد اختصصت نوعا وبه يعرف من أى نوع ذلك العدد فكذلك (مثله) هو مبهم يقع على أنواع، على الشجاعة والفروسية والعبيد، فإذا قال (عبداً) فقد بين من أى أنواع المثل»(١).

والغموض أو الإبهام الذى جاء فى الأمثلة السابقة التى ذكرها سيبويه من غيبة التمييز، رغم أن الجملة تامة، هو ما يشرحه ابن يعيش عندما تعرض لمصطلح «الإبهام»، يقول «أعلم أن التمييز والتفسير والتبيين واحد، والمراد رفع الإبهام وازالة اللبس، وذلك أن تخبر بخبر، أو تذكر لفظا يحتمل وجودها فيتردد المخاطب فيها فتنبهه على المراد بالنص على أحد محتملاته، تبيينا للغرض. ولذلك سمى تمييزا وتفسيراً(٢).

ويقع هذا النوع من الغموض عند النحاة فى المفرد والجملة، أما فى المفرد ففى قولك «عندى رطل» فيقع الغموض بسبب كلمة «الرطل» إذ الرطل مقدار يوزن به، ويحتمل أشياء كثيرة من الموزونات، فإذا قلت «عندى رطل عسلا» زال الإبهام وظهر المعنى.

وأما فى الجملة فيقع مثل قولك: «طاب زيد»، ورغم اكتمال ركنى الجملة من المسند والمسند إليه إلا أن المعنى غمض لأن الطيبة فى قولنا «طاب زيد» مسند إليه، والمراد شئ من أشياء تتصل به فيحتمل أن يكون لسانه أو قلبه أو نفسه أو غير ذلك، فإذا قلنا «طاب زيد نفسا» رفع الإبهام عن الجملة(٣).

والتمييز أو المفسر، كما قال الكوفيون يشبه الحال من حيث رفعه الغموض عن الفاعل أو المفعول، أو هما معا. فإذا قلت مثلا «جاء زيد» فالجملة صحيحة نحويا ولكن إذا كنت تريد أن تبين كيفية المجئ لابد أن تقول جاء زيد راكبا أو ماشيا، وبذلك تزيل الإبهام عن الكيفية التى جاء بها زيد.

والإبهام فى جملة «طاب زيد» أصرح وأوضح منه فى جملة مثل «جاء زيد» إذ أن هذه الجملة الأخيرة تؤدى معنى الإخبار بالمجئ دون الكيفية وهو ما قد يتبادر إلى ذهن السامع إذا لم يكمل المتكلم كلامه بقوله «راكبا» وبالتالى يفهم السامع أن المقصود ليس الإخبار بالمجئ وإنما بيان الكيفية أو الهيئة التى جاء عليها زيد.

(١) الكتاب ط هارون ٢/١٧٢.

(٢) شرح المفصل ٢/ ٧٠، وانظر ايضا معانى القرآن ١/ ١٥١، ٢٢٥ – ٢٢٦.

(٣) المرجع السابق ٢/ ٧٠ – ٧١.

وقد يدل هذا على قصور تصور النحاة لوظائف بعض الفضلات مثل التمييز، وذلك من حيث تمام المعنى ووضوحه. لأن مفهوم الفضلة عندهم يدل على إنها زائدة تأتى بعد تمام الكلام، وهذا غير صحيح، على الأقل بالنسبة لجملتى التمييز والحال. وكذا بالنسبة للمفعول به فى الجملة المتعدية الفعل. والملاحظ هنا أن الغموض فى جملة التمييز لم يقع نتيجة للتركيب النحوى، فالتركيب صحيح ولكنه ناقص، والركن الذى تتم به الفائدة أو وضوح المعنى هو التمييز الذى يرفع الإبهام عن الجملة. ومعنى هذا أن التمييز فى مثل هذه التركيب يعد ركنا أساسيا من أركان الجملة، وليس فضله يمكن الإستغناء عنه، كما يفهم من كلام النحاة عن الفضلات.

اللبس والإبهام إذن هما المصطلحان اللذان استعملهما النحاة للدلالة على غموض المعنى. أما اللبس فهو مصطلح عام يدل عندهم على عدم وضوح المعنى بسبب من الأسباب الآتية:

١ – التركيب النحوى ذاته من حيث احتماله لأكثر من معنى.

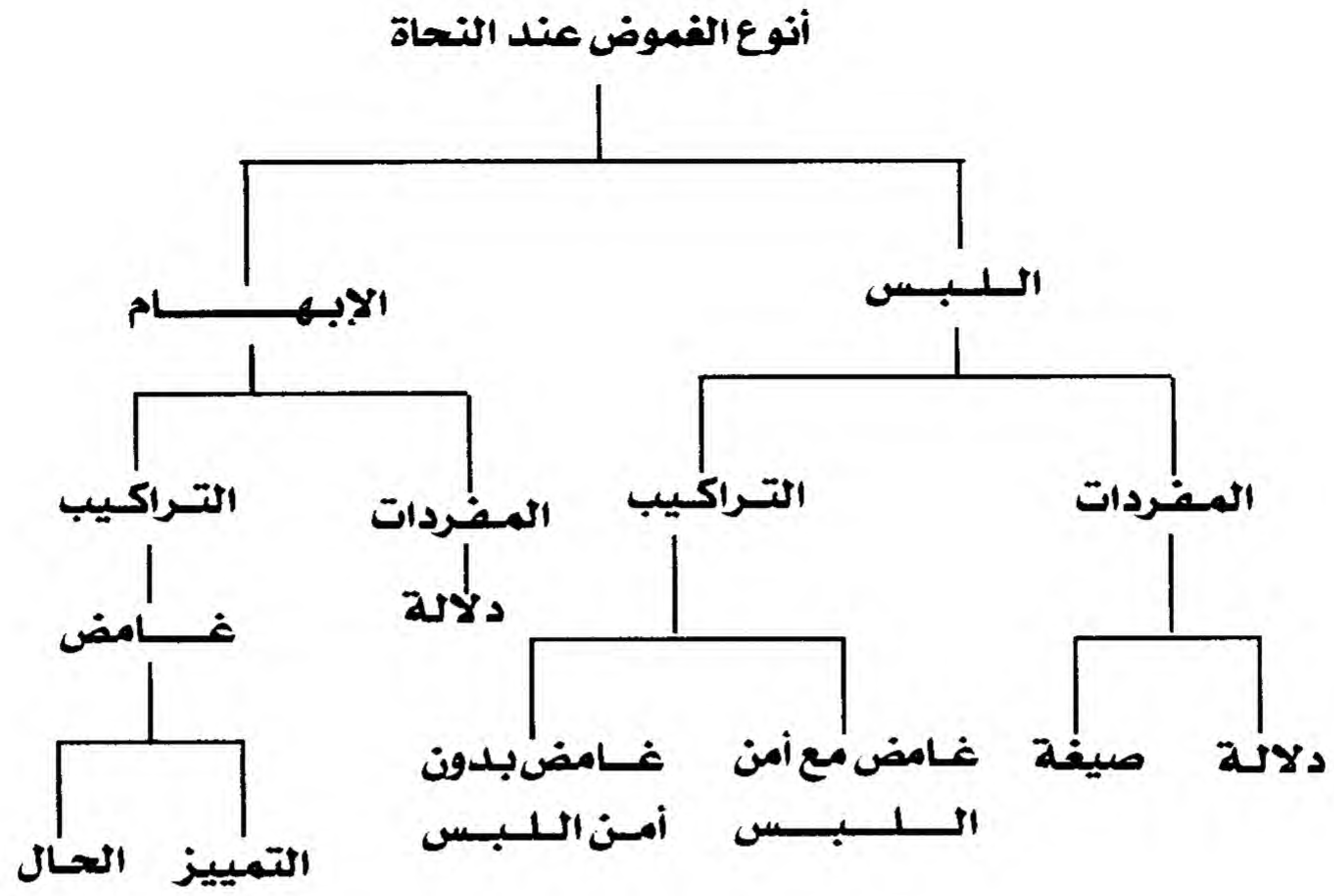
٢ – وجود كلمة فى بعض التراكيب تدل على العموم.

٣ – وجود كلمة فى التركيب تحتمل أكثر من معنى.

٤ – خروج التركيب على قاعدة أمن اللبس.

أما الإبهام فهو مصطلح خاص استعمله أكثر النحاة للدلالة على غموض المعنى فى جملة التمييز والحال وقد توصف به بعض المفردات من حيث دلالتها على عدة أشياء مثل الأوزان والمكاييل وغيرها من الكلمات التى لا يتضح المقصود منها إلا بوجود «التمييز» الذى يتضح المعنى به.

ويمكن أن نلخص أنماط الغموض ومصطلحاته عند النحاة فى الشكل الآتى:



أنوع الغموض عند النحاة
اللبس
الإبهام
المفردات
التراكيب
المفردات
التراكيب
دلالة
صيغة
غامض مع أمن اللبس
غامض بدون أمن اللبس
دلالة
غامض
التمييز
الحال

(شكل رقم ١٢)

الفصل الرابع

البلاغيون والغموض

قال الجاحظ «إن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأى شئ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان»[١]، ولذلك أجمع النقاد والبلاغيون من بعده على أن وضوح المعنى وانكشافه من أبرز المعايير التى يتفاضل بها الكلام، سواء أكان شعراً أم نثراً[٢] لأنهم كانوا يرون أن الوظيفة الأساسية للكلام هى التبليغ والإفهام ومن ثم رأوا أن عدم وضوح المعنى وانكشافه أو قرب مأخذه، كما قالوا يلغى الوظيفة الأساسية للكلام عندهم، وهى الإفهام.

ومعيار التبليغ والإفهام هو، كما قال ابن قتيبة «إفهام العوام». وليس المقصود هنا بالعوام أن يكون الكلام سوقياً مبتذلاً، أى مما تستعمله العامة فى كلامها، إنما هو، كما قال أبو هلال العسكرى المختار من الكلام الذى تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله فى محاوراتها[٣]، أى أن لفظ العوام ينصرف إلى أبناء اللغة الذين يفهوم اللغة فى أوضاعها المختلفة.

وبناء على هذا المعيار فى الوضوح أخذ النقاد والبلاغيون القدماء ينظرون فى الشعر والنثر وكان مبدأ وضوح المعنى وقرب مأخذه وانكشافه من المبادئ والمعايير الأساسية التى وجهت التفكير النقدى والبلاغى عند العرب، ولذلك وصف ابن الإعرابى الشعر الجيد البناء الواضح اللفظ والمعنى بأنه محكم[٤].

وفى مقابل معيار وضوح المعنى وانكشافه، توقف النقاد والبلاغيون بصورة لافتة

---

(١) البيان والتبيين ٧٦/١.

(٢) انظر :

١ – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٧٠/١، ١٠٩، ١٤٤، ١٧٤، ١٧٧.

٢ – الآمدى، الموازنة صفحات ١٠، ١١، ٢١، ٢٣، ٤٧، ١٢٥، ١٧٥.

٣ – أبو هلال العسكرى، كتاب الصناعتين، صفحات ١٠، ١٦، ١٩، ٢٩، ٥٣، ٥٨، ٦٣، ٦٩، ٧٣، ٨٤، ١٥٢.

٤ – المرزبانى، الموشح، ص ٥٨، ١٢٩، ١٦٢، ٣٧٠.

٥ – ابن رشيق العمدة ٩٢/١، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥٤، ٢٩٠/٢.

٦ – ابن سنان الخفاجى، سر الفصاحة ص ٥٨، ٧١، ٩٨.

(٣) الصناعتين، ص ٣٩، وانظر أيضاً، العمدة ٢١٦/١، ٢٤٧.

– الموازنة، ص ١١، والصناعتين ص ٦١ والعمدة ص ٩٢، والشعر والشعراء ١٠٩/١.

(٤) الموشح، ص ٥٦٤.

للنظر أمام ظاهرة غموض المعنى وخفاء الدلالة، فتعددت المصطلحات التى استخدموها فى وصف الغموض فى الكلام، وبخاصة فى الشعر وذلك تبعاً لمصدر الغموض وأسبابه.

ولعل الآمدى (ت ٣٧٠ هـ) من أوائل النقاد الذين استخدموا مصطلح «الغموض» فى وصفه لشعر أبى تمام فى مقابل وصفه لشعر البحترى بوضوح المعنى وانكشافه فقال، «إن بعض رواه الشعر نسبوا البحترى إلى حلاوة اللفظ، ووضع الكلام فى موضعه، مع صحة العبارة، وقرب المأتى وانكشاف المعنى، فى حين نسبوا أبا تمام إلى غموض المعانى ودقته وكثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج»[١].

وإذا كان الآمدى قد وضع مصطلح «الغموض» على ألسنة رواه الشعر فى وصفهم لشعر أبى تمام، إلا أنه لم يلبث أن كشف عن رأيه فى غموض شعر أبى تمام وتعقده فقال:

«وأبو تمام لاتكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مخطئاً أو محيلاً أو عن الغرض عادلاً أو مستعيراً استعارة قبيحة أو مفسداً للمعنى الذى يقصده بطلب الطباق والتجنيس، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد حتى لايفهم، ولا يوجد له مخرج مما لو عددناه لكان كثيراً فاحشا»[٢].

وبغض النظر عن تعصب الآمدى للبحترى وتحامله على أبى تمام، إلا أن كثيراً من النقاد والبلاغيين القدماء أقروا بوجود ظاهرة الغموض فى شعر أبى تمام[٣]، وهو ما جعل ابن الإعرابى يشارك الآمدى فى التعصب عليه لغرابة مذهب أبى تمام فى الكلام. فقد كان يرد عليه من معانى أبى تمام ما لا يفهمه ولا يعلمه، فكان إذا سئل عن شئ منها أنف أن يقول لا أدرى، فيعمد إلى الطعن على أبى تمام، ولذا حكم على شعره بقوله «إذا كان هذا شعراً فكلام العرب باطل»[٤] وكما وجد النقاد والبلاغيون القدماء غموضاً فى شعر أبى تمام وجودا ذلك أيضاً فى شعر الفرزدق والمتنبى، بل لم يسلم من نقدهم من ناحية غموض المعنى بعض كبار الشعراء من العصرين الجاهلى والإسلامى.

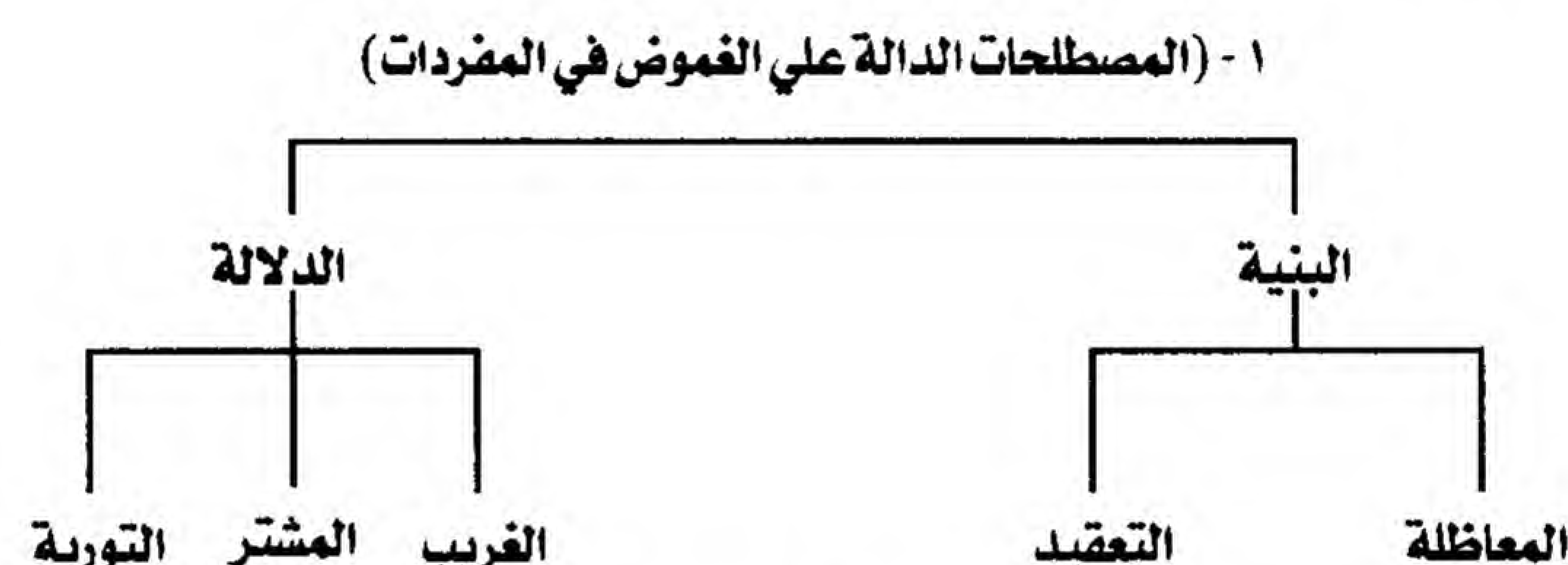
---

(١) الموازنة، ص ١١.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٨.
وانظر أيضاً ص ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٤٩ ، ١٢٥ ، ١٦٩ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢١٥.
(٣) انظر حول ذلك :
١ – الصناعتين ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ٧٢.
٢ – الموشح صفحات ٤٦٥ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ – ٤٧٦ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٩٣.
٣ – العمدة ١/١٣٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢/٢٤٧ ، ٢٦٦.
٤ – سر الفصاحة، ص ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٢ – ٧٤ ، ١٣٣.
(٤) الموازنة ، ص ٢١ ، ٢٣.

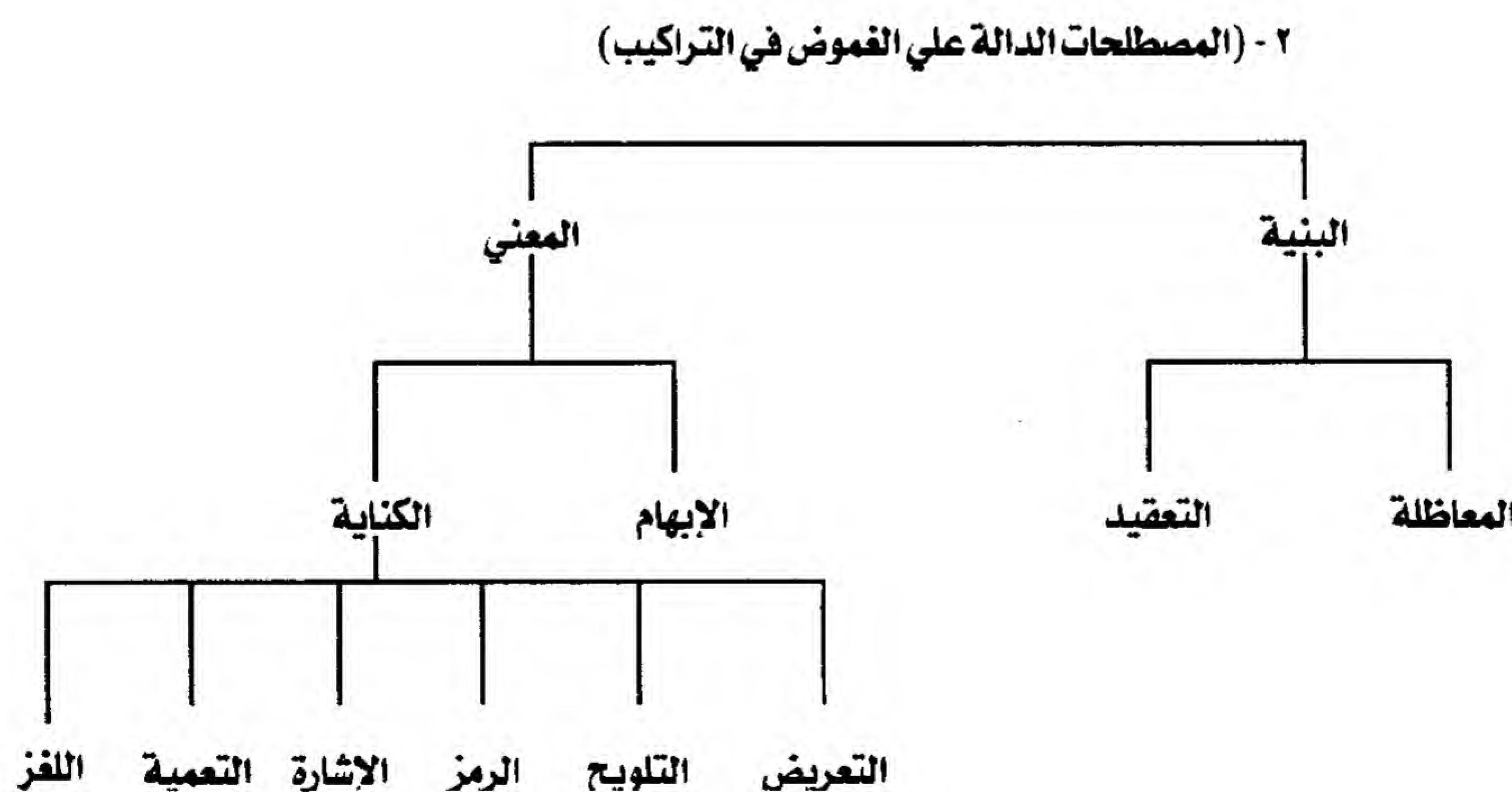
وقد تتبع البلاغيون مظاهر الغموض المختلفة بما لها من صلة بالبنية اللغوية على مستوى المفردات والتراكيب النحوية والمجازية، ووضعوا كثيراً من المصطلحات للدلالة على ذلك. وكان لنظرتهم الجزئية أثرها فى تضخم هذه المصطلحات وتعددها بل وتداخلها أحياناً. غير أننا يمكن تقسيم المصطلحات الدالة على الغموض عندهم إلى قسمين واضحين هما:

١ - مصطلحات عامة تدل على الغموض فى المعنى بسبب من بنية المفردات أو التراكيب أو الصور المجازية البعيدة مثل : المعاظلة والتعقيد والإبهام.

٢ - مصطلحات خاصة تدل على الغموض، إما بسبب من دلالة الألفاظ أو التراكيب، وذلك كما فى الشكلين الآتيين:



الشكل رقم (١٣)



الشكل رقم (١٤)

ومن الملاحظ من خلال الشكلين السابقين أن مصطلحات المعاظلة والتعقيد والإبهام تشير إلى الغموض فى المفردات والتراكيب، أى أنها من المصطلحات العامة التى تدل على الغموض فى المعنى الناتج عن تعقيد التركيب النحوى أو لاستعمال الصور الفنية المعقدة مثل المجازات والتشبيهات والإستعارات البعيدة، بصورة يصعب معها على السامع أن ينتقل من المعنى الظاهر بحسب الوضع اللغوى، إلى المعنى المقصود بطريق المجاز ومثل ذلك أيضاً فى الإبهام.

وفيما يلى سنحاول أن نقف أمام كل مصطلح من هذه المصطلحات لنرى كيف كان يدل عندهم على صورة أو نمط من أنماط الغموض فى الاستخدام اللغوى، ثم نحاول بعد ذلك استخلاص المبادئ العامة التى استندوا إليها فى دراستهم لظاهرة الغموض. وسنبدأ أولاً بالمصطلحات ذات الدلالة العامة على الغموض.

١ - المعاظلة:

وهو مصطلح، كما قلت، من المصطلحات العامة عند البلاغيين التى تدل على الغموض فى المبنى أو المعنى أو فيهما معاً، ويبدو أن أول من استخدم هذا المصطلح هو عمر بن الخطاب فى وصفه لشعر زهير ابن أبى سلمى حين قال «كان لا يعاظل بين القول ولا يتبع حوشى الكلام»[(١)].

وقد اختلف البلاغيون والنقاد حول مفهوم هذا المصطلح ودلالته[(٢)] وأصل معناه اللغوى من قولهم، تعاظلت الكلاب والجراد إذا ركب بعضها بعضاً. أما المعنى الإصطلاحى فهو عند بعضهم يدل على الغموض الناشئ من تعقد المبنى وحده أو المعنى وحده، أو هما معاً. ويدل عند فريق آخر على الغموض الناشئ من المفردات ذات البنية المتنافرة صوتياً، أو المفردات الغريبة الحوشية كما قال عمر، التى لايسهل على السامع أو القارئ معرفةدلالتها.

وعند فريق آخر يدل على الغموض الناشئ من الإستعارات أو التشبيهات البعيدة. والسبب فى الاختلاف حول تحديد المصطلح ودلاته على هذا النحو يتصل بتصور

---

(١) الشعر والشعراء، ١/١٤٤ ، وانظر أيضاً :
١ - الموازنة، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .
٢ - الصناعتين ، ص ١٧٩ - ١٨١ .
٣ - العمدة ١/٩٨ ، ٢٦١ ، ٢/٢٦٤ - ٢٦٥.
٤ - سر الفصاحة، ص ١٥٧ - ١٥٨ .
(٢) المصادر السابقة نفس الصفحات.

بعض النقاد والبلاغيين فى الفصل بين المبنى والمعنى، أو بين الدلالة واللفظ، فيما عرف عندهم بقضية اللفظ والمعنى، فبعضهم كان يتصور للمعنى وجوداً مستقلاً بعيداً عن المبنى، ولذلك اختلفوا حول تفاضل الكلام، هل هو بسبب اللفظ أم بسبب المعنى. فكان منهم فريق يؤثر اللفظ على المعنى، ومنهم من كان يؤثر المعنى على اللفظ(١).

غير أننا نستطيع أن نحدد دلالة هذا المصطلح من خلال استخدامهم له بأنه يدل على غموض المعنى من ناحيتين هما:

أولاً - المفردات:

وذلك حين يستخدم الكاتب أو الشاعر بعض المفردات الغريبة الدلالة أو المهجورة الإستعمال والتى يغيب معناها عن القارئ أو السامع، ولا يعرفها إلا العالم المبرز. وقد يشيرون به أحياناً إلى التكلف أو التعقيد، ولكنه بشكل عام ينصرف حين يستخدمونه لوصف المفردات الغريبة البعيدة الدلالة، مثال ذلك قول أبى تمام:

١ - كان في الأجفلي وفي النقري عر فك نضر العموم نضر الوجاد

يقال دعاهم «الجفلى» إذا دعاهم كلهم فأجفلوا، أى جاءوا معاً. ويقال دعاهم «النقرى» إذا دعاهم واحداً واحداً.

٢ - تعرو بأسفله ربولا غضة وتقيل أعلاه كناسا فولفا

والبيت يصف فيه أبو تمام ظبية، والربول جمع ربل، وفولفا أى ملتفة.

٣ - وقد سد مندوحة القصعاء منهم وأمسك بالنافقاء

والقصعاء جحر اليربوع الأول الذى يدخل منه، والنافقاء موضع يرققه من جحره، فإذا أتى من قبل القصعاء ضرب النافقاء ففتحه.

٤ - إذا الثلج في حر الهجير لم يذب من الصن والصنبر ذابت فوائده

الصن أول أيام العجوز، وهى أيام يشتد فيها البرد، والصنبر اليوم الثانى.

٥ - قدك اتئب أربيت في الغلواء كم تعذلون وأنتم سجرائي

أتأب، خزى واستحيا، والغلواء، المبالغة، والسجير الأنيس.

٦ - مستسلم لله سائس أمة بذوي تجهضمنا له استسلام

(١) العمدة ١/١٢٤ - ١٢٨.

يقال تجهضم الفحل إذا علا أقرانه.

قال المرزبانى، وهذه الألفاظ من الغريب المصدود عنه وليس يحسن استعمالها، كما قال أيضاً، «وهذا كلام غريب مستكره من البدوى فكيف إذا جاء من ابن قرية متأدب». وقال ابن سنان الخفاجى، «وهذه الألفاظ وحشية غريبة لايعرفها الأصمعى»(١) وقال ابن رشيق، «اللفظة الخشنة المستغربة التى لايعلمها إلا العالم المبرز والإعرابى القح، فتلك وحشية. وكذلك إن وقعت غير موقعها، وأتى بها مع ما ينافرها ولا يلائم شكلها، وكان أبو تمام يأتى بالوحشى الخشن كثيراً ويتكلف(٢).

والأبيات بلا شك صعبة الفهم غامضة المعنى بسبب هذه المفردات. وهو ما يؤكده علم اللغة النفسى psycholinguistics ، حيث تشكل صعوبة المفردات وعدم انكشاف دلالتها للسامع أو القارئ عقبة تؤثر فى فهم الجمل والتراكيب، وتؤدى إلى غموض المعنى. فإذا تساوت جملتان مثلاً فى جميع العوامل من حيث طبيعة التركيب والطول، واختلفت فى أن إحداهما اشتملت، دون الأخرى على كلمة أو عدة كلمات غير شائعة فإنها تكون أصعب فى الفهم من الجملة الأخرى.

فجملة مثل«طفق يبحث عن الماء» أصعب من جملة مثل «أخذ يبحث عن الماء» أو «أخذ يفتش عن الماء» وقد قارن بعض الباحثين فى علم اللغة النفسى الوقت الذى تستغرقه الجملة التى تحتوى على مفردات شائعة فوجد أن الوقت الذى تستغرقه الجملة التى تحتوى على مفردات صعبة أطول من الجملة الأخرى التى لاتحتوى على مثل هذه المفردات(٣).

ثانياً - التراكيب:

حيث نجد أن مصطلح المعاظلة أكثر استقراراً فى الدلالة على التنافر الصوتى والتركيب النحوى المعقد. وفيما يلى سنقف عند هذين الجانبين من جوانب المعاظلة.

١ - **البنية الصوتية**: وهى تتصل بجانبين أيضاً هما :

(أ) تكرار صوت مفرد «فونيم phoneme» بصورة تصرف السامع أو القارئ عن إدراك المعنى وتتبعه.

---

(١) الموشح، ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٨٠.

وانظر أيضاً : سر الفصاحة ص ٦٦ - ٧١.

(٢) العمدة ٢/٢٦٤ - ٢٦٦.

(٣) د. داود عبده، دراسات فى علم اللغة النفسى ص ٢٨.

(ب) تكرار صيغة صرفية «مورفيم morpheme» بنفس الكيفية السابقة مثال الأول قول بعض الشعراء :

١ - وقـبـر حـرب بمكان قـفـر وليس قرب قبر حرب قبر [(١)]

فتكرار كل من فونيم القاف وفونيم الراء بصورة متتابعة فى شطرى البيت وهما يكونان معاً سلسلة صوتية تقوم على التجانس لا الاختلاف تؤدى إلى صرف انتباه السامع عن متابعة المعنى خاصة إذا قرئ البيت، فيضطر القارئ إلى تكرار عدة فونيمات تبلغ خمسة فونيمات للقاف، ومثلها للراء، مما يؤدى إلى ثقل النطق وصعوبته، بالإضافة إلى انصراف الذهن عن المعنى.

قال أبو تمام :

٢ - خان الصفاء أخ خان الزمان أخا عنه فلم يتخون جسمه الكمد [(٢)]

٣ - وإن بجيرية بانت جـأرت لهـا إلي ذري جلدي فاستؤهل الجلد [(٣)]

فجاء بفونيم الجيم فى «بجيرية» وكرره فى جأرت، وجلدى والجلد. قال الآمدى وهذه الألفاظ، وإن كانت معروفة مستعملة، إلا أنها لما اجتمعت ثقلت.

٤ - إلي خالد راحت بنا أرجبية مرافقها من عن كراركرها نكب [(٤)]

فقوله من «عن كراركرها نكب» يثقل النطق بتكرار فونيم الراء بالإضافة إلى فونيم الكاف وهو يؤدى إلى عدم تتابع المعنى وصرف انتباه السامع عن فهم الكلام.

أما النوع الثانى، وهو تكرار الصيغة الصرفية الواحدة فيتمثل فى قول المتنبى:

أقل أنل اقطع احمل عل سل أعد زد هش بش تفضل أدن سر صل [(٥)]

فكلمات البيت كلها، كما نرى، جاءت على صيغة الأمر، وتشابهت الصيغ فى بعض الأفعال تشابهاً يؤدى إلى الغموض مثل «أقل، أنل»، «اقطع، احمل» و «عل، سل» «هش، بش» وتكرار الصيغ على هذا النحو يخفى اختلاف دلالات الكلمات التى جاءت عليها ويبرز الدلالة الوظيفية للصيغة وحدها، وهى دلالة الأمر فتختفى الفروق الدلالية بين

---

(١) العمدة ١/٢٦١.

(٢) الموازنة ،ص ٢٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦٥.

(٤) د. بدوى، طبانة، معجم البلاغة العربية ٢/٥٥٢.

(٥) المرجع السابق ٢/٥٥٣.

الكلمات، مما يجعل القارئ أو السامع يشعر كأنه يكرر معنى واحداً. ومن ثم يستحيل عليه إدراك المعنى أو فهمه. ومثل هذا أو قريب منه قول أبى تمام:

يوم أفاض جوي أغاض تعزيا خاض الهوي تجري حجاه المزيد(١)

فجعل اليوم أفاض جوى، والجوى أغاض تعزياً، والتعزى موصولاً بخاض الهوى، وهذا غاية ما يكون من التعقيد والاستكراه، كما يقول الآمدى. ولعل السبب فى هذا التعقيد هو رغبة أبى تمام فى استغلال الجناس بين «أفاض وأغاض» و «جوى وهوى» وهو جناس يقوم على اتفاق الوزن والفونيمات، أى على الصيغة الصرفية والأصوات بما فيها الحركات أيضاً، مما أدى إلى نوع من الثقل فى النطق لاتحاد مخرج الضاد فى أفاض وأغاض، والواو فى هوى وجوى. وهو أيضاً مما يشتت ذهن السامع عن إدراك المعنى.

٢ - **البنية النحوية:** وهى السبب الثانى من أسباب المعاظلة، كما أشار إليها القدماء، وتؤدى إلى غموض المعنى نتيجة لنظم الكلام أو تركيبه تركيباً نحوياً مخالفاً للنمط السائد فى نظام الجملة، وبخاصة فى ناحيتين هما :

(أ) التقديم والتأخير مثل تقديم الصفة على الموصوف أو الصلة على الموصول أو الفصل بينهما.

(ب) تتابع الإضافات.

وفيما يتصل بالتقديم والتأخير يضرب البلاغيون المثل ببيت أصبح علماً على ذلك وهو بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقارب(٢)

قال ابن سنان، ففى هذا البيت من التقديم والتأخير ما قد أحال معناه وأفسد إعرابه(٣).

والبيت من قصيدة يمدح بها الفرزدق إبراهيم بن إسماعيل بن هشام المخزومى وهو

---

(١) الموازنة ص ٢٦١ ، وانظر أيضاً الموشح ص ١٥٢ ، ١٦١ .
(٢) الموازنة ص ٢٦١ ، وانظر أيضاً :
١ - الصناعتين ص ١٨٠.
٢ - الموشح ص ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٨٧ ، ١١٧ ، ٣٥٦.
٣ - العمدة ٢/٩٦.
٤ - سر الفصاحة ص ١١١.
(٣) ابن سنان ص ١١١.

وجد من يشبهه فلا بد أن يكون ملكاً كهشام. فنظم الفرزدق هذا المعنى في عدة جمل متداخلة، اضطربت فيها عودة الضمائر.

وقد حاول الرمانى النحوى أن يحدد أسباب الغموض والتعقيد فى هذا البيت، فحصرها فى أربعة أشياء هى:

١ – التغيير عن الأغلب، ويتمثل فى سوء ترتيب الجملة، إذ الأصل فى البيت وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكاً أبو أمه أبوه.

٢ – التقديم والتأخير.

٣ – سلوك الطريق الأبعد، فقوله «أبو أمه أبوه» كان يجزيه أن يقول خاله.

٤ – الإشتراك، فقوله «حى يقاربه» تحتمل كلمة حى فيه معنى الحياة والقبلية(١).

ومثل ذلك أيضاً قول الفرزدق :

فليست خراسان التي كان خالد بها أسدا إذ كان سيفا أميرها(٢)

والبيت غامض لأنه يحتمل أكثر من معنى نتيجة للتقديم والتأخير، وتداخل الجمل، واحتمال كلمة أسد للتشبيه والعلمية.

ويمكن أن نحلل البيت إلى المعانى الآتية:

١ – خالد فى خراسان (والياً عليها).

٢ – أسد فى خراسان (والياً عليها أيضاً).

٣ – سيف أمير خراسان الآن.

٤ – خراسان التى كان فيها خالد وأسد، وسيف أمير عليها الآن، ليست كما كانت فى عهد خالد وأسد.

أو يحتمل أن يكون المعنى على النحو التالى:

١ – خالد الذى يشبه الأسد كان والياً على خراسان.

٢ – سيف أمير خراسان.

٣ – خراسان التى كان فيها خالد والياً يشبه الأسد شجاعة أفضل من خراسان التى أميرها سيف الآن.

---

(١) العمدة ٢/٢٦٦ – ٢٦٧ وانظر أيضاً الفصل السادس من هذا البحث.

(٢) سر الفصاحة ص ١١٢.

ويحتمل البيت معنى ثالثاً إذا كان الشاعر يريد أن يمدح خالداً ويذم سيفا، وذلك على النحو التالى:

١ - خالد الذى يشبه السيف فى عدله مثلاً أمير خراسان.

٢ - أسد كان أميراً على خراسان.

٣ - خراسان التى كان فيها خالد أميراً عادلاً كالسيف ليست كخراسان التى يتولى أمرها أسد.

ومثل ذلك قوله أيضاً :

إلي ملك مـــا أمــــه من مــحـــارب   أبوه، ولا كـــانت كليب تصـــارهره

وهو يريد، إلى ملك أبوه ليست أمه من محارب. فالضمير فى «أمه» يرجع إلى الأب وفى «أبوه» يرجع إلى الملك. واضطراب عودة الضمير هو سبب الغموض فى البيت.

ومثل ذلك أيضاً قول المتنبى :

أنّـا يـكـون أبـا الـبــــــريـة آدم   وأبوك والثـقـلان أنت مـحـمـد

والغموض يقع فى الشطرة الثانية من البيت، وهو يريد أن يقول ، كيف يكون آدم أبا البرية وأبوك محمد أنت والثقلان، وهو يقصد أن الممدوح قد جمع ما فى الخليقة من الفضل والكمال ولكنه فصل بين المبتدأ والخبر، وهما أبوك محمد، وقدم الخبر على المبتدأ فى قوله، الثقلان أنت، والوجه أن يقول، أنت الثقلان. وأدى ذلك إلى تحول الخبر إلى مبتدأ والمبتدأ إلى خبر.

أما من حيث تتابع الإضافات، وهى صورة أخرى من صور المعاظلة التى تؤدى إلى غموض المعنى مثل «هذا سرج فرس غلام زيد» وهى جملة كثرت فيها الإضافات وتتابعت حتى يعسر على الذهن تتبعها. وهذه الجملة يمكن أن تنحل إلى جملتين هما:

١ - هذا سرج فرس.

٢ - سرج الفرس لغلام زيد.

ومن ذلك قول ابن بابك :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعي   فـأنت بمـرأي من سعـاد ومسـمع[1]

---

(١) معجم البلاغة ٢/ ٥٥٤.

فأضاف حمامة إلى جرعا، ثم أضاف جرعا إلى حومة، ثم أضاف حومة إلى الجندل. ومن الواضح أن كثرة الإضافات على هذا النحو تفصل بين مكونات الجملة الأساسية مما يخالف توقعات القارئ أو السامع، ويؤدى إلى صعوبة فهم المعنى.

وهكذا نجد أن مصطلح المعاظلة عندهم مصطلح يتصل بمستويات أو أنواع متعددة من الغموض، سواء بسبب استخدام بعض المفردات الغريبة أو الوحشية، وكانوا يستعملون مصطلح التكلف أو الغرابة للدلالة على ذلك بجوار المعاظلة. كما كانوا يستخدمون المصطلح نفسه فى الدلالة على التنافر الصوتى وتعقد التركيب النحوى. وهى الدلالة التى استقر عليها المصطلح بحيث ينصرف عند أكثرهم إلى التنافر الصوتى وتعقد التركيب النحوى. أى أن الغموض يحدث بسبب المعاظلة على المستويات الصوتية والدلالية والنحوية.

٢ - التعقيد:

وهو المصطلح الثانى من المصطلحات العامة عند البلاغيين والتى يستعملونها للدلالة على الغموض، ومرادفاً أحياناً لمصطلح المعاظلة(١). وقد سوى أبو هلال العسكرى بين التعقيد والإغلاق والتقعير فقال، إن التعقيد والإغلاق والتقعير سواء. وهو استعمال الوحشى وشدة تعلق الكلام بعضه ببعض حتى يستبهم المعنى(٢).

والمصطلح يدل، كما قلت على غموض المعنى وخفائه سواء فى المفردات أو التراكيب. أما فى المفردات فبسبب استخدام الكلمات الغريبة الوحشية المهجورة. وأما فى التراكيب فهو، كما قال ابن سنان الخفاجى «ألا يكون فى الكلام تقديم وتأخير يؤدى إلى فساد معناه واعرابه، أو سلوك الضرورات القبيحة حتى يفصل فيه ما يقبح فصله فى لغة العرب، كالصلة والموصول وما أشبههما»(٣). ثم مثل لذلك كله ببيت الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

قائلاً، وفى هذا البيت من التقديم والتأخير ما قد أحال معناه وأفسد اعرابه. وهو بهذا يسوى بين التعقيد والمعاظلة.

غير أن بعض النقاد والبلاغيين ينصرف عندهم مصطلح التعقيد إلى استخدام الصور

---

(١) الصناعتين ص ١٨١.

(٢) المصدر السابق ص ٥٦.

(٣) سر الفصاحة ص ١١١.

وانظر أيضاً، الموشح ص ١٥٢، ١٦٢، ١٦٥، ١٨٧، ١٩٢، ٣٥٦.

الفنية المعقدة كالمجازات والإستعارات والتشبيهات البعيدة التى يصعب على السامع أو القارئ أن ينتقل من المعنى المفهوم الظاهر بحسب الوضع إلى المعنى المقصود بطريق المجاز. وقد يستخدم بعض البلاغيين مصطلح «التعقيد المعنوى» للدلالة أحياناً على هذا اللون من الغموض فى الصور الفنية لكى يفرقوا به بين التعقيد بسبب التركيب النحوى والتعقيد بسبب المجاز(١).

والحقيقة أن الأصل فى هذا اللون من الغموض سواء أكان بسبب التشبيه أو الإستعارة أو غيرها هو الإستعمال المجازى للكلام. ويحدث ذلك، كما قال الرومانى «بتعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل»(٢)، أى أن الأصل فى ذلك هو التركيب اللغوى الذى يؤدى بجانب العلاقات النحوية علاقات من نوع آخر مجازية تقضى انتقال ذهن السامع أو القارئ من الدلالات الوضعية إلى دلالات أخرى مجازية. فإذا تم هذا الإنتقال حكم على التشبيه أو الإستعارة بالوضوح، وإذا لم يتم حكم عليها بالغموض، والمعيار فى ذلك هو طريقة العرب والشعراء منهم خاصة فى بناء مثل هذه الإستعمالات المجازية.

وبناء على ذلك حكم النقاد والبلاغيون على بعض الاستعمالات بالوضوح إذا وافقت طريقة العرب فى الكلام مما يسهل عملية الانتقال من المعنى الحقيقى إلى المعنى المجازى. فى حين حكموا على بعضها بالتعقيد والغموض لعدم موافقتها لاستعمالات العرب، مما يؤدى إلى صعوبة الإنتقال.

وقد حاول ابن رشيق أن يحدد وظيفة الاستعمالات المجازية بما لها من صلة بالوضوح والغموض فقال، إن التشبيه والإستعارة جميعاً يخرجان الأغمض إلى الأوضح. ثم قسم التشبيه إلى ضربين : تشبيه حسن وتشبيه قبيح. أما التشبيه الحسن فهو الذى يخرج الأغمض إلى الأوضح بزيادة ميفيده بياناً. أما التشبيه القبيح فما كان على خلاف ذلك. فما تقع عليه الحاسة أوضح مما لاتقع عليه. والمشاهد أوضح من الغائب. وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه عن غيره. والقريب أوضح من البعيد. وما قد ألف أوضح مما لم يؤلف(٣).

وقال ابن سنان الخفاجى ما يشبه كلام ابن رشيق حين قسم الإستعارة إلى ضربين : قريب مختار، وبعيد مطرح. فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى

(١) العمدة ٢/ ٥٦٠ - ٥٦١.

(٢) سر الفصاحة، ص ١١٨.

(٣) العمدة ١/ ٢٨٧.

وشبه واضح، والبعيد المطرح إما أن يكون لبعده مما استعير له فى الأصل، أو لأجل أنه استعاره مبنية على استعارة أخرى فتضعف لذلك. والقسمان معاً يصفهما بالبعد[١].

وبناء على ذلك كانت الاستعمالات المجازية التى ألفوها فى الشعر العربى أوضح وأقرب عندهم من غيرها مما لم يألفوه، ولذلك نسبوا إلى أبى تمام غموض المعانى ودقتها وكثرة ما يورد مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخرج. يقول الآمدى «وأبو تمام شديد التكلف صاحب صنعة ومستكره الألفاظ والمعانى، وشعره لايشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعانى المولدة»[٢]. كما قال أيضاً «إن كثيراً ما أتى به من المعانى لايعرف ولا يعلم غرضه منها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل. ومنه ما لايعرف معناه إلا بالظن والحدس»[٣]، وقال عنه المرزبانى إنه كان يطلب البديع فيخرج إلى المحال[٤].

ووصف البحترى أبا تمام بقوله :

أهل المعاني المستحيلة إن هم   طلبوا البراعة بالكلام المقفل[٥]

وهم يقصدون بذلك كله تعقد الصور الفنية عند أبى تمام وغموض معناها، مما يؤدى إلى صعوبة انتقال الذهن من المعنى الحقيقى إلى المعنى المجازى. وفى مقابل ذلك وصفوا البحترى بأنه يتجنب التعقيد ومستكره الكلام[٦]. ومعنى هذا أن استعمالات البحترى كانت أقرب إلى طريقة العرب فى المجاز، فى حين أن أبا تمام قد أتى باستعمالات مجازية لم يألفها العرب أو إذا شئنا الدقة قلنا، لم يألفها النقاد والبلاغيون لأنهم لم يجدوا مثلها شائعاً عند شعراء العربية الذين يحتج بكلامهم. ومن ثم أخذوا عليه قوله:

رقيق حواشي الحلم، لو أن حلمه   بكفيك ما ماريت في أنه برد

قال أبو هلال العسكرى «وما وصف أحد من الجاهلية ولا أهل الإسلام الحلم بالرقة. وإنما يصفونه بالرجحان والرزانة»[٧].

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٠.

(٢) الموازنة ص ١١ ، ١٨٨ – ١٨٩ ، وانظر أيضاً الصناعتين ص ٣٩ – ٤٠ ، ٤٥.

(٣) المصدر السابق ،ص ١٢٥.

(٤) الموشح ، ص ٤٦٥.

(٥) الموازنة، ص ٤٩.

(٦) المرجع السابق، ص ١١.

(٧) الصناعتين ،ص ١٣٥.

والبيت كما هو ظاهر واضح لا غموض فيه إلا أنه خالف طريقة العرب فى الاستعمال المجازى حين وصف الحلم بأنه رقيق الحواشي. وبناء على ذلك أخذوا عليه وصف العطايا بالجنون والفؤاد بالمشيب، وقوله «ماء الملام» و «غض الإباء» و «غش النوال» و «غض الرأى» و «لبس الزمان الصوفا». وغير ذلك كثير[1].

وتتبع ابن سنان الخفاجي استعمال أبي تمام لكلمة «الأخدعان» وهما عرقان فى صفحتى العنق، فى مثل قوله :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد ... أضججت هذا الأنام من خرقك

وقوله :

فضربت الشتاء في أخدعيه ... ضربة غادرته عودا ركوبا

وقوله :

سأشكر فرجة اللبب الرخي ... ولين أخادع الدهر الأبي

فرأى أن أخادع الدهر والشتاء من أقبح الاستعارات وأبعدها فيما استعيرت له. واتهم ابن سنان الخفاجى أبا تمام بأنه لايعرف الوجه الذى لأجله جعل للشتاء والدهر «أخادع» ورأى أن هذا من سوء توفيقه فى بعض المواضع[2]. ولا أظن أن أبا تمام كان لايعرف الوجه الذى جعله يرى للشتاء والدهر أخادع، وإنما النقاد والبلاغيون هم الذين لم يألفوا هذا الوجه من الإستعارة الذى خرج فيه عن حد الاستعمال والعادة، كما قالوا[3].

ومن ثم حكموا على هذه الاستعمالات وما يشبهها عند أبي تمام وغيره من الشعراء بالتعقيد والغرابة والغموض لأنهم لم يألفوها.

من هذا يمكن القول بأن مصطلح التعقيد كان يدل بشكل عام على غموض المعنى بسبب من الألفاظ والتراكيب، مثله فى ذلك مثل مصطلح المعاظلة، ولكنه من ناحية أخرى ، أو بوجه خاص انصرف إلى الدلالة على الغموض فى الاستعمال المجازى.

٣ - الإبهام:

وهو المصطلح الثالث من المصطلحات العامة التى تدل على غموض المعنى. ويقال

---

(١) الموشح، صفحات ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٨ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ .

(٢) سر الفصاحة، ص ١٢٦ .

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٧ .

له المبهم والمستبهم والمستغلق، وهو من الكلام الغامض الذى لايفهم. وعده الآمدى من الغموض الناتج عن سوء العبارة والتعقيد، فلا يفهم الكلام ولا يوجد له مخرج(١) ومن ثم رأى فى قول أبى تمام :

وقفنا فقلنا بعد أن أفرد الثري ... به ما يقال في السحابة تقلع

رأى فى قوله «مايقال فى السحابة تقلع» إيهاماً لأن أبا تمام لم يفصح بالثناء على السحابة، إذ قد يقال فى السحابة إذا أقلعت ما هو غير المدح والثناء، إذا نزلت فى غير حينها وفى غير وقت الحاجة إليها، وكثيراً ما يضر المطر إذا كانت هذه حاله. وأبو تمام إذا كان لم يرد هذا المعنى، فقد أراد المعنى الآخر فقصر فى العبارة فأصبحت تحتمل معنى المديح وغيره(٢). وإلى مثل ذلك ذهب أبو هلال العسكرى فى مفهوم مصطلح الإبهام وقال، إن ما يستبهم من الكلام فهو الذى لايعرف معناه إلا بالتوهم مثل قول أبى تمام فى وصف الخمر :

جهمية الأوصاف إلا أنهم ... قد لقبوها جوهر الأشياء

فرأى فى قول أبى تمام «جهمية الأوصاف» كلاماً مبهماً لأن لجهم مذاهب كثيرة وآراء مختلفة متشعبة. فلم يدل فحوى كلام أبى تمام على شئ منها يصلح أن تشبه به الخمر وتنسب إليه إلا أن يتوهم المتوهم فيقول، إنما أراد كذا وكذا من مذاهب جهم من غير أن يدل الكلام على شئ بعينه. وكذلك رأى فى قوله «قد لقبوها جوهر الأشياء» معنى غامضاً لايعرف إلا بالتوهم. ومن ثم عد أبو هلال ذلك كله ومثله فى لغة أبى تمام من الإشتراك أحياناً والتعقيد والإغلاق والتقعير والإبهام أحياناً أخرى(٣).

والإشتراك عند كثير من البلاغيين يختلف عن الإبهام لأن الإشتراك كما سنرى، لا يقع إلا فى اللفظة المفردة التى لها معنيان لايعلم أيهما أراد المتكلم، وأما الإبهام فلا يكون إلا فى الجمل والتراكيب. وقد يشير بعض البلاغيين بهذا المصطلح إلى أن المتكلم يقول كلاماً يحتمل معنيين لايتميز أحدهما عن الآخر(٤). وخصه صفى الدين الحلى (ت٧٥٠هـ) بالمعانى المتضادة وقال، إن الإبهام هو عبارة عن أن يقول المتكلم كلاماً

---

(١) الموازنة، ص ٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٥.

(٣) الصناعتين ص ٤٤، ٤٥، ٥٦، ٨١.

(٤) معجم البلاغة العربية، ١١٢/١.

يحتمل معنيين متضادين لايتميز أحدهما عن الآخر، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز، بل يقصد إبهام الأمر فيهما قصداً [١].

ومعنى هذا أن الإبهام قد يكون غير مقصود، كما وقع في شعر بعض الشعراء ممن مثلنا لهم من قبل. وقد يكون مقصوداً كما في قول القائل في خياط أعور اسمه عمرو :

خاط لي عمرو قباء ليت عينيه سواء

فالمعنى يحتمل تساوى عينيه في العمى، أو تساويهما في الإبصار، ومثل ذلك أيضاً قول بعض الشعراء يهنيء الحسن بن سهل بزواج ابنته بوران من الخليفة المأمون:

بارك الله في الحسن ولبوران في الختن

يا إمام الهدي ظفر ت، ولكن ببنت من

فلم يدر أحد معنى قوله «ببنت من» هل يقصد في العظمة والرفعة، أم في السفالة والدناءة[٢]. ومعنى هذا أن مصطلح الإبهام يتصل بغموض المعنى وإبهامه نتيجة للاستعمال المجازى أحياناً أو لحذف ما يظهر به المعنى. ولكنه بصورة عامة يتصل بغموض المعنى بسبب من البنية والتركيب أكثر منه بسبب المفردات.

٤ - الغريب:

وهو مصطلح يتصل بدلالة المفردات، ويدل عندهم على أن دلالة الكلمة غير واضحة المعنى، ولا مأنوسة الاستعمال، وهو ما لا حظه ابن سنان الخفاجي فقال، إن غرابة الألفاظ لا تدل على المقصود لأن الألفاظ مبنية على الكشف الواضح موضوعه للبيان الظاهر، والغرض بها السلامة من الغامض، فكيف يوقع في غامض مثله[٣].

وتختلف دلالة مصطلح الغريب عند البلاغيين والنقاد عنها عند أصحاب غريب القرآن، فأصحاب غريب القرآن، كما رأينا من قبل، يستخدمون هذا المصطلح للدلالة على الكلمات القرآنية التي تحتاج إلى شرح وتفسير لجهل بعض الناس بمعناها. أما البلاغيون فيخصون بهذا المصطلح الكلمات التي لايعرف معناها، أو التي لا يعرف معناه إلا بالبحث والتنقيب في بطون الكتب أو عند رواة اللغة، أو في شعر الحجاج وابنه رؤبة، كما قالوا .

---

(١) شرح الكافية البديعية، ص ٨٩.

(٢) معجم البلاغة العربية ١/١١٣ - ١١٤ .

(٣) سر الفصاحة، ص ٥٩.

فمن ذلك قول جرير :

وضع الخزير فقيل أين مجاشع فشحا جحافله جراف هبلع

و «شحا» يعنى فتح، و «الجحافل» جمع جحفلة وهى الشفة العليا، وهى فى الأصل لغير الإنسان. و «الجراف» الأكول، و «الهبلع» الواسع الحنجور، ومثل ذلك قول بعضهم .. «غربا جرورا وجلالا خزخز».

«الغرب» الدلو العظيمة و «الجلال» البعير العظيم و «الخزخز» القوى الشديد.

وقال آخر يصف اللبن:

وآخذ طعم السقاء سامط وخائر عجالط عكالط

السقاء نوع من الجلد يكون للماء واللبن، والسامط اللبن تذهب حلاوته، والعجالط والكالط، اللبن الخاثر.

ومن هذا أيضاً قول محمد بن مناذر : « ومن عاداك لاقى المرمريسا».

ولم يعرف أبو العتاهية معنى كلمة «المرمريس» وقال، أى شئ المرمريس(١).

ومن الواضح أن هذه الأبيات غامضة حتى بعد أن نعرف دلالة الكلمات لغرابتها وقلة استعمالها. كما أخذوا على جرير استعماله لكلمة «بوزع» أما أبو تمام فقد أخذوا عليه الكثير من استخداماته لمثل هذه الكلمات مثل (حبيناء) ، و (دردبيس) ، و (كهيل) التى لم يعرف الأصمعى معناها. كما أخذوا أيضاً على البحترى استخدامه لكلمات : (عقرقس) ، و (جؤشوش) . وعلى المتنبى كلمة (الجرشى) ولم ينج من نقدهم بسبب استعمال مثل هذه الكلمات بعض فحول الشعراء مثل زهير الذى أخذوا عليه استعماله لكلمة (الحقلد) ، وعنتره لاستعماله كلمة (الدحرضين) . والأمثلة على ذلك كثيرة(٢) .

والملاحظ أن هذه الكلمات وأمثالها، كما قلت، تشيع الغموض فى الكلام، رغم وجودها فى سياق قد يساعد على كشف معناها، ولكنها غالباً ما تبقى على غموضها الذى ينتقل منها إلى بقية الكلام فيغمض، وهو ما لاحظه ابن سنان الخفاجى فقال «إن كانت الفصاحة عندك بالألفاظ التى يتعذر فهمها فقد عدلت عن الأصل المقصود أولاً بالفصاحة التى هى البيان والظهور. ووجب عندك أن يكون الأخرس أفصح من المتكلم

(١) سر الفصاحة، ص ٦٧ – ٦٨.

(٢) المصدر السابق صفحات ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠.

لأن الفهم من إشاراته بعيد عسير وكأنك تقول كلما كان أغمض وأخفى كان أبلغ وأفصح[1].

ووصل أبو هلال العسكرى بين استعمال هذا اللون من الكلمات الغامضة الغريبة وبين المقام أو السياق الذى يقال فيه الكلام فأخذ على بعض علماء اللغة ورواتها التزامهم بمثل هذا الكلام الغامض الغريب فى كل مقام. ومثل ذلك بقول أحدهم يوماً لحجامة:

«اشدد قصب الملازم، وارهف ظبأة المشارط وأمر المسح، واستنجل الرشح وخفف الوطء وعجل النزع ولا تكرهن أبيا ولا تمنعن أتيا، فلم يفهم الحجام شيئاً بطبيعة الحال وقال للرجل : «ليس لى علم بالحروب»[2].

ويندرج عندهم تحت هذا اللون من الكلمات الغريبة الاستعمال، استخدام مصطلحات العلوم مثل الطب والهندسة وغيرها فى الكلام مع غير المتخصص أو فى السياق الذى لا يلائم مثل هذه المصطلحات[3]. ويؤكد أبو هلال العسكرى تعارض هذا النوع من الاستخدام اللغوى دون مراعاة المقام والسياق مما يخل بمبدأ الإفهام فيقول «وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب تقسيم طبقات الكلام على طبقات الناس فيخاطب السوقى بكلام السوقة والبدوى بكلام البدو ولايتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب[4].

ومعنى هذا أن الغموض كما يحدث نتيجة للكلمات الغريبة المبهمة الدلالة، إلا أنه يحدث أيضاً نتيجة لعدم مراعاة المقام الذى يقال فيه الكلام، أو بعبارة أخرى، عدم مراعاة السياق الإجتماعى للكلام، وتنوع الخطاب بتنوع الطبقات الإجتماعية

٥ - المشترك:

وهو مصطلح يتصل بدلالة الألفاظ المفردة، ويدل عند البلاغيين كدلالته عند الأصوليين واللغويين أى على وقوع الغموض فى الكلام بسبب احتمال الكلمة لأكثر من معنى. ويحدد أبو هلال العسكرى دلالة المصطلح بقوله «هو الألفاظ التى لا تدل على المعنى خاصة، بل تشترك معه فيها معان أخر فلا يعرف السامع أيها أراد. وربما استبهم الكلام فى نوع من هذا الجنس حتى لايوقف على معناه إلا بالتوهم[5].

---

(١) المصدر السابق، ص ٧١.

(٢) الصناعتين ص ٣٧.

(٣) انظر أمثلة على ذلك فى المصدر السابق، ص ٣٩، وانظر أيضاً سر الفصاحة ص ١٦٤.

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٢ ، ٤٣.

ويقسم ابن رشيق الإشتراك إلى أنواع منها ما يكون فى اللفظ، ومنها ما يكون فى المعنى. أما الذى فى اللفظ فثلاثة أنواع:

١ - أن يكون اللفظان راجعين إلى جذور لغوى واحد وهو التجنيس، وهو عنده من الإشتراك المحمود، مثال ذلك قول زياد الأعجم يرثى المغيرة بن المهلب:

فانع المغيرة للمغيرة إذ بدت　　　شعواء مشعلة كنبح النابح

فالمغيرة الأولى اسم الرجل، والثانية للفرس ، وهو ثانى الخيل التى تغير[١] .

ومنه أيضاً قول ذى الرمة:

أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة　　　قليل بها الأصوات إلا بغامها

فكلمة البلدة الأولى بمعنى صدر الناقة، والثانية بمعنى المكان من الأرض[٢] .

غير أننا نلاحظ أن هذا النوع المحمود من الاشتراك، كما قال ابن رشيق، قد يقع به الغموض أحياناً عندما لايدرى السامع أى المعنيين المقصود. مثال ذلك استخدام الفرزدق لكلمة «حى» فى بيته المشهور «وما مثله فى الناس إلا مملكاً» حيث نجد أن هذه الكلمة تحتمل القبيلة وتحتمل الحى، من الحياة. وهذا هو الإشتراك الذى ذمه البلاغيون لعدم وجود قرينة تحدد أى الدلالتين المقصود. أما المحمود فكما رأينا فى بعض الأمثلة السابقة هو الذى يحتوى على قرينة ترفع الإشتراك، مثل قول كثير :

لعمري لقد حَبَّبْتِ كل قصيرة　　　إليَّ وما تدري بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد　　　قصار الخطا، شر النساء البحاتر[٣]

والبيت الثانى هو شرح للبيت الأول، أى بمثابة قرينة ترفع الغموض الذى قد يقع فى المعنى نتيجة للاشتراك فى كلمة «قصير».

وقد يدل مصطلح الإشتراك على سائر الألفاظ المبتذلة التى يتكلم بها الناس إذ هى من المشترك بينهم، ولا أحد أولى بها من الآخر. والإشتراك هنا ليس فى الدلالة ولكن فى الاستخدام. ومن الملاحظ أن ابن رشيق يحدد هذه الأنواع من المشترك اللفظى طبقاً للمبنى. أما المعنى فالأمر فيه مختلف. واللغويون والأصوليون كما رأينا من قبل لم يلتفتوا إلى المبنى بقدر التفاتهم إلى المعنى. إذ أن التعدد فى المعنى هو الأهم لأن الإشتراك عند

---

(١) العمدة ١/٣٢١.

(٢) المصدر السابق ١/٣٢١ - ٣٢٢.

(٣) المصدر السابق ١/٩٦ - ٩٧.

ابن رشيق يتمثل فى التعبير عن المعنى الواحد بعبارات مختلفة، أو كمال قال، «أن يشترك المعنيان وتختلف العبارة عنهما فيتباعد اللفظان»، وهذا لايقع به الغموض(١). أما الإشتراك الذى يقع به الغموض فهو الذى يتصل بالمعنى أو بعبارة أخرى، هو الذى يتصل بالنوعين الأول والثانى، كما حددهما ابن رشيق. ويحدث عندما تحتمل الكلمة أكثر من معنى دون قرينة تحدد المقصود.

ومع ذلك فقد يقع الإشتراك فى الجملة كما يقع فى اللفظ، نتيجة لاحتمالها أكثر من معنى مثال ذلك قول أبى تمام:

وقمنا فقلنا بعد أن أفرد الثري ... به ما يقال في السحابة تقلع(٢)

فقوله، «فى السحابة تقلع» عبارة غامضة لأن أقوال الناس فيها تختلف وتتعدد على وجوه كثيرة فقد تكون الأقوال مدحاً أو ذماً، إذ منهم من يحب إقلاع السحاب ومنهم من يكرهه.

ومعنى هذا أن الإشتراك قد يقع فى المفرد والجملة، وهو فى المفرد أكثر شيوعاً واستخداماً ومن مظاهره أيضاً الاستغلال الفنى له فى الجناس التام(٣) والقرينة، سواء من السياق اللغوى أو المقامى هى التى ترفع الغموض وتوضح المعنى عندما يقع الإشتراك.

٦ - التورية:

وهى من المصطلحات التى تتصل بالغموض الذى يقع باللفظة المفردة دون التركيب، وتدل على تعدد المعنى، أما عن طريق الوضع والحقيقة، وإما عن طريق المجاز. وقد عرفها بعض البلاغيين بقولهم أن يذكر المتكلم لفظاً منفرداً له معنيان حقيقيان أو حقيقة ومجاز، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويورى عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك(٤).

وعدها صفى الدين الحلى (ت ٧٥٠ هـ) من قبيل الإشتراك اللفظى وحدها بقوله «هو أن يأتى المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين أحدهما قريب والآخر بعيد، فيذكر لفظاً يوهم بالقريب إلى أن يجئ بقرينة يظهر بها أن مراده البعيد»(٥).

---

(١) العمدة، ٢/٩٨ - ٩٩. وانظر أيضاً الفصل الثالث من هذا البحث.

(٢) الصناعتين ص ٤٣ - ٤٤.

(٣) صفى الدين الحلى، شرح الكافية البديعية ص ٦٤.

(٤) معجم البلاغة العربية ٢/٩١٨.

(٥) شرح الكافية البديعية ص ١٣٥.

وبناء على قرب المعنى أو بعده يقسم بعض الباحثين التورية إلى قسمين:

١ - التورية المجردة : وهى التى لا تجامع شيئاً مما يلائم المعنى القريب كقوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فللإستواء معنيان أحدهما الاستقرار فى المكان، وهو المعنى القريب المورى به الذى هو غير مقصود، لأن الله تعالى منزه عن ذلك، والثانى معنى الإستيلاء والملك، وهو المعنى البعيد المقصود الذى ورى عنه بالقريب المذكور.

٢ - التورية المرشحة : وهى التى قرن بها ما يلائم المورى به كقوله تعالى ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ أى بقوة. فاليد هنا القدرة والقوة، وهو المعنى البعيد، وقد قرنت بالبناء الذى يناسب المعنى القريب، وهو الجارحة(١).

ويعد ابن رشيق التورية قسماً من أقسام الإشارة التى هى بدورها قسم من أقسام الكناية كما سنرى فيما بعد. وخص التورية فى أشعار العرب باستخدام شجرة أو شاة أو بيضة أو ناقة فى الكناية عن المعنى. مثال ذلك قول المثيب بن علس:

دعا شجر الأرض داعيهم ... لينصره السدر والأثأب

فكنى بالشجر عن الناس. ويقولون فى الكلام المنثور، جاء فلان بالشوك والشجر إذا جاء بجيش عظيم(٢).

ومن البلاغيين من يرى أن التورية تقع باللفظ دون التركيب، فى حين أن الكناية قد تقع بالمفرد والتركيب معاً. وعلى هذا الأساس يفرقون بينهم. وفى جميع الأحوال فإن غموض المعنى يقع بالتورية، كما يقع بالكناية. فإذا قال شاعر مثلاً :

حملناهم طرا على الدهم بعدما ... خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

فالمعنى القريب لكلمة «الدهم»، وهو أول ما يتبادر إلى ذهن السامع هو الخيول السود وليس هذا مراد الشاعر، وإنما هو يريد المعنى البعيد، أى القيود من الحديد. ولكن السياق اللغوى يساعد غالباً على هذا الغموض فى التورية. فقول الشاعر حملناهم يرجح المعنى القريب أى الخيول السود، مما يوقع فى الغموض.

٧ - الكناية:

المعنى الأصلى لمادة «ك ن و» يدل على الخفاء وعدم التصريح. يقال كنى عن

(١) معجم البلاغة العربية ٩١٩/٢.

(٢) العمدة ٣١١/١.

الشئ يكنى إذا لم يصرح به. قال أبو هلال العسكرى، الكناية أن يكنى عن الشئ ويعرض به ولا يصرح، حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشئ[1].

أما المعنى الاصطلاحى فهو يتصل بالدلالة اللغوية اتصالاً وثيقاً، ومع ذلك فله عند البلاغيين والنقاد تعريفات متعددة، ولكنها تتفق جميعاً فى الدلالة على خفاء المعنى، أو التعبير عنه بطريق غير مباشر. فمن هذه التعريفات:

١ – الكناية هى ترك التصريح بالشئ إلى مساويه فى اللزوم لينتقل منه إلى الملزوم.

٢ – اللفظ الدال على الشئ بغير الوضع الحقيقى.

٣ – اللفظ الذى يحتمل الدلالة على معنى وخلافه. وهذا التعريف يدخل الكناية مع المشترك اللفظى والمجاز.

٤ – كل لفظ دل على معنى يجوز حمله على الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز.

٥ – ترك التصريح بذكر الشئ إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك[2].

وأما من حيث درجة وضوح المعنى أو غموضه فقد قسم البلاغيون الكناية إلى قسمين : قريبة وبعيدة.

أما القريبة فهى أن يتفق فى صفة من الصفات اختصاص بموصوف معين عارض، فتذكرها متوصلاً بها إلى ذلك الموصوف. مثال ذلك تقول : «جاء المضياف» وأنت تريد شخصاً بعينه أو أن تقول : «فلان طويل النجاد» تريد أن تقول أنه طويل القامة. وفى هذه الأمثلة وغيرها ينتقل الذهن إلى المعنى المقصود من أقرب لوازمه.

وأما البعيدة فهى أن تنتقل إلى المعنى من لازم بعيد أو بواسطة لوازم متسلسلة تنتهى إلى المعنى المقصود، كأن تقول مثلاً : «فلان كثير الرماد» فينتقل الذهن من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر، إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور، ومن كثرة إحراق الحطب إلى كثرة الطهى ومن كثرة الطهى إلى كثرة الأكلة، ومن كثرة الأكلة إلى كثرة الضيفان لتنتهى إلى أن الموصوف بهذا مضياف[3].

وربط ابن سنان الخفاجى بين الكناية والفصاحة فاشترط وقوعها فى الموضع الذى

(١) الصناعتين ص ٤٠٧.

(٢) معجم البلاغة العربية ٢/٧٦٥ – ٧٦٦.

(٣) المصدر السابق ٢/٧٦٨ – ٧٦٩.

لايحسن فيه التصريح[1]. ورأى فى قول امرئ القيس :

فصرنا إلي الحسني ورق كلامنا　　　ورضيت فذلت صعبة أي إذلال

رأى فى البيت كله كناية لطيفة مستحسنة بأحسن ما يكون من العبارات عن المباضعة. فى حين عبر المتنبى عن العفة بأقبح العبارات فى قوله:

إني، علي شغفي بما في خمارها　　　لأعف عما في سراويلاتها[2]

وقد تقع الكناية باللفظة المفردة، أو بالجملة والتركيب. فمثال وقوعها بالمفرد قوله تعالى : ﴿إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة﴾ فكنى بالنعجة عن المرأة. وقول النبى ﷺ «رفقاً بالقوارير» فكنى عن النساء بلفظ القوارير لضعفهن ورقتهن أما وقوعها فى الجملة أو التركيب فكما مثلنا من قبل.

ومن الملاحظ أن الكنايات من أغمض أنواع الكلام، وخاصة تلك التى تخرج فى صورة المثل أو العبارة الاصطلاحية Idiom [3] الذى لاينبئنا لفظها عن المعنى المقصود إلا من خلال السياق الحضارى والإجتماعى والثقافى للأمة المتكلمة باللغة التى تدور فيها مثل هذه العبارات الإصطلاحية، أو الأمثال. ولهذا السبب من الصعب نقل بعض الكنايات أو العبارات المصكوكة أو الأمثال من لغة إلى لغة أخرى بالترجمة. فمثلاً يقولون فى اللغة الإنجليزية:

It was raining cats and dogs .[4]

كناية عن شدة سقوط المطر وغزارته. وهو يشبه الكنايات البعيدة فى اللغة العربية ولايمكن ترجمته أو نقله حرفياً إلى أية لغة أخرى. فلو ترجمناه مثلاً إلى اللغة العربية بقولنا «كانت السماء تمطر قططاً وكلاباً» لفقد معناه والمقصود منه. ومثل ذلك لو ترجمنا إلى اللغة الانجليزية إحدى كنايات العربية، مثل قولنا «فلان عريض القفا» كناية عن بلاهته وغبائه، أو «فلان جبان الكلب» كناية عن كثرة الأضياف والكرم، ومثل ذلك «فلان كثير الرماد» . وكل ذلك يدل على مدى ارتباط الكنايات باللغة التى تصاغ منها وبالمجتمع الذى يتكلم هذه اللغة كما ترتبط بحضارة الأمة وثقافتها.

وتتفاوت الكناية من حيث درجة الغموض والوضوح إلى درجات متعددة، حاول

---

(١) سر الفصاحة، ص ١٦٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٣، ١٦٥.

(3) Crystal and Davy , op. cit., p. 18, p. 114, 121.

(٤) التعريف بعلم اللغة ص ١٣١.

بعض البلاغيين ترتيبها من حيث خفاء الدلالة على المعنى أو ظهوره. ويمكن أن نقسم هذه الدرجات طبقاً للمصطلحات الآتية، الأوضح فالأغمض:

(أ) التعريض : وهو أن يكنى المتكلم عن الشئ ويعرض ولا يصرح. وقد يدلون على ذلك بمصطلح اللحن. ليأخذه السامع لنفسه ويعلم المقصود منه[١]. كمن يقول لإنسان «ما أقبح البخل» ومراده أنك بخيل. وغالباً ما يكشف السياق عن معنى التعريض وبناء على ذلك حدد بعض البلاغيين معنى التعريض بقولهم «هو ما أشير به إلى غير المعنى بدلالة السياق[٢]. أى أن يحيط المتكلم كلامه بغموض ظاهر، ولكن المعنى يفهم من السياق والقرائن.

ولا يقع التعريض بسبب من المفردات كما تقع الكناية أحياناً. وإنما يقع دائماً بالتراكيب وهو ما يفرق لغوياً بين التعريض والكناية.

(ب) التلويح : وهو من أنواع الكنايات التى تكثر فيها الوسائط بين اللازم والملزوم كما فى قولنا «فلان كثير الرماد»، ومنه قول النابغة:

تقاعس حتي قلت ليس بمنقض ... وليس الذي يرعي النجوم بآيب

فقوله «الذى يرعى النجوم» يريد به الصبح، أقامه مقام الراعى الذى يغدو بالإبل والماشية صباحاً، ويعود بها مع المساء. ومثل ذلك قول مجنون ليلى:

لقد كنت أعلو حب ليلي فلم يزل ... بي النقض والإبرام حتي علانيا

فلوح بالصحة والسقم واشتهاره فى حب ليلى بالبيت كله[٣].

(جـ) الرمز : وهو أيضاً ما خفى من الكلام، وأصله الصوت الخفى، الذى لايكاد يفهم، أوالإشارة، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿رب اجعل لى آية، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾ ويستعمل المتكلم الرمز فى كلامه عادة فيما يريد إخفاءه عن الناس أو عن بعض السامعين وهو الذى تقل فيه الوسائط أو تنعدم مع خفاء المعنى وغموضه[٤] وهو فى الأدب الحديث والمعاصر سمة من سماته وخصيصة من خصائصه، سواء فى الشعر أو النثر. فقد تقوم القصيدة على الرمز وكذا العمل الأدبى، حيث يرمز بالأسماء

---

(١) شرح الكافية البديعية، ص ٢٥٠.

(٢) معجم البلاغة العربية ٥٢٩/١.

(٣) العمدة ٣٠٥/١.

(٤) المصدر السابق ٣٠٥/١ ، وانظر أيضاً معجم البلاغة العربية ٣٢٢/١.

والشخصيات التاريخية إلى واقع معاصر، إما عن خشية من السلطة، أو إمعاناً فى إثارة القارئ وتحريك ملكاته العقلية، وإشراكه فى العمل الأدبى.

وقد استخدمت الصوفية الرمز على نطاق واسع، وقد شعر المستشرق دوزى Dozy بشدة غموض الرمز ودلالته فى ألفاظ الصوفية عندما يتحدثون عن الذكر والحمد والوجد والعشق والأنس والخمر والمقام، وغيرها من الكلمات الصوفية فأحجم عن وضعها فى معجمه لصعوبة شرحها وغموض معناها(١).

وصنيع الغزالى فى كتابه مشكاة الأنوار يلقى الضوء على استعمال الرمز للدلالة على المعانى الخفية ففى الفصل الثانى من هذا الكتاب يشرح ألفاظ : المشكاة، والمصباح، والزجاجة، والشجرة، والزيت والنار، فى قوله تعالى : ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار﴾ على أنها رموز تشير إلى دلالات مستترة، ولذلك يمهد لهذا الشرح بمبحثين فى طبيعة الرموز، أو «سر التمثيل» كما أسماه، ورأى فى هذه الكلمات السبع رموزاً للأرواح البشرية(٢).

ولكن البلاغيين لم ينظروا إلى الرمز هذه النظرة الكلية الشاملة، وإنما نظروا إليه كعادتهم نظرة جزئية مقصورة على ما جاء منها فى الشعر العربى مما يدق به المعنى ويغمض (٣).

(د) الإشارة : وهى عند بعض البلاغيين قد تختلط بالرمز والتعريض والتلويح والإيماء وقد يخصونها بالجارحة كما يفهم من كلام الجاحظ إذ يعدها من أصناف الدلالات التى تكشف عن قناع المعنى فقال : «فأما الإشارة فباليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان ... وفى الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة فى أمور يسترها بعض الناس عن بعض ويخفونها عن الجليس وغير الجليس(٤).

ولكنها عند كثير من البلاغيين ترتبط بالتعبير اللغوى، أو كما يقولون، التعبير باللفظ القليل عن المعانى الكثيرة، أو هى أن يكون اللفظ مشاراً به إلى معان كثيرة بإيماء إليها أو بلمحة دالة عليها(٥).

---

(1) Dozy, supplement, aux, dictionnaires arabes, p. 5.

(٢) الغزالى، مشكاة الأنوار، ص ٦٥، وانظر أيضاً مقدمة محقق الكتاب.

(٣) العمدة ١/٣٠٥ – ٣٠٦.

(٤) البيان والتبيين ١/٧٧ – ٧٨.

(٥) الصناعتين ، ص ٣٨٣ ، وانظر أيضاً العمدة ١/٣٠٢، وشرح الكافية البديعية ص ١٦٠.

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ وقوله ﴿وغيض الماء﴾ وقوله أيضاً ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ وكلها إشارات إلى أشياء أو معان تفوق الحصر والتحديد ، ويفهم منها السامع أو القارئ معاني كثيرة لاتكشف عنها البنية اللغوية . فمن ذلك قول زهير :

فاني لو لقيتك واتجهنا   لكان لكل منكرة كفاء

فأشار بهذا إلى قبح ما سيصنعه بالمخاطب لو لقيه . ومنه أيضاً قول بعض الشعراء فى القصاص من قاتل :

جعلنا السيف بين الخد منه   وبين سواد لمته عذارا

يريد أنهم ضربوا عنق القاتل فأشار إلى ذلك ودل على كيفية القتل. ومن أنواع الإشارة أيضاً ما يغمض فيه المعنى ولكنه يدل بالتكرار على التفخيم والتهويل كقوله تعالى : ﴿القارعة ما القارعة﴾.

ولعلنا قد لاحظنا أن البنية اللغوية فى الإشارة قد لا تكون سبباً فى خفاء المعنى وغموضه، ولكن تعتمد الإشارة على ما يرتبط بالبنية اللغوية من دلالات.

(هـ) التعمية : وهى من أشد الكنايات غموضاً، وقد يشير بعض البلاغيين إلى هذا اللون من الكلام بمصطلحات أخرى مثل المعمى والعويص واللغز والمحاجاة والمرموس والكناية والتعريض وكلها تدل عندهم على صورة من صور خفاء المعنى وغموضه.

ويبدو أن هذا المصطلح كان يدل أولاً على الكلام غير المفهوم الذى يقع مصادفة فى لغة الكاتب أو الشاعر أو المتكلم. ثم تحول إلى فن مقصود فيه ضرب من الألغاز، ويقع فى اللغة المنطوقة والمكتوبة على السواء. ويقال أن الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) هو أول من حوله إلى فن ونظر فيه ثم استمر من بعده أمثلة متفرقة لا تفرض بالتدوين. وأشار الجاحظ إلى وقوعه عن غير قصد فقال «إن كيسان مستملى أبى عبيدة كان يسمع خلاف ما يقال ويكتب خلاف ما يسمع، ويقرأ خلاف ما يكتب». وذكر الثعالبى شيئاً منه، ومثل له بأمثلة متفرقة، ومازال ذلك أمره حتى وقع إلى الأعاجم فدونوه واستنبطوا قواعده وأنزلوه فى رتبة بين العلوم والفنون(١).

والمُعمى كلام يدل فى ظاهره على معنى غير المعنى المقصود، أى أن له معنى ظاهراً يتبادر إلى الذهن، ومعنى خفياً هو المقصود، وحده البلاغيون بقولهم «قول

---

(١) معجم البلاغة العربية، ٢/٥٧٩ – ٥٨٠.

يستخــرج منه كلمــة فأكثر بطريق الرمز والإيماء بحيث يقبله الذوق السليم ويشترط فيه أن يكون له فى نفسه معنى وراء المعنى المقصود بالتعمية(١).

والفرق بينه وبين اللغز أن الكلام إذا دل على اسم شئ من الأشياء بذكر صفات له تميزه عما عداه كان ذلك لغزاً، أما إذا دل على اسم خاص من حيث هو لفظ له دلالة يرمز إليها سمى ذلك المعمى. أى أن الكلام الدال على بعض الأسماء أو الأشياء يكون معمى من حيث إن مدلوله اسم من الأسماء قد يرمز له بالحروف التى تتجمع فتكون ذلك الأسم. وغالباً ما ينصب اللغز على الصفات التى يصل القارئ أو السامع عن طريق ملاحظتها إلى المقصود. مثال ذلك قول القائل:

يا أيهــا العطار اعــرب لنا ... عن اسم شئ قل في ســومكا

تنظره بالعــين في يقظة ... كمــا تري بالقلب في نومكا

والمقصود هنا نبات الكمون. وهذا المثال يصلح لأن يكون لغزاً بملاحظة دلالته على صفات نبات الكمون. ويصلح أن يكون تعمية باعتبار دلالته على مقلوب اسمه فى قوله «نومك».

(و) اللغز: وهو أيضاً من أخفى الكلام وأشده غموضاً. وقد يسمى التعمية، كما أشرنا من قبل. والغموض فيه مقصود لذاته مثل التعمية أيضاً، وعرفه ابن رشيق بقوله «هو أن يكون للكلام ظاهر عجب لايمكن، وباطن ممكن غير عجب» كقول ذى الرمة يصف عين الإنسان:

وأصغر من قعب الوليد ترى به ... بيوتا مبناة وأودية قفرا(٢)

والأشياء التى أصغر من قعب الوليد كثيرة، وقد يتوهم السامع فى قوله «به» معنى فيه فلا يدرى المقصود من الكلام.

وعد ابن سنان الخفاجى اللغز فناً ومذهباً فى الكلام خارجاً عن حدود الفصاحة للغموض المقصود فيه فقال، إن الكلام الموضوع على وجه الألغاز قد قصد به قائله إغماض المعنى وإخفائه وجعل ذلك فناً من الفنون التى يستخرج بها أفهام الناس وتمتحن أذهانهم. فلما كان وضعه على خلاف وضع الكلام، رأى ابن سنان فيه مخالفة لمفــهوم الفصاحة، لأنه يحسن فيه ما كان ظاهره يدل على التناقض أو ما جرى مجرى ذلك(٣).

---

(١) المرجع السابق، ٢/ ٥٨٠.

(٢) العمدة ١/ ٣٠٧.

(٣) سر الفصاحة، ص ٢٢٦.

ومع ذلك فقد تحول الغموض المقصود إلى فن يتداوله بعض الأدباء والشعراء. وقد وصف صفى الدين الحلى هذا الفن بما له من صلة باللغة المنطوقة والمكتوبة فقال :

«هو أن يجئ المتكلم بعدة أوصاف فى ألفاظ مشتركة من غير ذكر الموصوف ويشير بها إلى مقصود مجهول أو باسم حروفه قابلة للتغير أو التوجيه، فإذا أراد كشف الاسم الموصوف نبه عليه بتصحيف شئ من حروف الهجاء أو تبديلها بنقص أو زيادة أو بأى وجه من غير هذه الوجوه»(١).

والأمثلة على هذا اللون من الكلام الغامض أكثر من أن تحصى. فقد وقع فى الكلام العادى وفى شعر الشعراء وكتابة الكتاب، كما كان أبو العلاء المعرى يستحسن هذا الفن ويستعمله فى شعره كثيراً يعتمد فيه غالباً على الإشتراك اللفظى. مثال ذلك قوله :

إذا صدق الجد افترى العم الفتي   مكارم لا تكري وإن كذب الخال

فكلمة «الجد» يريد بها الحظ لا أبا الوالد، وقصد بالعم الجماعة من الناس وبالخال المخيلة(٢). وقد يعتمد اللغز بجانب اعتماده على الإشتراك اللفظى على الوصف أيضاً، وخاصة فى توجيه السامع لفهم الكلام فهماً غير المقصود. وهذا النوع يعتمد على الحدس والتخمين، بغض النظر عن دلالة اللفظ، فمن ذلك قول بعض الشعراء فى خيمة :

ومضروبة من غير ذنب أتت به   إذا ما هدي الله الأنام أظلت(٣)

والشاعر هنا يعتمد على ذكر الصفات، كما يستغل الإشتراك اللفظى، فقوله «مضروبة» يحتمل معنى الضرب من الإيلام، ومعنى ضرب الخيمة أى إقامتها. ومن اللغز أيضاً قول أحد الشعراء فى اسم عثمان:

حروفه معدودة خمسة   إذا مضي حرف تبقي ثمان(٤)

وهذا اللون لا يعتمد على الإشتراك اللفظى أو المجاز، أو حتى الحقيقة لأنها خارج عن ذلك كله، إذ يسعى إلى اختبار حدة ذهن السامع وقدرته على الحدس.

من ذلك نجد أن مصطلح الكناية تندرجة تحته ألوان من غموض الكلام تختلف من حيث الدرجة وطريقة الصياغة. وغالباً ما تقع فى التراكيب دون المفردات. وقد يعتمد التركيب على الإشتراك اللفظى لإيقاع الغموض فى المعنى، ويرتفع الغموض أحياناً

---

(١) شرح الكافية البديعية، ص ١١٢.
(٢) سر الفصاحة، ص ٢٢٧.
(٣) شرح الكافية البديعية، ص ١١٢.
(٤) المصدر السابق، ص ٢١٣.

بدلالة السياق والقرائن الحالية أو المقالية فى مثل التعريض والتلويح والرمز والإشارة. ومنها ما لا يفهم إلا بالحدس والتخمين مثل التعمية واللغز.

على هذا النحو درس البلاغيون والنقاد ظاهرة الغموض فى المعنى وصوره المختلفة بما لها من صلة بالمبنى، سواء على مستوى المفردات أو التراكيب. وقد حاولوا حصر ظواهر الغموض وصوره من خلال مصطلحات عديدة اختلطت وتداخلت أحياناً ربما لتعدد صور الغموض، أو ربما لأنهم نظروا إلى هذه الظاهرة من خلال أمثلة جزئية. ولكننا نستطيع من خلال معالجة البلاغيين والنقاد لظاهرة الغموض، أن القول إن مفهوم الغموض ينصرف عندهم إلى تعدد المعنى أو غموضه وخفائه على السامع أو القارئ بسبب من الأسباب الآتية:

١ – البنية الصوتية للكلمة والكلام.

٢ – تعدد دلالة اللفظ المفرد.

٣ – التركيب النحوى للكلام من حيث احتماله لأكثر من معنى أو مخالفته لقواعد النظم.

٤ – الصور الفنية كالتشبيه والإستعارة من حيث بعدها عن المألوف فى كلام العرب.

وهى، كما ترى عين الأسباب التى عزا إليها المحدثون من علماء اللغة والأسلوب وقوع الغموض فى الكلام فيما أشرنا إليه فى التمهيد لهذا البحث.

الفصل الخامس

الغموض بين النطق والكتابة

الأصل فى اللغة أن تكون منطوقة لا مكتوبة، دائرة على الألسنة، أو مسجلة فى بطون الكتب. وقد ظلت اللغات الإنسانية ردحاً طويلاً من الزمن لا تعرف الكتابة، حتى أن بعض اللغات عاشت وتطورت، ثم اندثرت قبل اختراع الكتابة، فضاعت، مثل اللغة السامية الأم وبعض اللغات القديمة، والكتابة فى أبسط تعريف لها عبارة عن رموز مرئية للأصوات اللغوية المسموعة. بينما الكلام المنطوق عبارة عن موجات صوتية تصل إلى الأذن يتعارف عليها أبناء مجتمع واحد أو عدة مجتمعات ذات أصل واحد، ولغة مشتركة والكتابة التى نتحدث عنها هى الكتابة التى ترتبط فيها الوحدة الخطيةGrapheme بوحدة صوتية أو فونيم Phoneme، على اعتبار أنها التعبير الرمزى لها. ومنذ أن أصبحت الدراسة اللغوية دراسة علمية موضوعية قائمة على دراسة اللغة المنطوقة Spoken Language وجد علماء اللغة أن هناك فرقا بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة Written Language تتمثل فى أشياء تفتقر اليها اللغة المكتوبة وتعين السامع على ادراك المعنى وفهم الدلالة مثل النبر Stress والتنغيم Intonation ودرجة علو الصوت Loudness وسرعة الكلام Speed(١).

ففى اللغات التى تستخدم هذه الملامح الصوتية أو مايسمى بالفونيم غير التركيبى Suprasegmental Phoneme(٢) مثل اللغة الإنجليزية، حيث يستطيع المتكلم أن يرفع الغموض عن الكلام بايقاع هذه الملامح الصوتية فى موقعها الصحيح ، أو أغماض الكلام بوضعها فى غير مواضعها، إلا أن اللغة المكتوبة نتيجة لاختفاء هذه الملامح تكون أكثر عرضه للغموض وخفاء المعنى، بالإضافة إلى ما قد يعرتيها من التصحيف والتحريف ، وهو سبب هام من أسباب غموض المعنى فى اللغة المكتوبة كما سنرى.

وقد اهتم علماء العربية القدماء بالنطق والكتابة بما لهما من صلة بخفاء المعنى وغموضه فأما من الناحية النطقية فقد رأينا طرفاً من ذلك فيما أشرنا إليه من قبل عن علاقة البنية الصوتية بغموض المعنى عند البلاغيين، وسنرى ى هذا الفصل من البحث أمثلة أخرى ولكن بعض العلماء مثل الجاحظ، اهتموا بظاهرة التداخل الصوتى -Interfer ance أو نقل الأصوات Transfer وصلتها بخفاء المعنى، وخاصة فيما وقع على ألسنة

---

(١) حول علاقة هذه الملامح الصوتية بوضوح المعنى أو غموضه، انظر على سبيل المثال:
- Crystal Davy, op. cit., pp. 24 - 30.
- Turner , op. cit., 70, p. 87.

(٢) - Hartmann and stork, op. cit., p. 227.

بعض ا لعرب، وكثير من الأعاجم والمولدين، وأدى ذلك إلى تغير دلالة الكلام أو غموضه. كما اهتم بعض البلاغين بالبنية الصوتية للكلام وصلتها بوضوح المعنى وغموضه. وكان أكثرهم اهتماماً بذلك ابن سنان الخفاجى الذى قدم فى كتابه سر الفصاحة دراسة علمية منهجية عن علاقة البنية الصوتية بوضوح الكلام أو غموضه.

أما من ناحية الكتابة وعلاقتها بالغموض فقد أشار بعض البلاغيين إلى ذلك إشارات واضحة فيما أسموه بالجناس المصحف(١). غير أن حمزة ابن على الأصفهانى (ت ٣٦٠هـ)، قدم دراسة قيمة فى كتابه «التنبيه على حدوث التصحيف» عن صلة التحريف والتصحيف بغموض اللغة المكتوبة وفى هذا الفصل من البحث سنبدأ بدراسة ملاحظات الجاحظ حول تداخل الأصوات ونقلها وصلة ذلك بغموض المعنى. وقد درس الجاحظ هاتين الظاهرتين، أعنى، التداخل ونقل الأصوات، كمظهر من مظاهر اللحن فى الكلام، وأشار إلى علاقتهما بالتغير الدلالى، وأحد معانى اللحن ينصرف عند القدماء إلى خفاء المعنى وغموضه، كما أشار إلى ذلك الجاحظ نفسه(٢). كما أشار إليه بعض البلاغيين والنقاد(٣).

١- الغموض والتداخل الصوتي:

لاحظ الجاحظ أن هناك كثيراً من التغيرات الصوتية التى طرأت على ألسنة قليل من العرب وكثير من الأعاجم والمولدين بعد الفتح الإسلامى أدت إلى ظهور مستوى من الكلام لم يكن العرب الخلص يفهمونه أو يدركون معناه. وظهر هذا المستوى أول ما ظهر على ألسنة هؤلاء الأعاجم، فى محاولتهم نطق العربية واخفاقهم أحياناً فى ذلك لتمكن العادات النطقية للغاتهم، ومن ثم كانوا فى كثير من الأحيان يسقطون بعض الأصوات، أو يحولونها إلى أقرب الأصوات فى لغاتهم. وسمى الجاحظ ذلك «لكنة»، وعرفها بقوله «يقال فى لسانه لكنه إذا أدخل بعض حروف العجم فى حروف العرب، وجذبت لسانه الحالة الأول إليى المخرج الأول»(٤)، ثم يصور بعض مظاهر هذا التغير الصوتى الذى أصاب العربية على ألسنة هؤلاء الأعاجم فيقول:

---

(١) العمدة ١/٣٢٧.
(٢) البيان والتبيين ١/١٤٦، ٢/٢١٠ وما بعدها.
(٣) العمدة ١/٣٠٧ – ٣٠٨، وانظر أيضاً معجم البلاغة العربية ٢/٧٧٨ – ٧٧٩.
(٤) البيان والتبيين ١/٣٩ – ٤٠.

«فأما حروف الكلام فإن حكمها إذا تمكنت في الألسنة خلاف هذا الحكم(١). ألا ترى أن السندى إذا جلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زاياً، ولو أقام فى عليا تميم وفى سفلى قيس، وبين عجز هوازن خمسين عاماً. وكذلك النبطى القح خلاف المغلاق الذى نشأ فى بلاد النبط لأن النبطى القح يجعل الزاى سيناً، فإذا أراد أن يقول زورق، قال سورق، ويجعل العين همزة فإذا أراد أن يقول مشمعل قال مشمئل. والنخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظن أنها رومية وأهلها يزعمون أنها مولدة بأن تقول ناعمة وتقول شمس ثلاث مرات»(٢).

وفى مواضع أخرى يقدم لنا الجاحظ مثلاً على تمكن واستقرار هذه العادات النطقية الجديدة على ألسنة هؤلاء الأعاجم نتيجة لاستبدال بعض أصوات العربية بأصوات أخرى فيقول «كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء فكان إذا دعاها قال يا ضمياء، بالضاد، فقال ابن المقفع قل يا ظمياء فناداها يا ضمياء، فلما غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثاً قال له هى جاريتى أو جاريتك»(٣).

ومن ذلك أيضاً أن أم ولد لجرير بن الخطفى قالت لبعض ولدها «وقع الجردان فى عجان أمكم» تريد وقعت الجرذان فى عجين أمكم، فأبدلت الذال من الجرذان دالاً وضمت الجيم وجعلت العجين عجاناً. وقال بعض الشعراء فى أم ولد له يصف لكنتها :

أول ما أسمع منها في السحر تذكيرها الأنثي وتأنيث الذكر

السوءة السوآء في ذكر القمر

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر قالت الكمر(٤).

ولم تكن تلك اللكنات مقصورة على العامة وحدهم، بل تسربت أيضاً إلى ألسنة البلغاء والشعراء وذوى الرأى المنحدرين من أصول غير عربية. فمن الشعراء زياد الأعجم الذى كان يرتضخ لكنة فارسية يذهب فيها إلى ابدال العين همزة والطاء تاءً والسين شيناً فكان ينشد قوله :

فتي زاده السلطان في الود رفعة إذا غير السلطان كل خليل

(١) يقصد حكم تقليد الحاكية للأصوات بدقة واحكام.
(٢) البيان والتبيين ١/ ٧٠ - ٧١.
(٣) المصدر ا لسابق ٢/٢١١.
(٤) المصدر السابق ١/٧٣.

فيقول «فتى زاده الشلطان»[١].

ويروى ابن قتيبة عن شاعر آخر هو أبو العطاء السندى، وهو من الشعراء الموالى، عاش فى العصرين الأموى والعباسى، وكان جيد الشعر، وإن كانت فى لسانه لكنة، فاحتال حماد عجرد يوماً عليه كى ينطق ثلاث كلمات هى جرادة وزج وشيطان، فأرسل فى طلبه، ولم يلبث أن جاء أبو العطاء وهو يقول: «مرهباً مرهباً هياكم الله» فقال له حماد «ألا تتعشى» فقال «قد تأسيت» ثم أخذ حماد يستدرجه لكى ينطق بالكلمات الثلاث فقال «كيف بصرك باللغز يا أبا العطاء» فقال: «هشن» فأخذ حماد ينشده أبياتاً من اللغز تتضمن معانى الكلمات الثلاث فنطق أبو العطاء كلمة جرادة «زرادة»، والزج «زُز»، والشيطان «سيطان»[٢].

أما الرؤساء والأمراء فكان منهم أبو مسلم الخراسانى صاحب الدعوة، وكان، كما يقول الجاحظ، حسن الألفاظ جيد المعانى، ولكنه كان إذا أراد أن يقول «قلت لك» قال «كلت لك» وأما عبيد الله بن زياد والى العراق الذى تربى فى أحضان أم أجنبية فكان يبدل الحِاء هاء فقد قال يوماً لأحد جلسائه «أهرورى سائر اليوم» يريد أحرورى[٣]. كما كان لا يحْسن إدراك العلاقات الدلالية بين الكلمات العربية داخل الجملة فقال مرة لبعض جنوده «افتحوا سيوفكم» بدلاً من أن يقول لهم «سلوا سيوفكم» مما جعل يزيد بن مفزع الحميرى يهجوه ساخراً من لغته :

ويوم فتحت سيفك من بعيد   أضعت، وكل أمرك للضياع[٤].

وكل ذلك نموذج واضح لما يسمى فى علم اللغة المعاصر بالنقل Transfer[٥] أو التداخل الصوتى Interferance[٦] الذى يكشف عنهما التحليل التقابلى Contrastive Analysis بين أصوات اللغة الأصلية واللغة التى ينطق بها الأجانب، أصوات اللغة الأصلية، حيث تتضح التغيرات الصوتية والتركيبية التى تؤدى إلى غموض الدلالة فى كلام هؤلاء الأجانب. وأمثلة ذلك على المستوى الصوتى فيما ذكرناه سلفاً تتمثل فيما يلى:

---

(١) المصدر السابق ١/٧١.
(٢) الشعر والشعراء ٢/٧٧١.
(٣) البيان والتبيين ١/٧٢ – ٧٣.
(٤) المصدر السابق ٢/٢١٠ – ٢١١.
(٥) Hartmann and Stork, op. cit., p. 240.
(٦) Ibid., p. 115.

١- ابدال العـين همـزة :

ناعمة	←	نائمة
مشمعل	←	مشمئل

٢- إبدال الشـين سـيناً :

تعشيت	←	تأسيت

٣- إبدال الظاء ضـاداً :

ظمياء	←	ضمياء

٤- إبـدال الـذال دالاً :

الجرذان	←	الجردان

٥- إبدال القـاف كـاف :

القمر	←	الكمر
قلت	←	كلت

٦- إبدال الجـيم زاياً :

جرادة	←	زرادة
الزج	←	الزُّز

٧- إبدال الحـاء هاء :

مرحباً	←	مرهباً
حروري	←	هروري

٨- إبدال السـين شـيناً :

حسن	←	هشن
السلطان	←	الشلطان

٩ - إبدال الحركة الطويلة (ياء) بحركة طويلة (ألف) :

العجين	←	العجان

يضاف إلى هذا تذكير الأنثى وتأنيث الذكر، ولا شك أن العربى القح سيجد أن الكلمات التى على يسار السهم ذات معان غامضة، أو على الأقل سفهمها فهماً مخالفاً لقصد المتكلم، خصوصاً إذا وقعت فى سياق الكلام، كما رأينا من قبل.

أما على مستوى التركيب فسنجد أن جملة مثل : «**افتحوا سيوفكم**».

نموذج لهذا اللون من النقل أو التداخل فى التركيب، ربما يشبه ما وصفه سيبوية من الكلام بأنه المستقيم القبيح، لأنك تضع اللفظ فى غير موضعه. غير أن سيبوية نظر إلى ذلك من ناحية التركيب النحوى، لا من ناحية المعنى بما له من صلة بالعلاقات الدلالية بين الكلمات داخل التركيب. فلو فهم أحدهم هذه الجملة فهما حرفياً كما نطق بها عبد الله بن زياد لكان عليه أن يشق جراب سيفه مثلاً لكى يفتحه كما قال. ومثل هذه الجملة تشبه من وجوه كثير بعض ا لتراكيب فى اللغة الانجليزية إذا نقلت إلى العربية نقلاً حرفياً مثل:

Open Fire أى «أطلقوا النار» فإذا ترجمناها إلى «افتحوا النار» فقد تصح على سبيل المجاز، ولكن فيها مخالفة للتركيب الدلالى للغة العربية، إذ أن الفعل فتح لا يتوافق دلالياً مع كلمة النار فى العربية. وبالرغم من أن كلاً منهما – أعنى فتح وكلمة، النار – فى حالة الأفراد لكل منهما معنى واضح، ولكن إذا ركبتا معاً فقد يبدو التركيب غامضاً بعض الشيء[١].

ومثل ذلك أيضاً عندما نقول بالعربية «أنا أشرب السجائر» فلو نقلت هذه الجملة إلى الانجليزية حرفياً فستصبح I Drink Cigarettes وهى جملة قد تبقدو غامضة ومضحكة وغير مفهومة لابن اللغة الانجليزية، أو لمن لم يعش بعض الوقت فى العالم العربى. وكذلك أيضاً الجملة الانجليزية Turn on the Radio إذا نقلت إلى العربية حرفياً لكان معناها «اقلب المذياع». وكذلك يبدو التركيب العربى، «افتح المذياع»، إذا ما نقل إلى الانجليزية حرفياً Open the Radio يبدو غامضاً أو بمعنى غير المقصود لأن الانجليزى سيفهم أن المقصود أن «يفك» المذياع ليرى أجزاءه الداخلية[٢].

وتبين لنا بشكل واضح قصة تاجر الدواب الخراسانى جانباً من هذا الغموض الذى إكتنف بعض التراكيب التى استخدمها هؤلاء الأعاجم إذا سمعها العربى القح، فقد أحضر هذا التاجر – كما يروى الجاحظ – بضاعته من الدواب ليبيعها إلى الحجاج بن يوسف الثقفى، وبعد أن فحصها الحجاج وجدها هزيلة ضعيفة، فقال للتاجر، «أتبيع الدواب

(١) Lyons op. cit., p. v0l. 2, p. 386 - 387.

(٢) د. فاطمة محجوب، دراسات فى علم اللغة ص ٩٦.

المعيبة لجند السلطان؟، وفهم التاجر كلام الحجاج، ولكنه رد عليه قائلاً : «شريكننا فى هوازها وشريكننا فى مداينها، وكما تجىء تكون».

فلم يفهم الحجاج شيئاً وصاح فى الرجل قائلاً «ما تقول ويلك» فقال بعض من اعتاد سماع الخطأ فى كلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك إنه يقول : «شركاؤنا فى الأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها»(١).

والملاحظ على هذا الحوار الذى دار بين الحجاج والتاجر أن الغموض جاء من المتكلم، لا من السامع(٢). وهو ما حدث للحجاج لأن التاجر استعمل العربية فى أوضاع جديدة متأثراً فيها بلغته الأصلية، فاستخدم على المستوى الصرفى مثلاً صيغاً ليست من صيغ العربية فقال :

«شريكننا»، بدلاً من، «شركاؤنا»، أو بدلاً من، «شركائى». وكلاهما مركب اضافى يتألف من: شركاء + نون الجمع فى «شركاؤنا» وشركاء + ضمير المتكلم (الياء) فى شركائى. ولكن الرجل فى مقابل ذلك جاء بمفرد شركاء وهى شريك، ثم أضاف إليها ضمير المتكلم أنا، أى «شريك + أنا»، استبدل الهمزة بنون فأصبحت «شريكننا» أى «شريك + نا». وكل ذلك لأنه لم يكن يعرف صيغة جمع التكسير العربية «شركاء».

وهناك احتمال آخر، وهو أن الرجل ربما يكون قد أضاف للمفرد العربى علامة الجمع «آن» فى اللغة الفارسية، وبذلك نشأ هذا التركيب من كلمة عربية ونهاية فارسية(٣) ويبدو أيضاً أن التاجر استخدم الهاء للتعريف ووضعها فى نهاية الكلمة لأنه قال «هوازها» بدلاً من «الأهواز». وكرر ذلك مرة أخرى فى كلمة «المدائن» التى نطقها «مداينها»، واستخدام الهاء للتعريف موجود فى بعض اللغات السامية ولكنه عادة ما يقع فى أول الكلمة لا فى آخرها(٤). وربما يكون التاجر قصد التعريف بالإضافة، ومن ثم تصبح الهاء مضافاً إليه أى أنه أراد أن يقول، إن هذه الدواب جاءت من «بلادها هكذا».

أما جملة «وكما تجىء تكون» فهى فيما يبدو مصوغة على طريقة اللغات الهندية الأوروبية من حيث وقوع الفعل المساعد Auxiliary Verb فى نهاية الجملة، كما يقال فى الانجليزية as it is والتى تكتب عادة وفقاً للنطق as it's.

---

(١) البيان والتبيين ١/١٦١ - ١٦٢.
(٢) الصناعتين ص ٢٥.
(٣) د. محمود فهمى حجازى، علم اللغة العربية ص ٢٤٧.
(٤) د. رمضان عبد التواب، فصول فى فقه العربية ص ٤٤.

ويقول «يوهان فوك» إن هذا المستوى اللغوى نشأ فى العربية لتسهيل التفاهم بين أهل البلاد المفتوحة وبين العرب. وخاصة هؤلاء الذين يقومون على خدمتهم. وهذا المستوى اللغوى يشبه من بعض الوجوه مستويات من الاستخدام اللغوى نشأت فى اللغة الانجليزية فى العصر الحديث، واستخدمت فى التعامل بين الانجليز والمواطنين فى بلدان الشرق الأقصى وأفريقيا والذى اصطلح على تسميته Lingua Franca أو Pidgin English والمصطلح الأول يقابله فى بلاد الشرق تعبير «اللغة الأفرنجية» وهى خليط من الكلمات الإيطالية والفرنسية واليونانية، يستعمله أهل الشرق فى التفاهم مع الأوروبيين. أما المصطلح الثانى فهو يدل على لهجة انجليزية مبسطة مجردة من القيود اللغوية يجرى بها التفاهم بين الانجليز والوطنيين، وبخا صة فى الشرق الأقصى وأفريقيا وكلمة Pidgin محرفة عن الكلمة الانجليزية Business(١).

ومازال هذا المستوى من الكلام فى العربية، أو هذه اللغة العملية، أو كما يسميها بعض الصحفيين ساخراً «لغة السوق المركزى» تسمع فى كثير من بلدان الخليج العربى حتى اليوم على ألسنة العمال الآسيويين، يصعب على العربى الذى لا يعايش هؤلاء العمال فترة طويلة أن يفهم ما يقولون. فكثيراً ما يقع الابدال فى لغتهم كما وقع فى لغات أسلافهم فيما رواه الجاحظ، مثال ذلك قولهم :

أنت سوى مشكل ← ستتسبب فى وقوع مشكلة، أو مشاكل.

أنت يعطى زين كلام ← أنت تقول كلاماً طيباً.

عمل ما فى زين ← سلوك غير طيب.

أنت كنسل عمل مالى ← أنت تطردنى من عملى – مع ملاحظة أن كلمة كنسل غير عربية.

شجل مال أنا صار خراب ← طردت من عملى.

شجل ما فى زين ← عملى غير مريح.

---

(١) العربية، ترجمة د. رمضان عبد التواب، ص ٣٠.

وفى التراكيب قد تسمع عبارات مثل :

سيارة مال أنا ← سيارتى

رفـــــيق ← رفيج (بابدال القاف العربية جافا فارسية).

خـمـسـة ← كمسة (بابدال الخاء كافاً).

صـــــديق ← سديك (بابدال الصاد سيناً والقاف كافاً).

قـــلـــب ← كلب (بابدال القاف كافاً).

شـــهـــر ← سهر (بابدل الشين سيناً).

٢- البنية الصوتية والغموض :

لاحظ علماء العربية القدماء، والبلاغيون منهم بصورة خاصة أن البنية الصوتية للكلام قد تكون من أسباب غموض المعنى وخفائه، وهو ما لاحظه أيضاً علماء اللغة والأسلوب فى العصر الحديث، ولعل ابن سنان الخفاجى من علماء البلاغة القدماء الذين استثمروا ملاحظات الخليل بن أحمد حول طبيعة البنية الوصتية للكلمة العربية، وتوسع فيها بصورة منهجية واضحة، وصلتها بدلالة الكلمة والتركيب من ناحية، وبمفهوم الفصاحة والبلاغة من ناحية أخرى. وكما أشرت من قبل فإن مفهوم الفصاحة والبلاغة عند ابن سنان وعند كثير من البلاغيين القدماء ينصرف إلى وضوح المعنى وانكشافه، ومن ثم افهام السامع وتبليغه.

وقد بدأ ابن سنان، كما يبدأ علماء اللغة اليوم بتحليل المستوى الصوتى للكلام وصلة ذلك بوضوح المعنى وخفائه. ولأن الكلام عنده «هو الصوت الواقع على بعض الوجوه»[١] فقد قام بتحليله تحليلاً بنيوياً بدءاً من الصوت المعزول أو ما يسمى بالفونيم Phoneme عند علماء اللغة، ثم التركيب الصوتى للكلمة المفردة، ثم التركيب الصوتى للكلام. وهو ينطلق دائماً فى تحليلاته هذه من مفهوم الفصاحة من حيث وضوح الدلالة بما لها من صلة بالبنية الصوتية، كما كان يستند فى كثير من تحليلاته الصوتية إلى مبادئ وأصول تتفق فى بعض جوانبها مع ما توصلت إليه النظرية اللغوية الحديثة من نتائج.

(١) سر الفصاحة ص ٣٩.

وقد بدأ دراسته تلك بتحديد ماهية الصوت اللغوى، كما حدده من قبل ابن جنى، من حيث كونه عرضاً يخرج مع النفس مستطيلاً ساذجاً فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً[١]. ولكنه أضاف إلى ذلك ملاحظة هامة وهى أن سبب ادراكنا للأصوات أنها مختلفة، فالراء مختلفة عن الزاى وكذلك سائر الحروف[٢]. ويأتى الاختلاف، أو القيم الخلافية Oppositional Features أو الملامح المميزة Distinctive Features كما يقول علماء الأصوات المحدثون من موضع النطق يقول «إن الصوتين المختلفين ليس محلهما واحداً فيقطع على تضادهما لامتناع اجتماعهما فيه فى ذلك الوقت الواحد، بل محال الحروف المتغايرة متغايرة[٣]. ويقول أيضاً أن الحروف تختلف باختلاف مقاطع الصوت[٤]، وقد يأتى الاختلاف أيضاً من صفة الصوت. فالحروف منها المجهور ومنها المهموس والرخو والشديد، وما بين الرخو والشديد، والمنطبقة والمنفتحة ثم يفصل مواضع النطق والصفات التى يتميز بها كل صوت عن صوت، ويبرر ذلك بأن طالب الفصاحة لا يستغنى عن معرفة أقسام الحروف وأحكامها فى التأليف[٥].

أما الكلام فهو عنده ما انتظم من أصوات اللغة العربية، وهو يشترط الانتظام والإفادة لكى يسمى الكلام كلاماً. وأقل ما تكون الكلمة عنده من حرفين. والانتظام عنده أن يؤتى بالصوت تلو الصوت بلا فاصل زمنى لأنه لو أتى بحرف ومضى زمان وأتى بحرف آخر لم يصح وصف الكلام بأنه كلام. وبالإضافة إلى الانتظام يشترط الإفادة لأن ما يسمع من المجنون يوصف بأنه كلام وأن لم تصح منه الفائدة[٦].

فإذا تكاملت عنده صفتى الانتظام والإفادة فى الصوت، صح وصفه بأنه كلام. ومتى اختل بعضها لا يصح وصفه بأنه كلام. والإفادة عنده تتم بالمواضعة والوضوح، لأن الغرض من الكلام ووضع اللغات بيان المعانى وكشفها[٧]، وجزء من وضوح المعنى وانكشافه يتمثل فى تجنب كل ما يثقل على الناطق تكلفة والتلفظ به كالجمع بين الحروف المتقاربة المخارج وما أشبه ذلك[٨]. وبناء على ذلك يرى أن اللغة العربية أهملت الأبنية

---

(١) سر صناعة الاعراب ٦/١.
(٢) سر الفصاحة ص ١٨.
(٣) المصدر السابق ص ٢٠.
(٤) يقصد موضع النطق أو الاعتراض.
(٥) المصدر السابق ص ٢٦ – ٣١.
(٦) المصدر السابق ص ٣٢ – ٣٣.
(٧) المصدر السابق ص ٣٤ – ٤٨.
(٨) المصدر السابق ص ٥٠ – ٥١.

التى يصعب النطق بها لضرب من تقارب ا لحروف فلا يكاد يجيء من كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة. وحروف الحلق خاصة مما قل تأليفهم لها من غير فصل. وبشكل عام فإن الحروف المتقاربة المخارج مما تأنف منه السليقة العربية ولذلك لم يأت فى كـلامـهم قج، ولاجق، ولاكج، ولاجك، ولا قك، ولاكق، ولاسص، ولاصس، ولاسز، ولاصز. والعلة فى ذلك كله عنده عسر النطق. ومن ثم يوصف اللفظ الذى يأتى على مثل هذه الأبنية الصوتية أو قريباً منها بالغرابة، أو المعاظلة[1].

وبناء على أن الفصاحة عند ابن سنان هى وصف ينصرف أساساً إلى البنية الصوتية للألفاظ، فإن الألفاظ لا تكون فصيحة الا إذا وجدت على شروط عدة متى تكاملت فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ التى تكاملت فيها هذه الشروط. وبحسب الموجود منها يأخذ اللفظ حظه من الفصاحة. وبوجود أضدادها تستحق الإطراح والذم[2].

وهذه الشروط تنقسم عنده إلى قسمين، الأول منهما يوجد فى اللفظة المفردة من غير أن ينتظم معها شيء من الألفاظ. والثانى يوجد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض. فأما الذى يوجد فى اللفظة الواحدة فثمانية شروط بعضها يتصل بالبنية الصوتية، وبعضها يتصل بالدلالة وهى :

١- أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة.
٢- أن تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسناً ومزية.
٣- أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية.
٤- أن تكون غير ساقطة عامية.
٥- أن تكون جارية على العرف العربى الصحيح، غير شاذة التصريف.
٦- لا ترتبط الكلمة بدلالة هامشية مبتذلة.
٧- أن تكون الكلمة معتدلة، غير كثيرة الحروف.
٨- أن تكون الكلمة مصغرة فى موضع يعبر بها عن شيء لطيف أو خفى أو قليل.

أما ما يتصل بالبنية الصوتية للكلمة المفردة فثلاثة من الشروط السابقة :

١- تأليف اللفظة من أصوات متباعدة.
٢- أن يكون لتأليف اللفظة فى السمع حسناً ومزية.

---

(١) المصدر السابق ص ٥٧ – ٥٨.
(٢) القزوينى ، التلخيص فى علوم البلاغة ص ٢٤.

٣- أن تكون الكلمة معتدلة، غير كثيرة الحروف.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الشروط الثلاثة الشرط الثالث من الشروط الثمانية وهو أن تكون الكلمة غير متوعرة ووحشية، وهو شرط قد يتصل بالدلالة، كما يتصل فى الوقت نفسه بالبنية الصوتية. وهذه الشروط تكاد تطرد عند علماء البلاغة قبل ابن سنان وبعده ولذلك وضعها المتأخرون منهم فى قانون عام هو «خلوص الكلمة من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس»[١].

وبناء على ذلك استبعد ابن سنان ألفاظاً وقعت فى شعر بعض الشعراء لأنه رأى فى بنيتها الصوتية ثقلاً وقبحاً، كما تقبح بعض الأمزجة من الألوان وبعض النغم من الأصوات. وكثير من هذه الكلمات رصده البلاغيون والنقاد على أنها مما يسبب غموض المعنى، مثل :

الهعخع – العسلوخ – الشوحط – الجرشى – الحقلد – تتكاكأون – افرنقعوا – دردبيس – جراف – هبلغ – خزخز – عجالط – عكالط – حمصيص – المرء بوزع – حبيناء – عقرقس – الدحرضين – النداغم – سنيق – عسطوس – جؤشوش – صهصلق – حيزبون – شدقم[٢].

ومن الكلمات التى رآها ابن سنان غير معتدلة الحروف، لأن عدد أصواتها زاد عن المألوف، ومن ثم أصبحت عسرة النطق تؤدى إلى غموض المعنى، ووقعت فى شعر بعض الشعراء: استسماحها – استماعكه – حوباراتها[٣].

ومن أجل هذه الكلمات سخر أبو حيان التوحيدى (ت ٤١٤هـ) سخرية شديد من ولوع الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ) باستخدام مثل هذه الكلمات الغامضة المعنى ذات البنية الصوتية الغريبة فقال: «قال لى الخليلى الرجل مجنون، يقصد ابن عباد، وفى طباع المعلمين لأنه يقول للتميمى الشاعر، كيف تقول الشعر وإن قلته كيف تجيده، وإن أجدته كيف تغزر فيه، وإن غزرت فكيف تروم غاية وأنت لا تعرف ما الزهلق وما الهبلع، وما العثلط وما الجلعلع وما القهقب وما الطرطب وما القهبلس وما الخيسفوج وما الخزعبلة، وما القزعملة وما العمروط»[٤].

---

(١) سر الفصاحة ص ٦٤ – ٧٣.
(٢) المصدر السابق ص ٦٣.
(٣) أبو حيان التوحيدى، مثالب الوزيرين ص ٣١٨.
(٤) المصدر السابق ص ٣١٩ – ٣٢١.

ثم يمضى فى ذكر ألفاظ من هذا القبيل حتى يبلغ بها أكثر من خمسين لفظة[١] كلها من الكلمات الغامضة المعنى، ثم يعلق أبو حيان على استعمال الصاحب بن عباد لمثل هذه الكلمات فيقول «أفهذا الضرب من الكلام مما يجب أن يفتخر به ويتدفق به، ولو رأيته يميس وهو يهذى بهذا أو شبهه، وينهق فيه ويلوى شدقه عليه، ويقذف بالبزاق على أهل المجلس لحمدت الله تعالى على العافية مما بلى به هذا الرجل»[٢].

أما الكلام المؤلف فهو يخضع أيضاً للقوانين الصوتية التى وضعها ابن سنان للفظة المفردة من حيث تجنب تكرار الأصوات المتقاربة المخرج، ويرى أن ذلك فى التأليف أقبح، وعلة ذلك عنده «أن اللفظة المفردة لا يستمر فيها من تكرار الحرف الواحد أو تقارب الحرف مثل ما يستمر فى الكلام المؤلف إذا طال واتسع». وذلك عنده يخل بفصاحة الكلام لأن التأليف على المستوى الصوتى عنده على ضربين: متنافر ومتلائم[٣]. وقد يقع فى المتلائم ما بعضه أشد تلاؤماً من بعض على حسب ما يقع فى التأليف عليه. كما يكون من المتنافر ما بعضه أشد فى التنافر وأكثر من بعض ومعيار التنافر عنده هو قرب المخرج، والدليل على ذلك أن الإدغام والإبدال شاهدان على أن التنافر في قرب الأصوات دون بعدها، لأنهما لا يكادان يردان فى الكلام إلا فراراً من تقارب الأصوات ولأن قرب المخرج يؤدى إلى رفع اللسان ورده إلى مكانه أكثر من مرة، وكلاهما صعب على اللسان[٤].

وبناء على ذلك نرى أن تكرار الأصوات على هذا النحو يذهب بفصاحة الكلام، بل يؤدى أحياناً إلى خفاء المعنى وغموضه. والأمثلة التى قدمها ابن سنان كثيرة وكلها يتمثل فى هذا التنافر الصوتى الذى يؤدى إلى خفاء المعنى، مثال ذلك :

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

ومنه قول المتنبى :

ولا الضعف حتي يبلغ الضعف ضعفه

ولا ضعف ضعف الضعف، بل مثله ألف

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٢.
(٢) ابن سنان، المصدر السابق ص ٨٩.
(٣) سر الفصاحة ص ٩٧.
(٤) المصدر السابق، ص ٩٧ – ١٠٤.

وكذلك قوله أيضاً :

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابـ ن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وقـولــه :

ومن جاهل بي وهو يجهل جهلـه ويجهل علمـي أنـه بـي جاهـل

وكذا قوله :

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قـلاقـل عـيـس كلهـن قلاقـل

ومثل ذلك أيضاً قول مسلم بن الوليد :

وسلت وسلت ثـم سـل سـليـلـهـا فـأتـي سـليـل سـليلها مسلولا(١).

والسامع أو القارئ لهذه الأبيات أو مثلها من الكلام لن يستطيع بسهولة فهم دلالته ومعناه لافتقاره إلى القيم الخلافية والتباين بين الأصوات، وهو العنصر الذى يقوم عليه التأليف، وبالتالى إدراك المعنى. والذى حدث هو إحلال سلسلة من الأصوات المتقاربة فى المخرج المتشابهة فى ا لصفات، محل الأصوات التى يتألف منها الكلام عادة، وهو ما يخالف توقعات السامع. وبالتالي لا يستطيع أن يستحضر فى ذهنه معانى الكلما ت التى تتألف منها هذه السلسلة من الأصوات. ويطغى الجرس الصوتى على المعنى. ومن ثم تظل الصورة اللفظية عالقة بالذهن ولا يستطيع السامع أن يحلل مكونات التركيب فيختفى المعنى ويغمض.

وإذا كانت البنية الصوتية تؤدى إلى خفاء المعنى على النحو الذى رأينا، فإن الأداء الصوتى وعدم الالتزام بقواعد الوقف والابتداء والتنغيم والنبر فى الكلام قد يكون سبباً من أسباب الغموض(٢)، ونحن نشير إلى ذلك فى اللغة المكتوبة بعلامات الترقيم Punctua-tion مثل النقطة والفاصلة والفاصلة المنقوطة وعلامة الاستفهام وعلامة التعجب وغيرها مما يساعد القارئ على التمييز بين معانى الجمل، بل يمكن من خلال الأداء الصوتى أن نرفع الغموض عن بعض الجمل، فجملة مثل Egyptian Cotton Shirt جملة تحتمل معنيين، ولكننا نستطيع أن نرفع هذا الاحتمال أو الغموض عنها إذا وقفنا بعد كلمة مصرى Egyptian وهنا سيكون المعنى «قميص من القطن مصنوع فى مصر» A Cotton Shirt

---

(١) انظر التمهيد من هذا البحث.

(٢) Plamer, Frank grammar, p. 128.

Made In Egypt أما إذا وقفنا بعد كلمة قطن Cotton فسيصبح المعنى قميص مصنوع من القطن المصرى A Shirt Made of Egyptian Cotton(١).

وقد أشار ابن هشام إلى ما يشبه هذا فى رفع الغموض ودور الوقف فى تحديد المعنى فيما حكاه بعضهم من أنه سمع شيخاً يعرب لتلميذه «قيماً» فى قوله تعالى ﴿ولم يجعل له عوجا قيما﴾ على أنها صفة لعوج، قال فقلت له يا هذا، كيف يكون العوج قيماً وترحمت على من وقف من القراء على ألف التنوين فى عوج وقفة لطيفة دفعاً لهذا التوهم وإنما «قيما» حال، إما من اسم محذوف هو وعامله، أى أنزلته قيما، وإما من الكتاب(٢).

بل اننا نستطيع من خلال الأداء الصوتى أن نستنتج بعض العناصر اللغوية المحذوفة مما يكشف المعنى ويرفع الغموض، وقد أشار ابن جنى عند حديثه عن حذف الصفة مع إرادتها بذكر الموصوف من قولهم «سير عليه ليل» وهى جملة جاءها الغموض من حذف الصفة فلا يدرى السامع هل المقصود ليل طويل، أو قصير، أم بارد أم مظلم، أو غير ذلك، ولكن ابن جنى يرى أن الأداء الصوتى، أو طريقة النطق فى مثل هذه الجمل قد تدل على المعنى المقصود من الصفة المحذوفة، وذلك كما يقول: «إنك تحس فى كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل، أو غير ذلك»(٣).

ويزيد ابن جنى فى توضيح دور الأداء الصوتى، كما يظهر فى تنغيم الكلام ونبره وأثر ذلك فى وضوح المعنى فيقول «وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون فى مدح انسان والثناء عليه فتقول، كان والله رجلاً، فتزيد فى قوة اللفظ بـ «الله» فى هذه الكلمة. وتتمكن فى تمطيط اللام واطالة الصوت بها وعليها، أى رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك، وكذلك تقول، سألناه فوجدناه إنساناً وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك(٤).

٣- الكتابة والغموض :

من المعروف أن نظام الكتابة فى أى لغة لا يعكس بدقة النظام الصوتى لهذه اللغة،

---

(١) معنى اللبيب ص ٥٨٩.

(٢) الخصائص ٢/ ٣٧٠ - ٣٧١.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٧١.

(٤) Hartmann and Stork, op. cit., p. 100.

وانظر أيضاً: د. فاطمة محجوب، دراسات فى علم اللغة، ص ١٠٧ وما بعدها.

لأن الكتابة بطبيعتها من حيث هى رموز مرئية للأصوات اللغوية عاجزة عن تصوير كافة الخصائص الصوتية فى اللغة لأنها تسقط من حسابها عوامل كثيرة تظل وقفاً على اللغة المنطوقة مثل عامل السرعة والزمن والبعد واختلاف النطق حسب اللهجات الإقليمية، وكل ذلك يؤدى إلى طائفة من الاختلافات فى أحوال نطق الصوت الواحد. بالإضافة إلى أن نطق أى صوت لغوى عمل فردى يختلف من فرد إلى فرد، والدليل على ذلك أن علماء اللغة والأصوات يتحدثون عن الفونيم Phoneme من حيث هو وحدة صوتية أساسية فى أى لغة من اللغات، وفى الوقت نفسه يرون أن هناك تنوعات مختلفة لنطق الفونيم الواحد فيما يسمى بالألوفون Allophone، وهو يمثل الاختلاف أو التنوع فى نطق الفونيم الواحد من فرد إلى فرد. وعندما يتحول الصوت اللغوى إلى حرف مكتوب يسقط هذه الاختلافات وغيرها مما يصاحب الكلام. وقد شعر علماء اللغة المحدثون بهذه الفروق فلجأوا، برغم استعمال الأجهزة الحديثة فى تسجيل الكلام وتحليله، إلى ابتكار نظام جديد للكتابة يخصص فيه لكل صوت ينطق رمز كتابى يسجل به عالم اللغة الكلام، وهو النظام المعروف باسم الكتابة الصوتية Phonetical Alpha-bet، كما انبثق من الدراسة التقابلية Contrastive بين النطق والكتابة فرع جديد من فروع علم اللغة يعرف باسم الجرافولوچيا Graphology أو علم الجرافيمات Graph-emes، وهو علم يتناول كافة القواعد المستخدمة فى التعبير الخطى عن الكلام، ويربط هذا العلم بين الفونيم، كوحدة صوتية، وبين الوحدة الخطية أو الجرافيم Grapheme(١) حيث يتضح لنا من تطبيق تحليلات هذا العلم الاختلاف بين النطق والكتابة، فصوت «الباء» مثلاً فى اللغة العربية هو صوت شفهى مجهور انفجارى، سواء وقع فى أول الكلمة أو فى وسطها أو فى آخرها. وهو ما يسمى بفونيم الباء ولكن لصوت الباء هذا صورة نطقية أخرى يكون فيها مهموساً لا مجهوراً، وذلك عندما يقع قبل صوت مهموس كما فى كلمة «سبْت» بسكون الباء، حيث نجد أن الباء فى هذا الموقع قد فقدت صفة الجهر وأصبحت مهموسة لوقوعها قبل التاء، وهى صوت مهموس، وهذا النطق المختلف لفونيم الباء هو ما يسمى بالألوفون Allophone ولكن إذا حدث ونطق شخص ما الباء مجهورة فى كلمة «سبت» فإن ذلك لا يؤدى إلى تغيير معناها، وإن بدا لنا نطقه غريباً، ومع ذلك فإن التعبير الخطى عن صوت الباء لا يصور مثل هذه الاختلافات.

ومن ناحية أخرى نجد أن التعبير الخطى عن صوت «الباء» فى اللغة العربية ليس

(١) انظر جدولاً كاملاً للوحدا ت الخطية «الجرافيم» والصور الخطية «الوجرافيم» فى اللغة العربية فى كتاب الدكتورة فاطمة محجوب دراسات فى علم اللغة ص ١٢٧، ١٢٨.

واحداً، بل نجد أربع صور خطية مختلفة للباء، كما فى كلمات مثل بادر، يبدأ، يجب، كتاب. أى أن الوحدة الخطية أو جرافيم الباء لها صور خطية أخرى يطلق عليها ألوجرافيم Allographeme لهذه الوحدة الخطية وهى الباء حيث نجدها تقع منفصلة ومتصلة أولية وسطى ونهائية، كما فى الكلمات السابقة(١). وبالإضافة إلى هذا التنوع والاختلاف فى صور كتابة الوحدة الخطية فى اللغة العربية، هناك أيضاً نقط الإعجام والحركات القصيرة والشّدة والسكون، وكلها توضع طبقاً لنظام الكتابة العربية فوق الحرف مما يؤدى إلى احتمال وقوع الخطأ فى الكتابة. وقد يترتب على الخطأ اختلاف فى النطق والمعنى، وهو ما يسمى عند القدماء بالتصحيف والتحريف.

ولعل كتاب «التنبيه على حدوث التصحيف» لعلى ابن حمزة الأصفهانى (ت ٣٦٠ هـ) من أبرز الكتب التى تناولت ظواهر التصحيف والتحريف فى الكتابة العربية وصلة ذلك باختلاف المعنى. وفى هذا الكتاب حدد الأصفهانى مفهوم التصحِيف، وتناول تصحيفات طائفة من علماء اللغة والنحو والقراء والمحدثين وتخريجاتهم للمصحف، كما تناول تصحيفات الكتاب والشعراء، وذهب إلى أن التصحيف من أسباب تعدد القراءات القرآنية. وذكر جانباً من التصحيف الواقع سهواً والواقع عمداً، ثم أورد أنماطاً من معمى الشعر التى يلعب فيها التصحيف دوراً ظاهراً.

وقد حدد الأصفهانى مفهوم التصحيف بأنه «قراءة الشىء بخلاف ما أراد كاتبه، وعلى غير ما اصطلح عليه فى تسميته». وأما لفظ التصحيف فأصله أن قوماً أخذوا العلم عن الصحف من غير أن يلقوا فيه العلماء فكان الخطأ يقع فيما يروونه فسمى ذلك تصحيفاً. كما سمى التصحيف تغييراً وتبديلاً(٢). ويترتب على ذلك أن التصحيف هو أيضاً تغير فى دلالة الكلام ومعناه نتيجة لخطأ فى القراءة أو فى الكتابة أو فيهما معاً، وهو ما يؤدى إلى اختلاف المعنى وغموضه أحياناً كما سنرى.

وقد لاحظ الأصفهانى فى دراسته لظواهر التصحيف والتحريف أن الكتابة العربية كانت دائماً عرضة للخطأ لتشابه كثير من وحداتها الخطية فى الرسم، ونتيجة لوضع نقط الإعجام فوق بعض الحروف، أو أسفل بعضها، ويرى أن وجه الحكمة كان يقتضى أن يوضع لكل حرف صورة مباينة للأخرى حتى يؤمن عليه التبديل(٣)، ومن ثم أدى التشابه فى الوحدات الخطية Graphemes فى اللغة العربية وكتابتها منفصلة ومتصلة،

---

(١) التنبيه على حدوث التصحيف ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧.

(٣) المصدر السابق ص ٢٧ – ٢٨.

إلى وقوع التصحيف فى الكتابة والتحريف فى القراءة. وذلك أنه لما جاءت الباء والتاء والثاء أشباها فى الاتصال والانفصال، وكانت الياء والنون يحاكيانها فى الانفصال، تمكن التصحيف فى الكتابة تمكنا تاما. ولعلاج ذلك وضعوا لهذه الحروف المتشابهة علامات فوضعوا النقط لفرادا وازواجا، وخالفوا فى أماكنها بتوقيع بعضها فوق بعض الحروف وبعضها تحت الحروف(١).

غير أن التصحيف وقع أيضاً رغم اضافة النقط فأحدثوا الإعجام فكانوا يتبعون ما يكتبون بالنقط مع الإعجام(٢) ويبدو أن الأصفهانى يخص مصطلح النقط بالوحدات الخطية المتشابهة مثل الباء والتاء والثاء والياء. أما الإعجام فيخص به الثنائيات مثل الدال والذال والعين والغين والراء والزاى ومع ذلك ظل التصحيف يقع فى الكتابة فقالوا «لقد بان لمن عقل وأنصف من نفسه أن اعتراض التصحيف فى هذه الكتابة مع ما جلب اليها من الزيادة فى البيان بالنقط والإعجام، ليس إلا من ضعف الأساس»(٣)، وبالرغم من ذلك فإن الكتابة العربية أحسن حالاً من كثير من اللغات الأخرى مثل الفرنسية التى يعد بعض علماء اللغة طريقة الكتابة فيها كارثة وطنية(٤).

وقد أشار الأصفهانى إلى أن الفيلسوف العربى الكندى (ت ٢٦٠ هـ) هو أول من تنبه للاختلاف بين النطق والكتابة فى اللغات المختلفة فوضع لنفسه ألف باء خاصة صوتية Phonetical Alphabet، وذلك أنه، كما يقول الأصفهانى، لما احتاج إلى استعمال لغات الأمم من الفرس والسريان والروم واليونان، وضع لنفسه كتابة اخترع لها أربعين صورة مختلفة الأشكال متباينة الهيئات، فكان لا يتعذر عليه كتابة شىء ولا تلاوته(٥). ويبدو أن الأصفهانى قد اطلع على هذه الألف باء الصوتية التى وضعها الكندى، وحاول أن يضع على هدى منها ألف باء صوتية تشبهها مؤلفة أيضاً من أربعين صوتاً.

وتختلف قابلية الكلمات فى اللغة العربية، لوقوع التصحيف فيها من حيث تشابه الوحدات الخطية و اختلافها، وذلك على النحو التالى :

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨.
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة، وانظر أيضاً: د. رمضان عبد التواب، فصول فى فقه العربية ص ٣٥٤.
(٣) فندريس، اللغة ص ٤٠٥.
(٤) التنبيه ص ٣٦.
(٥) المصدر السابق ص ٣٣ - ٣٥.

١- ما لا يقع فيه التصحيف البتة مثل «طمع»[١].

٢- ما يقع فيه التصحيف على وجهين :

(أ) الوعد، من العدة.

(ب) الوغد، للرجل الخسيس.

٣- ما يقع فيه التصحيف على ثلاثة أمثلة :

(أ) الضخم، السمين.

(ب) الصحم، الأحمر فى سواد.

(جـ) الضجم، لميلان الشدق[٢].

وقد يقع التصحيف فى الإسم إذا كانت حروفه كلها متشابهة مثل كلمة «بنت» فانها تصحف على أكثر من ثلاثين مثالاً[٣] فإذا اتفق وكان أحد حروف الإسم الثلاثى سينا، تصحف على نحو مائتى مثال، مثل كلمة «السبت»[٤] ومن الملاحظ فى صور التصحيف الكثيرة التى ذكرها الأصفهانى أن التغير والاختلاف فى دلالة الكلمة المصحفة لم يأت من تغير وضع النقط والإعجام فحسب، وإنما جاء نتيجة لتغير الحركات القصيرة من حيث موضعها أو ابدالها بحركات أخرى، ولعل ذلك ما جعل واضعى المعاجم العربية القديمة يصرون على ايضاح طريقة نطق الكلمة بذكر كلمة أخرى مشهورة على وزنها، كأن يقول مثلاً تبع كفرح أو يقول، العمق، بضمتين، قعر البئر، وعمق ككرم، وبآر عمق بضمتين وهكذا[٥].

وهذه الطريقة قد تصلح فى المعاجم والمفردات، ولكن التصحيف قد يقع فى الكتابة بحيث يؤدى إلى اختلاف المعنى أو غموضه. إلا أن الاعتماد على السياق والتوافق الدلالى، أو التلازم فى الظهور بين عدد من الكلمات، قد يساعد القارئ على معرفة المعنى المقصود رغم وقوع التصحيف.

يقول الأصفهانى «ومن وضع الكتابة العربية لم يتنبه إلى ما يدخل اللبس على

(١) التنبيه ص ٢٨.
(٢) المصدر السابق، نفس ا لصفحة.
(٣) المصدر السابق ص ٢٩ - ٣٢.
(٤) القاموس ا لمحيط، مادة عمق.
(٥) التنبيه ص ١٤، ٣٧.

الأسماء المتشابهة فترك الناس مضطرين إلى طلب الاحتيال فى التماس العلامات لها، وهم مع ذلك يستدلون على تبين ما يقرأون بما قبله وما بعده[1].

ففى جملة مثل، «يا أيها الرجل المرجى» نجد أن كلمة (المرجى) إذا خلت من الإعجام والنقط يحتمل أن تكون (المزجى) أو (المرخى) أو (المرجى) وللوصول إلى الدلالة الصحيحة أو اللبس الناتج عن التصحيف، ينظر إلى ما بعدها، كما يقول الأصفهانى. فإذا كانت الكلمة التى بعدها (مطيته) أو (سفينته) فهى (المزجى) لأن كلمة «المزجى» تتلازم فى الظهور Co-occurrence[3]، أو تتآلف دلالياً مع كلمة «المطية» وكلمة «السفينة».. وإذا كان ما بعدها عمامته أو كمه أو ذيله فهى (المرخى) وإن كان همه أو غريمه أو رأيه فهو (المرجئ)[2].

ومع ذلك فإن التصحيف الواقع فى أسماء بعض الأعلام العربية قد يؤدى إلى الغموض واللبس «حتى لا يحيط بمعرفة الصحيح منه إلا علماء النسب»[3]. مثال ذلك عيلان، وغيلان، وريان، وزيان، وبشار، ويسار وعباد وعياد وخراش وخداش وحبيش وخنيس وحازم وخازم وغير ذلك كثير[4] ولذلك اختلف الرواة فى اسم الشاعر الذى ذكره امرؤ القيس فى قوله :

عوجا علي الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكي ابن خزام

فرواه الأصمعى (جذام) بالجيم والذال ورواه آخرون (خزام) بالخاء والزاى[5].

وبصورة عامة فإن التصحيف الذى لا يعاب قائلة هو الذى لا يؤدى إلى غموض المعنى وفساده، أو كما يقول الأصفهانى، لا تفسد به قاعدة الكلام ولا يجد المعترض فيه مقالاً، مثل قول القائل :

وما زال وقع سيوفنا ورماحنا في كل يوم تحايل ورجام

فلو رواه راو (وزحام) بالزاى بدلاً من الراء لما لحقه بأس، لأن المعنى لم يلحقه لبس بل يحتمله السياق، وان خالف ذلك مقصد ا لمتكلم أحياناً[6]. واحتمال السياق للمعنى على هذا النحو قد يترتب عليه وجود نصين أو قراءتين أو أكثر لنص واحد، أو قراءة واحدة فى الأصل، مما قد يترتب عليه تعدد معنى النص.

---

(١) Hartmann and stork, op. cit., p. 54.
(٢) التنبيه، ص ٣٧.
(٣) المصدر السابق ص ٣٨.
(٤) المصدر السابق ص ٣٨ – ٤٠.
(٥) المصدر السابق ص ٤٠.
(٦) المصدر السابق ص ٣٨.

وقد وقع ذلك فى بعض قراءات القرآن الكريم حينما احتمل هجاء بعض الكلمات فى عدد من الآيات دلالتين فقرئ بهما معاً، وبالتالى صارتا قراءتين، مثال ذلك قو له تعالى:

١- ﴿هنالك نبلو كل نفس﴾ و«تبلو».

٢- ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ و «تثبتوا».

٣- ﴿الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا﴾ و«تبيينا».

٤- ﴿إذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾ و «منابة».

٥- ﴿قل فيهما اثم كبير﴾ و «كثير».

٦- ﴿حتى يلج الجمل فى سم الخياط﴾ فى قراءة ابن عباس وفى قراءة غيره، حتى «يلح».

٧- ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ وفى قراءة ابن عباس «ووصى».

٨- ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا﴾ وفى قراءة عائشة «إلا أوثانا».

٩- ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغا﴾ و «فزعا».

١٠- ﴿ولا تجسسوا﴾ و ﴿ولا تحسسوا﴾(١).

ومنه ما أدى إلى تغيير المعنى، مثال ذلك قوله تعالى :

١- ﴿يا نوح لتكونن من المرحومين﴾ والصواب ﴿لتكونن من المرجومين﴾.

٢- ﴿فإذا هى ثعبان متين﴾ والصواب ﴿فإذا هى ثعبان مبين﴾.

٣- ﴿أم خشيتم أن تدخلوا الجنة﴾ والصواب ﴿أم حسبتم﴾(٢).

وقد وقع مثل هذا أيضاً فى الحديث النبوى فقد روى بعض الرواة :

١- «تختموا بالعقيق» والصواب «تخيموا بالعقيق» وهو اسم لواد بالمدينة.

٢- «كان يستحب العمل يوم الجمعة» والصواب «كان يستحب الغسل يوم الجمعة».

٣- «الجار أحق بصفته» والصواب «بصقبه» أى المجاور له.

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٤.
(٢) المصدر السابق ص ١٥٨ - ١٥٩.

٤- «من أنزلت إليه نعمة فليشكرها» والصواب «من ألت»[١].

أما فى الشعر فقد وقع التصحيف فى كثير من الأبيات بحيث أدى إلى تعدد المعنى أو غموضه أحياناً، مما جعل العلماء والرواة يختلفون فى الشرح والرواية، مثال ذلك قول زهير :

١- تداركتما عبسا وزبيان بعدما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

فروى «منشم» بفتح الميم وتسكين النون وكسر الشين. وروى منشم بفتح فسكون ففتح. وروى «مشأم». واختلف اللغويون والرواة فى التفسير، والسياق يسمح بالمعانى المختلفة التى ذكرها اللغويون لهذه الألفاظ[٢].

وقول الأعشى :

٢- وإني لعمر الذي حطت مناسمها   تحذي وسيق إليه الباقر الغيل

روى أبو عبيدة حطت «خطت» بالخاء، أى خطت التراب. كما روى تخدى «تحدى» بالدال و «تخدى» بالخاء والدال، أى تخدى فى سيرها.

ورواه آخر «الغيل» بفتح الغين وكسر الياء، أى الكثير. وروى «العثل» بعين مفتوحة فثاء مكسورة، وهى الجماعات من الإبل والناس. و«الغيل» وهى السمان. ومثل ذلك قول القطامى :

٣- فـمـا جبنـوا ولكـنـا أنـاس   نقيـم لمـن يقارضـنا القراعـا

فقد روى «يعارضنا» و «يقارصنا» و «يقارعنا»[٣].

وقد استغلت ظاهرة التصحيف فى الكتابة العربية استغلالاً فنياً مقصوداً فيما يعرف بالجناس المصحف[٤]. وهو يقوم على استخدام ثنائيات من الكلمات التى يتغير معناها بتغير الوحدة الخطية أو الجرافيم Grapheme بوحدة خطية أخرى تتفق معها فى الرسم وتختلف فى النقط والإعجام مثل الباء والتاء، أو الباء والياء أو النون والتاء، أو الجيم والحاء أو الحاء والخاء وغير ذلك. ومنه قول البحترى يمدح المعتز بالله.

(١) المصدر السابق ص ٢ – ٣.
(٢) المصدر السابق ص ١٣٩ – ١٤٣، حيث يفصل القول فى اختلاف المعنى وتفسير البيت.
(٣) المصدر السابق ص ١٤٩، وانظر أمثلة أخرى لهذا اللون من التصحيف الذى يؤدى إلى اختلاف المعنى فى صفحات ١٤٤ – ١٥٣، ١٨٦ – ١٨٧.
(٤) العمدة ص ٣٢٧.

ولم يكن المغتر بالله أن سري ليعجز والمعتز بالله طالبه

وكذلك قول ابن المعتز :

له وجه به يصبي ويضني ومبتسم به يشقي ويشفي

وفى النثر قال بعض الحكماء «خلف الوعد خلق الوغد»(١) .

كما استغل التصحيف أيضاً وما يترتب عليه من خفاء المعنى استغلالاً مقصوداً فى وضع المعمى واللغز نثراً ونظماً، وهو يعتمد على التصحيف من ناحية، وقلب مواضع الحروف من ناحية أخرى، وفيه يقع الغموض واللبس فى اللغة المكتوبة، وأكثر ما كان يستخدم للتظرف والعبث. فمن هذا النمط :

١- الخنصر ← الحب ضر

٢- الجندل والصدقل ← الحب ذى والصد قتل

٣- متى ألج بيت هند ← ميت الحب شهيد(٢) .

والملاحظ أن هذا النوع من الغموض فى الكتابة يعتمد على التصحيف وابدال مواضع الوحدات الخطية إلى أن يصل القارئ إلى الاحتمال المقصود. ويشبه هذا النوع من اللغز أو التعمية نوعاً آخر لا يعتمد على التصحيف، وانما يعتمد على قلب مواضع الحروف بحيث يقرأ الكلام من آخره فينكشف المعنى المقصود.

١- أنت ملظ ظلمتنا

٢- انتهــرك كرهتنا(٣) .

ومنه ما يوضع شعراً مع استغلال التصحيف وقلب مواضع الوحدات الخطية. مثال ذلك :

حــار فــي الحــب فــتي صــار فــي حبــك مـدنـف

يا بديعاً اسمه في الشعر مقلوب مصحف

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٢ وما بعدها، حيث يقدم الأصفهانى أمثلة أخرى كثيرة على هذا النوع من الغموض الكتابى.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٤ .

فالاسم «حار» ومقلوبه «راح وتصحيفه «راج».

ومثل ذلك قول سويد ابن أبى العتاهية :

ألا ليت من أهواه صد عن الصد وأعقب بعد الجود بالوصل والمد

أقول له إذ لج في سطواته قلنسوة خضر، أيا ناقض العهد

فقوله «قلنسوة خضرا» عبارة غامضة لا تستقيم مع سياق البيت الثانى وتجعله غير مفهوم، ولكنها من مقلوب التصحيف، مع زيادة بعض الوحدات الخطية وهى النون والسين فى كلمة «قلنسوة» ومن ثم يصبح معنى العبارة «قلبى يتوهج ضرا»(١).

من ذلك يتبين لنا أن غموض المعنى يحدث على المستوى الصوتى نتيجة للتداخل أو نقل الأصوات، كما فى لغة الأجانب الذين يتكلمون لغة غير لغتهم الأم، كما يحدث أيضاً نتيجة لنظم الكلام من وحدات صوتية قريبة المخرج أو متحدة المخرج. ويتمثل ذلك فى تكرار بعض الوحدات الصوتية بصورة مطردة، مما يحول انتباه القارئ أو السامع الى جرس الأصوات وتكرارها، وهو ما يحول دون انتباهه إلى المعنى.

أما على مستوى اللغة المكتوبة فقد يقع الغموض نتيجة للتصحيف والتحريف. وقابلية الكتابة العربية لهذا اللون من الغموض كانت وراء ظهور فن اللغز والمعمى، كما استغلت ظاهرة التصحيف فى البديع بفن ربما انفردت به اللغة العربية وهو الجناس المصحف بصوره المختلفة.

وإذا كان الصوت والخط من أسباب وقوع الغموض فى اللغة المنطوقة والمكتوبة فإن التركيب النحوى يظل من الأسباب الأساسية لوقوع الغموض بسبب من التركيب النحوى، وهو ما حظى باهتمام علماء اللغة قديماً وحديثاً، كما سنرى فى الفصل السادس والأخير من هذا البحث.

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٠، ١٨٣، وانظر أمثلة أخرى على هذا اللون ص ١٦٩ – ١٨٥.

الفصل السادس

الغموض والتركيب النحوي

كانت ظاهرة غموض المعنى بسبب من التركيب النحوى من المبررات الجوهرية التى أيدت بها النظرية التحويلية التوليدية T G. Grammar وجهة نظرها فى تحليل الجمل الصحيحة نحويا Grammatical، ولكنها غامضة دلالياً، كما كانت هذه الظاهرة أيضاً من الاعتراضات الرئيسية التى قدمها تشومسكى، على مدرسة التحليل إلى المكونات المباشرة للجملة. Immediate Constituents Analysis أو مدرسة بلمفيلد، لعجزها عن معالجة وتحليل الجمل الغامضة بسبب من بنيتها التركيبية(١).

فجملة مثل، «ضربت زيداً ضاحكاً» جملة غامضة لأنها تحتمل معنيين هما :

١ - ضربت زيداً وأنا أضحك، أى أن الحال من الفاعل.

٢ - ضربت زيداً وهو يضحك، أى أن الحال من المفعول به.

وهذا يعنى، طبقاً لتحليل تشومسكى، أن جملة «ضربت زيداً ضاحكاً» جملة مشتقة من تركيبين عميقين مختلفين، أحدهما، الحال فيها من الضمير فى «ضربت» أى ضربت زيداً وأنا أضحك والثانية الحال فيها من الإسم الظاهر «زيد» أى ضربت زيداً وهو يضحك.

أى أن أصل الغموض، أو تعدد المعنى فى جملة «ضربت زيداً ضاحكاً» جاء من أن التركيب النحوى لهذه الجملة مشتق من سلسلتين عميقتين مختلفتين لكل منهما دلالة محددة، أو بعبارة أخرى أن البنية السطحية Surface Structure لهذه الجملة تنضوى تحتها بنيتين عميقتين Two deep structures مختلفتين، لكل منهما دلالة مختلفة(٢). أى أن معنى الجملة يتوقف على بنيتها العميقة لا على ترتيب كلماتها، كما تظهر فى البنية السطحية، فقد يكون لجمل مختلفة فى ظاهر اللفظ معنى واحد لأن لها بنية عميقة واحدة، وقد تكون الجملة الواحدة متعددة المعنى لأن لها أكثر من بنية داخلية، وهذا التعدد فى المعنى هو صورة من صور الغموض التى توقفت عندها النظرية اللغوية الحديثة وقدمت بناء على التحليل اللغوى للبنية التفسير العلمى المقبول حتى الآن لظاهرة الغموض بسبب من التركيب النحوى.

---

(١) Chomsky Syntactic Structures, p. 30, p. 50.
وانظر أيضاً: Chomsky Language and Mind p. 27 - 30.
ونظرية تشومسكى اللغوية ص ١١٨ - ١١٩، ١٥٤ - ١٥٧.

(٢) Palmar, op. cit., pp. 132 - 133.

وقد توقف النحاة والأصوليون أمام تراكيب نحوية تحتمل أكثر من معنى بسبب بنائها النحوى، أو كما قال الغزالى، بحسب نسق الكلام[1] فمن ذلك قول الأصوليين «كل ما علمه الحكيم فهو كما علمه» وهى جملة تحتمل معنيين لأن البناء السطحى لها مشتق من بنيتين عميقتين مختلفتين، وهو ما يعبر عنه فى النظرية اللغوية العربية بتردد عودة الضمير إلى «الحكيم» فى المثال السابق، أو إلى «كل ما» أى علم الحكيم.

ففى الحالة الأولى التى يعود فيها الضمير إلى «الحكيم» تكون البنية العميقة لهذه الجملة هى «كل ما علمه الحكيم كما علمه» وفى الحالة الثانية أى عندما يعود الضمير إلى «كل ما» أو العلم تكون البنية العميقة هى «كل ما علمه الحكيم معلوم كما علم»[2].

ومثل ذلك أيضاً فى قوله تعالى: ﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ فهى أيضاً تحتمل معنيين :

١ - يرفع الله الكلم الطيب.

٢ - العمل الصالح يرفع الكلم الطيب.

وذلك لأن الضمير فى يرفعه يحتمل أن يعود إلى ما عاد إليه الضمير فى «إليه» وهو الله تعالى. ويحتمل أن يعود إلى الكلم الطيب.

وقد يقع الغموض بسبب الحذف الذى لا يظهر إلا فى البنية العميقة حيث يتضح معنى الجملة. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ فإنه يحتمل :

١ - وترغبون فى أن تنكحوهن، أى ترغبون فى نكاحهن.

٢ - وترغبون عن أن تنكحوهن، أى ترغبون عن نكاحهن[3].

كما التفت ابن هشام فى إطار النظرية اللغوية العربية لما يشبه هذا الذى توقف عنده الأصوليون، وفسرته النظرية التحويلية بوجود أكثر من بنية عميقة للبنية السطحية، أو وجود بنية واحدة لعدة تراكيب سطحية، ولكن تفسير ابن هشام كان يختلف بطبيعة الحال، عن تفسير التحويليين، فقد التزم بمقولات النظرية النحوية العربية التى ترى أن التحليل اللغوى للجملة أو الإعراب، إنما يقوم على ما يقتضيه المعنى وإلا كان الإعراب أو التحليل غير صحيح. وقد وضع ابن هشام ملاحظاته حول ظاهرة تعدد

---

(١) المستصفى ١/١٥٣.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) د. طاهر حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين ص ١٤٠.

المعنى أو غموضه أو فساد المعنى، كما قال، بسبب من البنية التركيبية تحت عنوان «ذكر الجهات التى يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها»(١).

وقد بدأ ابن هشام هذه الجهات التى بلغت عنده عشر جهات بالجهة الأولى التى يرى فيها أن الإعراب أو التحليل النحوى للجملة ينبغى أن يراعى فيه المعنى أولاً، فقال: «إن أول واجب على المعرب أن يفهم معنى ما يعربه مفرداً أو مركباً»(٢)، لأن تعدد المعنى عنده قد يأتى من اللفظة المفردة ومن التركيب أيضاً، ولهذا رأى أنه لا يجوز إعراب فواتح السور من الحروف المقطعة لأنها من الكلام المتشابه الغامض الذى لا يظهر معناه(٣).

ومن الغموض الذى يقع بسبب المفردات، يقف ابن هشام عند قول زهير:

تقي نقي لم يكثر غنيمة   بنهكة ذي قربي ولا بحقلد

فيرى أن كلمة «حقلد» كلمة غامضة لا ينكشف معها معنى البيت، ومن ثم يصعب إعرابه أو تحليله نحوياً، وهذه الكلمة من الكلمات التى توقف أيضاً عندها البلاغيون ورأوا فيها كلمة غريبة وحشية تؤدى إلى غموض المعنى(٤) ولذلك عندما سئل ابن هشام عن اعراب البيت قال : «حتى أعرف ما الحقلد»(٥).

فلما بحث عنها وجدها بمعنى «سيء الخلق»، فقال، هى معطوفة فى البيت على شيء متوهم، إذ المعنى، ليس بمكثر غنيمة ولا يجشع ولا بحقلد، أى سيء الخلق(٦).

ومثل ذلك فى لفظ «كلالة» فى قوله تعالى ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة﴾ فعندما سئل أحد النحاة عن إعراب هذه الكلمة قال، اخبرونى ما الكلالة فقالوا له: الورثة، إذا لم يكن فيهم أب فما علا ولا ابن فما سفل. فقال، هى إذن تمييز(٧).

والملاحظ أن قوله تعالى ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ أن جملة يورث جملة مبنية للمجهول، أى أن البنية السطحية لها، كما يقول التحويليون مشتقة من جملة أخرى مبنية

---

(١) معنى اللبيب ص ٥٢٧.
(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(٣) المصدر السابق ص ٥٢٨.
(٤) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص ٧٠.
(٥) مغنى اللبيب ٥٢٨.
(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(٧) المصدر السابق، نفس الصفحة.

للمعلوم، وهى التى تمثل البنية العميقة للجملة المبنية للمجهول[1] فإن ذلك يعنى أن هذه الجملة مشتقة من جملة أخرى هى :

١- إن كان رجل يرثه كلالة.

ثم طرأت عدة تحويلات عليها تتمثل فيما يلى :

(أ) حذف الفاعل، وهو كلالة.

(ب) تغيرت صيغة الفعل من المبنى للمعلوم «يرث» إلى المبنى للمجهول «يورث».

(جـ) أصبح الضمير فى محل رفع بعد أن كان فى محل نصب.

(د) استتر الضمير بعد أن كان ظاهراً فأصبحت الجملة.

٢- إن كان رجل يورث..

(هـ) أعيد وضع كلمة «كلالة» فأصبحت تمييزاً بعد أن كانت فاعلاً فى الجملة المبنية للمعلوم فأصبحت الجملة :

٣- إن كان رجل يورث كلالة، على أن تكون كلالة تمييزاً.

ولكن ابن هشام لا يوافق على هذا الإعراب وما يترتب عليه من تحليل للجملة على النحو الذى مضى، ويرى أن اعراب كلالة تمييزاً بعد أن كانت فاعلاً فيه تناقض للغرض الذى حذفت من أجله هذه الكلمة فى الجملة المبنية للمجهول، وهو ما يمثل خروجاً لما بنيت الجملة عليه من عدم ذكر الفاعل فيها. ولذلك لم يقع فى كلام العرب تركيب مثل :

«ضُرب أخوك رجلاً» ببناء الفعل ضرب للمجهول، وهى جملة غير صحيحة نحوياً. ومن ثم يشير ابن هشام إلى ما يسميه التحويليون البنية العميقة، وهى فى نظره أيضاً تمثل المعنى الحقيقى للجملة حيث يرى أن كلمة «كلالة» فى الآية على تقدير مضاف، وبناء على ذلك تكون البنية العميقة عنده :

٤- إن كان رجل يورث ذا كلالة.

ولكنه لا يلتفت إلى أن هذه الجملة مبنية للمجهول، ومن ثم فهى مشتقة من جملة مبنية للمعلوم، وهو تصور واضح أيضاً فى النظرية اللغوية العربية لعلاقة الجملة المبنية للمعلوم بالجملة المبنية للمجهول. ويحلل ابن هشام الجملة طبقاً لعدة احتمالات وهى :

---

(١) Palmer, op. cit., .

(أ) يحتمل أن تكون كان تامة، وفى هذه الحالة تكون جملة يورث صفة، وذا كلالة حال من الضمير فى يورث.

(ب) يحتمل أن تكون كان ناقصة فتصبح يورث خبراً، أو تكون ذا كلالة هى الخبر، وعلى هذا تكون يورث صفة.

(جـ) إذا كانت «كلالة» بمعنى الميت الذى لم يترك والداً ولا ولداً فتكون حيئذ إما حال وإما خبر وفى هذه الحالة لا تحتاج إلى تقدير مضاف.

(د) إذا كانت «كلالة» بمعنى القرابة مطلقاً فهى مفعول لأجله(١) وفى كل احتمال من هذه الاحتمالات، كما رأينا يختلف تركيب الجملة، وبالتالى فإن تعدد المعنى جاء من الكلمة المفردة، ولكنه أدى إلى تغيير التركيب ويتمثل ذلك فى التحليل النحوى الذى يختلف فى كل مرة عن الأخرى.

ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى :

١- ﴿فأماته الله مائة عام﴾.

فإن ظاهر اللفظ، أو بعبارة أخرى، ظاهر التركيب النحوى، يجعل لفظ «مائة» منصوباً بالفعل «أمات» وهذا غير صحيح، مما لا يتفق ومعنى الجملة لأن الإماتة هى سلب للحياة ولا تمتد، والمعنى الصحيح أن أماته هنا بمعنى «ألبثه»، وبناء على ذلك فإن بنية هذه الجملة هى :

٢- فألبثه الله بالموت مائة عام.

فتضمن الفعل أمات معنى ألبث، وأصبحت عبارة «مائة عام» متعلقة بالفعل ألبث من اللبث لا الإلباث، لأن الإلباث كالإماتة فى عدم الامتداد(٢).

وإذا كان ابن هشام قد تعرض لتعدد المعنى بسبب من اللفظة المفردة التى يؤدى تعدد معناها إلى تعدد مبناها، فإنه قد توقف فى باب المنصوبات المتشابهة أمام بعض التراكيب السطحية التى لها أكثر من بنية عميقة، ومن ثم لها أكثر من معنى. من ذلك :

١- قوله تعالى ﴿ولا تظلمون فتيلا﴾.

---

(١) مغنى اللبيب ص ٥٢٩.
(٢) المصدر السابق ص ٥٣٠.

وظاهر اللفظ يدل على معنيين مختلفين حملا على المصدرية أو المفعولية. ويظهر ذلك من خلال البنيتين العميقتين :

(أ) ولا تظلمون ظلماً ما على المصدرية.

(ب) ولا تظلمون خيراً ما.

ومن التراكيب السطحية التى لها ثلاثة معان مختلفة قوله تعالى :

٢- ﴿يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾.

فهو يحتمل المصدرية والحالية والمفعول لأجله، وذلك على النحو التالى:

(أ) يريكم البرق فتخافون خوفاً وتطمعون طمعاً، على المصدرية.

(ب) يريكم البرق خائفين وطامعين، على الحالية.

(جـ) يريكم البرق لأجل الخوف والطمع، على المفعول لأجله.

ومن التراكيب السطحية التى تحتمل أربعة معان :

٣- جاء زيد رغبة[١].

فهو يحتمل المفعول المطلق والإضافة والحالية والمفعول لأجله وذلك على النحو التالى :

(أ) جاء زيد يرغب رغبة، على المفعول المطلق.

(ب) جاء زيدِ مجيء رغبة، على الإضافة.

(جـ) جاء زيد راغباً، على الحالية.

(د) جاء زيد للرغبة، على المفعول لأجله.

وتعدد معانى الجملة الواحدة على هذا النحو الذى أشار إليه ابن هشام يعد من العوامل المؤثرة في صعوبة فهمها أو غموضها سواء أكان ذلك بسبب وجود كلمة تحتمل أكثر من معنى أو لأن للجملة تراكيب عميقة متعددة.

وقد ظهر من تجارب عديدة قام بها بعض علماء علم اللغة النفسى Psy-cholinguistics أن فهم الجملة ذات المعانى المتعددة يستغرق وقتاً أكثر من الجمل ذات

---

(١) المصدر السابق ص ٥٦١ - ٥٦٢.

المعنى الواحد، رغم أن السامع قد لا يلحظ الا معنى واحداً من معانيها[1] لأن السامع حين يستخلص معنى الجملة فإنه يقوم بعملية تحليل لهذه الجملة لكى يتوصل إلى بنيتها العميقة ومن ثم إلى معناها.

فجملة مثل :

١ – أكل الولد الطعام الذى أعدته أمه فى الحديقة.

جملة تحتمل معنيين هما :

(أ) إن أكل الطعام تم فى الحديقة.

(ب) إن اعداد الطعام تم فى الحديقة.

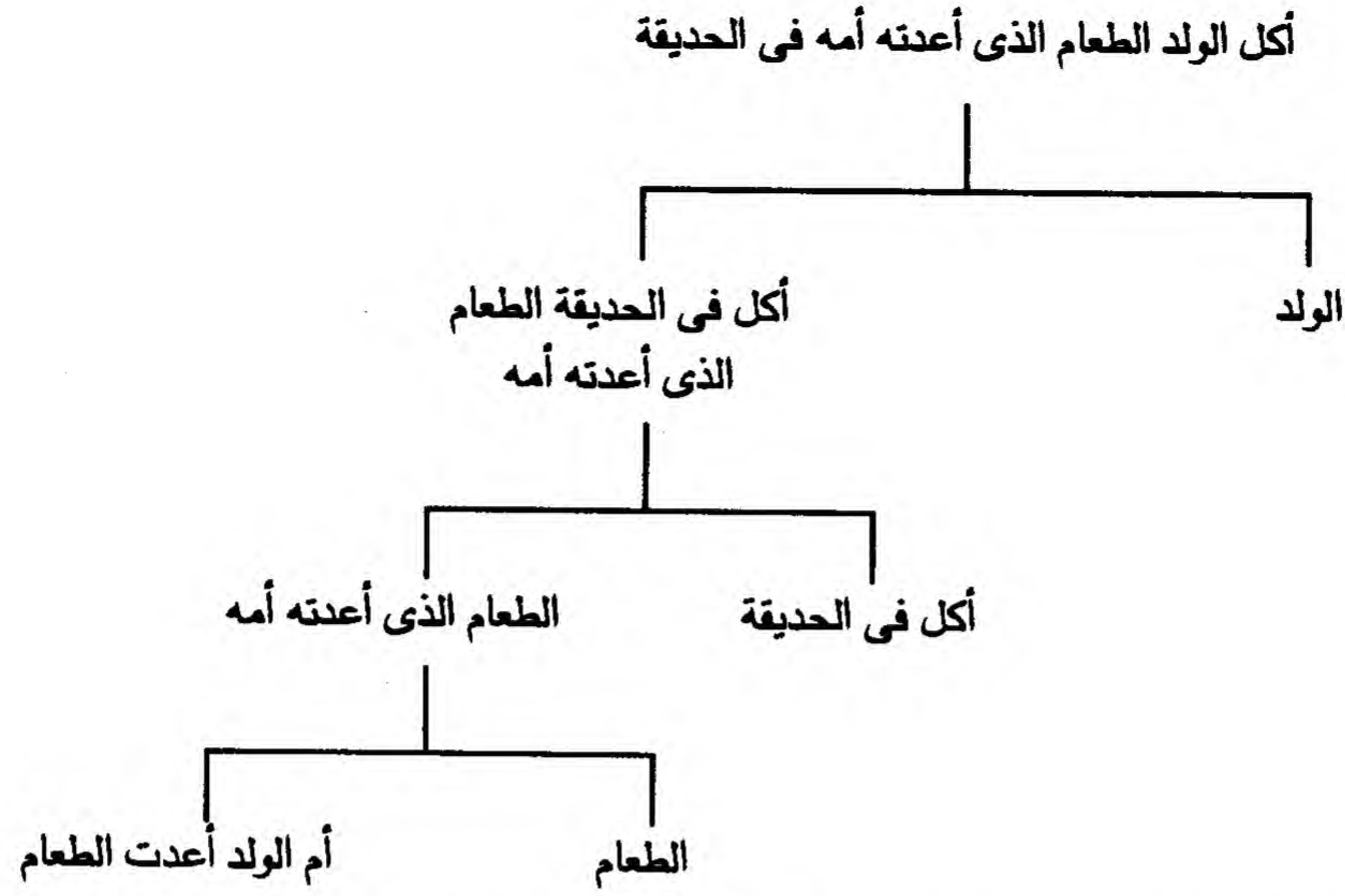
وذلك تبعاً لتعليق الجار والمجرور (فى الحديقة) فإذا تعلق بالفعل أكل فمعناها أن أكل الطعام تم فى الحديقة، أما إذا تعلق بالفعل أعد، فمعنى ذلك أن اعداد الطعام قد تم فى الحديقة.

ووجود معنيين لهذه الجملة وللجمل السابقة التى توقف عندها ابن هشام يدل على أن معنى الجملة لا يتألف، كما يظن البعض، من معانى مفرداتها، بضم معنى كل لفظة منها إلى معنى اللفظة التى تليها بطريقة تسلسلية. وهذا غير صحيح، إذ لو كان الأمر كذلك لما كان لأى جملة سوى معنى واحد لأن ألفاظ الجمل السابقة وما يشبهها لها دلالة واحدة فى الغالب، والذى يدل على أن معنى الجملة ليس محصلة لدلالات مفرداتها المنظومة نظماً طولياً أفقياً، أن السامعين لجملة مثل الجملة السابقة قد يختلفون فى فهم معناها، طبقاً لطريقة تحليل كل منهم لمكوناتها، وهو ما يدل على أن الجمل تركب فى الواقع تركيباً رأسياً طبقة فوق طبقة، ومن هنا نفهم لماذا تحتمل جملة ما أكثر من معنى لأن لها أكثر من تركيب رأسى.

فالسامع الذى يتوصل إلى المعنى الأول مثلاً، أى أن أكل الطعام تم فى الحديقة، يكون قد حلل الجملة على النحو التالى :

---

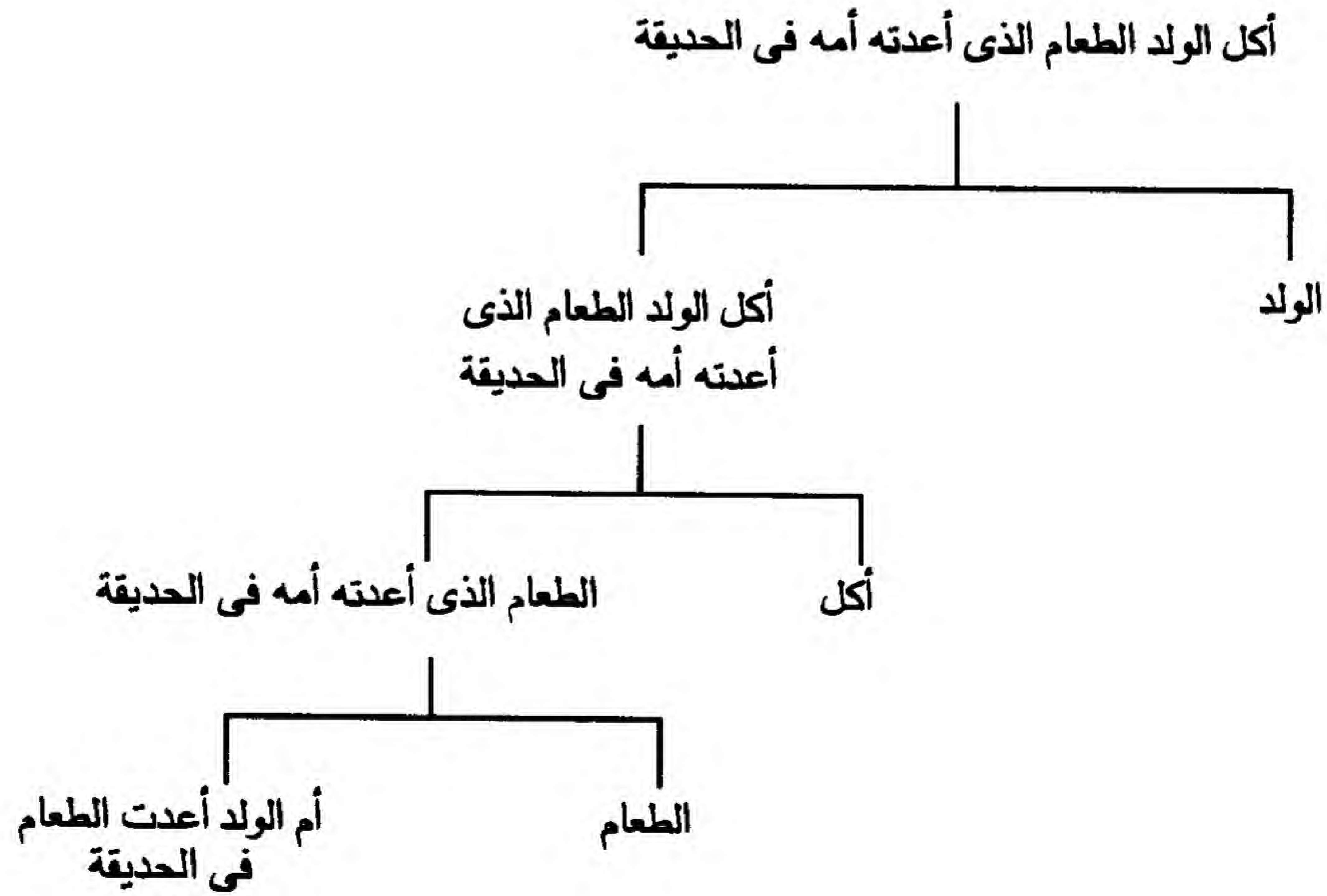
(١) د. داود عبده، دراسات فى علم اللغة النفسى ص ٣٤.



أى أنه قد توصل إلى البنية العميقة الأولى للجملة وهى :

١ - الولد أكل فى الحديقة الطعام (أم الولد أعدت ا لطعام) حيث تقع الجملة التى بين قوسين موقع الصفة للطعام.

أما السا مع الذى يفهم المعنى الثانى وهو أن اعداد الطعام قد تم فى الحديقة فيكون قد حلل الجملة على النحو التالى :



أى أنه قد توصل إلى البنية العميقة الثانية للجملة وهى :

٢- الولد أكل الطعام (أم الولد أعدت الطعام فى الحديقة) .

وقد يتوصل سامع ثالث إلى المعنيين كليهما، ولكنه لابد أن يسأل مستفسراً، هل أكل الطعام هو الذى تم فى الحديقة، أم اعداده(١) .

وهناك نوع آخر من الغموض الذى يقع بسبب من التركيب النحوى وهو ما أطلق عليه البلاغيون مصطلح التعقيد اللفظى وأطلق عليه علماء اللغة والأسلوب المعاصرون مصطلح الجمل المعقدة Complex Sentences(٢) وقد فسر علم اللغة النفسى Psycho-linguistics ظاهرة الغموض فى مثل هذا النوع من الجمل بأنها تحتوى عادة على عدد كبير من المقولات أو الأفكار، ومن ثم يصعب فهمها بنفس السرعة التى تفهم بها الجمل البسيطة التركيب.

فإذا افترضنا أن الجملتين التاليتين على درجة متساوية، من حيث عدد الكلمات ووضوح المفردات، ولا تختلفان إلا فى عدد المقولات، فإن الجملة الثانية تكون أقل وضوحاً من الجملة الأولى لأنها تحتوى على عدد من المقولات أكثر، وذلك على النحو التالى :

١- وصل المسافر إلى المطار قبل الساعة العاشرة صباحاً.

٢- وصل المسافر إلى المطار فى سيارة أجرة قبل موعد اقلاع الطائرة بدقائق.

فسنجد أن الجملة الأولى تتألف من المقولات التالية :

(أ) وصل المسافر.

(ب) الوصول كان إلى المطار.

(جـ) الوصول تم قبل الساعة العاشرة.

(د) الساعة كانت العاشرة صباحاً.

أما الجملة الثانية فتتألف من المقولات التالية :

(أ) وصل المسافر.

(ب) الوصول كان إلى المطار.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) Turner, op. cit., p. 71.

(جـ) الوصول كان فى سيارة أجرة.

(د) الوصول كان قبل موعد اقلاع الطائرة.

(هـ) موعد اقلاع الطائرة كان بعد الوصول بدقائق.

(و) أقلعت الطائرة بعد الوصول بدقائق(١).

ومن الواضح أن استيعاب ست مقولات مختلفة أصعب من استيعاب أربع مقولات أو أفكار مختلفة. ومن ثم رأى علماء علم اللغة النفسى أن جملة مثل الجملة الأولى تكون عادة أوضح فى ذهن السامع أو القارئ من الجملة الثانية وما يشبهها من الجمل.

على ضوء هذا يمكن أن ننظر فى بيت الفرزدق الذى ضرب به المثل فى التعقيد والغموض لأنه جمع بين التعقيد اللفظى والمعنوى، أى من حيث البنية النحوية وكثرة المقولات فيه وهو قوله :

وما مثله في الناس إلا مملكا   أبو أمه حي أبوه يقاربه

والبيت، كما رأينا من قبل، من قصيدة يمدح بها الفرزدق إبراهيم ابن إسماعيل بن هشام المخزومى، وهو خال هشام بن عبد الملك بن مروان، وعلاقة القرابة هذه جزء هام من السياق الذى قيل فيه البيت، وهو ما قد يرفع بعض الغموض الذى أحاط به. وربما كانت هناك قرائن حالية أخرى صاحبت إنشاد الفرزدق للقصيدة التى تضمنت هذا البيت أو للبيت نفسه وكانت من العوامل التى ساعدت على فهم معناه حين إنشاده، ومع ذلك يبقى البيت من حيث البنية النحوية معقداً، ولا يدل ظاهر لفظه على معناه دلالة مباشرة لسببين هما :

١- كثرة المقولات أو الأفكار التى تضمنها البيت.

٢- التركيب النحوى للبيت من حيث كثرة الجمل الأساسية والفرعية والتقديم والتأخير فيها وعودة الضمائر.

أما من حيث كثرة المقولات أو الأفكار التى تضمنها فقد نجد أنه يحتوى على المقولات الآتية إذا أخذنا فى الحسبان السياق الذى قيل فيه البيت، وتتمثل هذه المقولات فيما يلى :

١- لا يوجد فى الدنيا مثل إبراهيم.

---

(١) د. داود عبده، دراسات فى علم اللغة النفسى ص ٢٩.

٢- إذا وجد مثل إبراهيم فلابد أن يكون ملكاً.

٣- جد إبراهيم لأمه هو جد هشام.

٤- أم هشام أخت إبراهيم.

٥- إبراهيم خال هشام.

٦- مازال الجد حياً (أحد معاني كلمة حى)، أو هو يعدل قبيلة بأسرها (معنى آخر من معانى كلمة حى).

٧- إبراهيم وهشام صنوان فى العظمة والملك.

هذه هى المقولات أو الأفكار التى قد يحتوى عليها بيت الفرزدق، اذا ما وصلناه بسياقه، وهى لكثرتها وتعددها تمثل ما أشار إليه القدماء بالتعقيد المعنوى.

أما من حيث التعقيد فى التركيب النحوى للبيت، وهو الشق الثانى من أسباب الغموض فيه فلأنه يتكون من جمل أساسية وأخرى فرعية، بالإضافة إلى التقديم والتأخير، واضطراب عودة الضمائر، وذلك على النحو التالى :

١- جملة أساسية صغرى، وهى «وما مثله فى الناس» حيث يمكن أن تكون «ما» هنا عاملة عمل ليس و «مثل» اسمها، وشبه الجملة متعلق بحذوف خبر ما.

٢- جملة أساسية كبرى، وهى «وما مثله فى الناس إلا مملكاً».

٣- جملة أساسية صغرى وهى، «أبو أمه أبوه» وهى جملة مكونة من مبتدأ وخبر والضمير فى «أمه» يعود على «مملك»، والمقصود به هنا هشام. الضمير فى «أبوه» يعود على إبراهيم، أى أن جد هشام لأمه «أبو أمه» هو إبراهيم.

٤- فصل بين المبتدأ والخبر فى الجملة السابقة بكلمة «حى» التى وصفها بكلمة «يقاربه».

٥- كلمة حى تحتمل معنيين، أحدهما من الحياة، والآخر الحى بمعنى القبيلة.

٦- تكونت جملة ثالثة فرعية هى «حى يقاربه» وهى جملة مكونة من صفة وموصوف.

٧- فصل بين الصفة والموصوف بكلمة «أبوه».

٨- الجملة الكبرى الأساسية، وهى «وما مثله فى الناس الا مملكاً» جملة استثنائية قدم فيها المستثنى، إذ أن أصل الجملة «وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكاً».

على هذه الصورة جمع البيت بين عوامل كثيرة تؤدى إلى غموض المعنى واستغلاقه من حيث عدد الجمل الأساسية والفرعية وطولها ووقوع مكوناتها فى غير موقعها الطبيعى من التركيب نتيجة للتقديم والتأخير، ثم كثرة المقولات والأفكار التى احتوى عليها البيت، وكل هذا أدى فى النهاية إلى غموض المعنى وخفائه.

وقد أجريت فى نطاق علم اللغة النفسى عدة تجارب لدراسة المراحل التى يمر بها السامع حين يسمع الكلام بصورة عامة، والكلام الغامض المعقد بصورة خاصة. وهذه التجارب تثبت أن التراكيب المعقدة مثل بيت الفرزدق، تشكل صعوبة ظاهرة فى عملية الفهم. لأن السامع يمر بعدة خطوات أو مراحل عند سماعه لأى جملة لكى يفهمها وتتلخص هذه الخطوات فيما يلى :

١- تتلقى أذن السامع ما ينطقه المتكلم من أصوات.

٢- يحتفظ السامع بالصورة اللفظية لما يسمعه من كلام فى ذاكرته لتحليله.

٣- يبدأ السامع فى تحليل الألفاظ إلى مكونات جملية فى الوقت الذى تتلقى فيه الذاكرة عبر الأذن مزيداً من ألفاظ الجملة.

٤- يحول السامع كل مكون من مكونات الجملة إلى الفكرة أو المعنى.

٥- يضم المعانى أو الأفكار المختلفة ويؤلف منها معانى مركبة إلى أن يتم تأليف معنى الجملة كاملة.

٦- يتخلص من الصورة اللفظية للجملة ويبقى المعنى فى الذاكرة[١] وأى اضطراب يحدث نتيجة لتعقد التركيب أو طوله أو كثرة الجمل الأساسية والفرعية، يعطل بعض هذه المراحل، وقد يؤدى ذلك إلى تعطيل المراحل الأخرى المترتبة عليها، ومن ثم يحدث عدم الفهم ويقع الغموض فى الكلام. وبيت الفرزدق يصدق عليه ذلك.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤، ٢٥.

خاتمة ونتائج

على هذا النحو، الذى رأينا، درس المفسرون والأصوليون واللغويون والنحاة والبلاغيون ظاهرة غموض المعنى فى الكلام والنصوص الدينية والأدبية. وحاولوا تقنينها وتحليلها، ودلوا على ذلك بمصطلحات عديدة تداخلت واختلفت طبقاً لنظرة كل فريق منهم وتبعاً لاهتمامه، فقد انصب اهتمام أصحاب غريب القرآن على معانى المفردات وقليل من التراكيب فى حين اهتم الأصوليون بالمفردات والتراكيب على السواء اهتماماً ملحوظاً لما لها من أهمية واضحة فى فهم النص القرآنى واستخلاص الأحكام الشرعية من القرآن والسنة، ولذلك تميزت دراستهم للغموض بالدقة القائمة على التحليل اللغوى. واهتم اللغويون بالمفردات دون التراكيب، وتمثل ذلك فى دراستهم لظواهر المشترك اللفظى والترادف والأضداد، بما لها من صلة بتعدد المعنى وغموضه. أما النحاة فقد كان اهتمامهم بالتراكيب أو بالغموض الواقع بسبب التراكيب أكثر من اهتمامهم بالمفردات وإن جاء اهتمامهم بالمفردات تبعاً لدورها فى فهم التركيب النحوى وتحليله. أما البلاغيون فقد درسوا وحللوا المفردات والتراكيب وتجاوزوها إلى الصور المجازية بما لها من صلة بوضوح المعنى أو غموضه.

وكان قطب الرحى الذى دارت حوله دراسة القدماء هو مبدأ الوضوح فى أداء المعنى من ناحية، وصلة ذلك بالافهام والتبليغ، ثم مظاهر الغموض وتفسيره من ناحية أخرى، وصلته بخفاء المعنى وفقدان الكلام لوظيفته الأساسية عندهم، وهى الافادة.

فإذا كان لى أن أرصد أهم النتائج التى أسفر عنها هذا البحث فإنها تتمثل فيما يلى :

أولاً: مفهوم الغموض وأسبابه ومظاهره عند القدماء:

١- الأصل فى الكلام هو الوضوح والبيان، وإلا انتفت الافادة التى هى هدف المتكلم ومقصده، ولذلك دار مفهوم الإتصال أو التبليغ عند القدماء على الوضوح والبيان.

٢- الغموض وخفاء المعنى تعطيل لوظيفة الكلام من حيث إفهام السامع أو القارئ.

٣- يقع الغموض فى الكلام بسبب من المتكلم أو السامع أو الكلام.

٤- يقع الغموض فى اللغة المنطوقة والمكتوبة على السواء.

٥- الغموض هو تطرق الاحتمال إلى المعنى، أو خفاؤه وإبهامه بسبب من الأسباب الآتية:

(أ) البنية الصوتية للكلام، وذلك عندما يتردد عدد من الأصوات المتحدة المخرج أو

المتقاربة المخرج، مما يحول دون انتباه القارئ أو السامع إلى المعنى، أو بسبب من الأداء الصوتى، كما يتمثل فى الوقف والابتداء، أو ما يصاحب الكلام من تنغيم وتلوين صوتى فى أدائه.

(ب) المفردات لتطرق التعدد والاحتمال فى دلالتها، فلا يدرى السامع أو القارئ أى الدلالات المقصودة، أو بسبب من خفاء معناها أو لغرابتها وندرة استعمالها.

(جـ) نظم الكلام، ويتمثل ذلك فى تعقد التركيب النحوى نتيجة لكثرة الجمل الأصلية والفرعية والتقديم والتأخير، وتردد عوة الضمائر، أو تطرق الاحتمال إلى المعنى وتعدده بسبب من بنيته النحوية.

(د) الصور المجازية وعدم دلالتها على المقصود منها، أو لخفاء الدلالة، إما لتعقدها أو لمخالفتها لما جرى عليه العرب فى التشبيهات والإستعارات والكنايات.

٦- يقع الغموض فى اللغة المكتوبة بسبب من التصحيف والتحريف فى الكتابة، إما مقصوداً أو غير مقصود.

٧- استغل الشعراء والكتاب ظاهرة الغموض فى النطق والكتابة استغلالاً فنياً، كما فى التورية والجناس المصحف. وفى اللغز والتعمية. كما استغله بعض العلماء استغلالاً نفعياً، كما فعل ابن دريد فى كتابه الملاحن.

ثانيا: الغموض بين القدماء والمحدثين:

١- اشترك القدماء والمحدثون فى الاهتمام بظاهرة غموض المعنى وخفائه على مستوى الأصوا ت والمفردات والتراكيب.

٢- ما أسماه علماء اللغة المحدثون بالتداخل الصوتى Interferance أو النقل الصوتى Transfere، والذى يؤدى أحياناً إلى غموض الكلام أو اختلافه عن قصد المتكلم، تمثل عند القدماء فى اللكنة التى ظهرت على ألسنة الأعاجم والمولدين بعد الفتح الإسلامى، وهو ما أشار إليه الجاحظ ووصف مظاهره.

٣- الغموض الذى يقع بسبب من الأداء الصوتى وتمثل عند المحدثين من علماء اللغة والأسلوب فى النبر والتنغيم والفواصل وغيرها من الملامح الصوتية، أشار إلى مثله القدماء فى حديثهم عن الوقف والابتداء والتلوين الصوتى فى أداء بعض العبارات، وأضاف البلاغيون إلى ذلك البنية الصوتية للكلام وعلاقتها بغموض المعنى.

٤- ما أطلق عليه علماء اللغة والمحدثون الامتداد الدلالى Semantic Extension وهو ما يؤدى إلى غموض المعنى على مستوى دلالة المفردات، تمثل عند

القدماء فى دراستهم للترادف والمشترك اللفظى والأضداد والمجاز من حيث هى ظواهر تؤدى إلى تعدد معنى الكلمة وغموضها.

٥- اشترك القدماء والمحدثون فى الاهتمام بالتركيب النحوى وعلاقته بغموض المعنى، وتمثل ذلك عند البلاغيين فى دراستهم لمظاهر التعقيد اللفظى والمعنوى، وعند النحاة فى اللبس وأمن اللبس. وهو ما أشار إليه المحدثون بمصطلح الغموض النحوى Grammatical Ambiguity أو الجمل المعقدة Complex Sentences .

٦- درس المحدثون من علماء اللغة والأسلوب غموض المعنى بسبب من التركيب الدلالى Structural Semantics للجملة. وتمثل ذلك فى بعض التراكيب الصحيحة نحوياً، ولكنها غامضة أو غير مفهومة دلالياً. واكتفى القدماء بالإشارة إلى أمثلة لهذا اللون من الغموض.

٧- اتفق القدماء والمحدثون على أهمية السياق ودوره فى رفع الغموض وتحديد المعنى.

فإذا كان ثمة جدة فى هذا البحث فإنه قد أبرز، لأول مرة، فيما أعلم، جهود العرب فى دراسة ظاهرة من الظواهر اللغوية، يظن كثير من علماء اللغة والأسلوب فى الغرب أنهم أبناء بجدتها.

والله من وراء القصد، منه الهدى والتوفيق،،،

ملاحق الكتاب

١- معجم المصطلحات الدالة على الغموض عند القدماء

الهمزة :

الإبهام
الإشارة
الأضداد
الإغلاق
الإلغاز

الباء :

البعيد

التاء :

التحريف
الترادف
التصحيف
التعريض
التعقيد اللفظى
التعقيد المعنوى
التعمية
التقعير
التكلف
التلويح
التورية

الخاء :

الخفاء

الراء:

الرمز

العين :

العويص

الغين :

الغرابة
الغريب
الغموض

الكاف :

الكناية

اللام :

اللبس
اللغز

الميم :

المبهم
المترادف
المتشابه
المتضاد
المتواطئ
المجمل
المحاجاة
المحتمل
المرموس
المستبهم
المستغلق
المشترك
المشكل
المعاظلة
المعمى

الواو :

الوحشى

٢- معجم المصطلحات الأجنبية

(A)

Absolute sononymy	ترادف مطلق
Adjective	صفة
Allographeme	صورة خطية

(B)

Ambiguity	الغموض
Auxiliary verb	فعل مساعد

(C)

Social dialect	لهجة اجتماعية
Collection	تلازم
Complex sentence	جملة معقدة
Connotation	الدلالة الهامشية
Consonant	صامت
Context	سياق
Context of situation	المقام
Contextual determination	التحديد السياقى للدلالة
Co-occurrance	التلازم فى الظهور

(D)

Deep structure	بنية عميقة
Denotation	الدلالة الأصلية
Designation	الدلالة المركزية
Direct sense	المعنى المباشر
Discourse medium	الوسط الكلامى
Discourse participation	المشاركون فى الكلام
Distinctive Features	

Double grammar	الملامح المميزة
Drived	ازدواج فى التركيب النحوى
Duality of structure	مشتق
(F)	ثنائية التركيب
Field	
Full contradiction	مجـال
(G)	تناقض تام (تعارض تام)
Grammatical	
Grammatical Ambiguity	صحيح نحوياً
Grapheme	الغموض النحوى
Graphemes	وحدة خطية
(H)	علم الخط
Historical linguistics	
Homography	علم اللغة التاريخى
Homonymy	المشترك الكتابى
(I)	المشترك اللفظى
Idiom	
Inffixe	عبارة اصطلاحية (عبارة
interferance	مصكوكة)
Intonation	مقحمة
(J)	التداخل اللغوى
Juncture	التنغيم
(K)	
Kinesics	فاصلة
(L)	
Lexeme	علم الحركة الجسمية
Lexical meaning	

Linguistic context
Loudness
(M)
Morpheme
(N)
Near synonymy
(O)
Oppositional features
(P)
Phoneme
Phonetical alphabet
Polysemy
Prefixes
Psycholinguistics
Punctuation
Pure-synonymy
(R)
Regional dialect
Rhythm
(S)
Semantic relations
Sememe
Simple sentence
Situational context
Sociolinguistics
Speech event
Speed

وحدة معجمية
المعنى المعجمى
السياق اللغوى
العلو الصوتى

مورفيم

الترادف النسبى

القيم الخلافية

الفونيم
الألف باء الصوتية
تعدد المعنى
سوابق
علم اللغة النفسى
علامات الترقيم
الترادف التام

لهجة اقليمية
ايقاع أو وزن

العلاقات الدلالية
وحدة دلالية (دلاليم)
جملة بسيطة

Spoken Language
Stress
Structural semantics
Subdued metaphor
Suffexes
Surface meaning
Surface structure
Syntax

(T)

Tenor
Transfer
True ambiguity

(U)

Unambiguous
Underlying meaning
Underlying structure

(V)

Variation
Vowel

(W)

Written Language

قرائن الحال
علم اللغة الاجتماعى
الحدث الكلامى
سرعة الكلام
اللغة المنطوقة
النبر
علم الدلالة التركيبى
استعارة معقدة
لواحق
دلالة سطحية
البنية السطحية
النحو (التركيب)
وسيلة
نقل الأصوات
غموض حقيقى
غير غامض
دلالة عميقة
البنية العميقة
تنوع
صائت
اللغة المكتوبة

- المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

الآمدي، أبو القاسم الحسين بن بشر بن يحيي

- الموازنة، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

بيروت، المكتبة العلمية، نسخة مصورة عن طبعة مصر، بدون تاريخ.

الآمدي، سيف الدين أبو الحسن علي

- الإحكام فى أصول الأحكام

القاهرة، دار الكتب الخديوية، مطبعة المعارف ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤م.

إبراهيم أنيس (دكتور)

- دلالة الألفاظ

القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط. الرابعة ١٩٧١م.

أحمد مختار عمر (دكتور)

- من قضايا اللغة والنحو

القاهرة، عالم الكتب ١٩٧٤م.

الأنباري، محمد بن القاسم

- الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم

الكويت، دائرة المطبوعات و النشر ١٩٦٠م.

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب

- اعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر

القاهرة، دار المعارف ط. الثالثة ١٩٧٢م.

الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب

- البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون

القاهرة، مكتبة الخانجى ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م.

- الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون

القاهرة، مكتبة مصطفى البابى الحلبى ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥م.

الجرجاني، عبد القاهر

- دلائل الإعجاز، وقف على تصحيح طبعه السيد رشيد رضا

بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، نسخة مصورة عن طبع مصر، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م.

الجرجاني، علي بن عبد العزيز

- الوساطة بين المتنبى وخصومه

تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، وعلى محمد البجاوى القاهرة، دار إحياء الكتب العربية ط. الثالثة بدون تاريخ.

ابن جني، أبو الفتح عثمان

- الخصائص، تحقيق محمد على النجار

القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥م.

- سر صناعة الاعراب، تحقيق د. حسن هنداوى

دمشق، دار القلم ط. أولى ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

جون ليونز

- نظرية تشومسكى اللغوية، ترجمة وتعليق حلمى خليل

الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية ط. أولى، ١٩٨٥م.

أبو حاتم الرازي، أحمد بن حمدان

- كتاب الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية

عارضه بأصوله وعلق عليه حسين بن فيض الله الهمدانى

القاهرة، مطابع دار الكتاب العربى الجزء الأول ١٩٥٧ من مطابع الرسالة الجزء الثانى ١٩٥٨م.

حلمي خليل (دكتور)

- الكلمة، دراسة لغوية معجمية

الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

حمزة الأصفهاني، أبو عبد الله بن الحسين

- كتاب التنبيه على حدوث التصحيف، تحقيق محمد أسعد طلس، مراجعة أسماء الحمصى وعبد المعين الملوحى

دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.

أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس

- مثالب الوزيرين، تحقيق د. إبراهيم الكيلانى

دمشق، دار الفكر، ١٩٦١.

الخليل بن أحمد الفراهيدي

- العين، تحقيق د. عبد الله درويش

بغداد، مطبعة العانى الجزء الأول ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧م.

داود عبده (دكتور)

- أبحاث فى اللغة العربية

بيروت، مكتبة لبنان ١٩٧٣م.

- دراسات فى علم اللغة النفسى

الكويت، مطبوعات جامعة الكويت ١٩٨٤م.

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي

- كتاب الملاحن، صححه وعلق عليه ابراهيم طفيش الجزائرى

القاهرة، المطبعة السلفية ١٣٤٧ هـ .

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد

- المفردات فى غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلانى

بيروت، دار المعرفة، نسخة مصورة عن طبع مصر بدون تاريخ.

ابن رشيق، أبو علي الحسن

- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد

بيروت، دار الجيل ط. الخامسة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.

الرضي الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن

- شرح الكافية فى النحو

بيروت، دار الكتب العلمية، طبعة مصورة عن طبعة مصر، بدون تاريخ.

رمضان عبد التواب (دكتور)

- فصول فى فقه اللغة

القاهرة، مكتبة دار التراث، ط. أولى ١٩٧٧م.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله

- البرهان فى علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم

بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر

نسخة مصورة عن طبعة مصر، بدون تاريخ

ابن سنان الخفاجي، محمد عبد الله بن محمد بن سعيد

- سر الفصاحة

بيروت، دار الكتب العلمية ط. أولى ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر

- الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون

القاهرة، دار القلم، الجزء الأول ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦م.

السيد أحمد خليل (دكتور)

- دراسات فى القرآن

القاهرة، دار المعارف ١٩٧٢م.

السيد عبد الغفار (دكتور)

- التصور اللغوى عند الأصوليين

الرياض، مكتبة عكاظ، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.

ابن سيده، أبو الحسن علي بن اسماعيل

- المخصص

بولاق، المطبعة الكبرى الأميرية ١٣١٦هـ.

السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله

- شرح كتاب سيبويه، حققه وقدم له وعلق عليه د. رمضان عبد التواب و د. محمود فهمى حجازى، د. محمد هاشم عبد الدايم

القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الأول ١٩٨٦م.

السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر

- الاتقان فى علوم القرآن

بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، نسخة مصورة عن طبيعة مصر بدون تاريخ.

- المزهر فى علوم اللغة وأنواعها. تحقيق محمد أحمد جاد المولى بالاشتراك مع آخرين.

القاهرة، دار احياء الكتب العربية، بدون تاريخ.

- همع الهوامع، تحقيق عبد السلام هارون و د. عبد العال سالم مكرم.

الكويت، دار البحوث العلمية ١٣٩٥ - ١٤٠٠ هـ/ ١٩٧٥ - ١٩٨٠م.

الشافعي، محمد بن ادريس

- الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر

القاهرة، مطبعة البابى الحلبى ١٣٥٨ هـ/ ١٩٤٠م.

صفي الدين الحلي، عبد العزيز بن سرايا بن علي

- شرح الكافية البديعية، تحقيق د. نسيب نشاوى

دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

طاهر حمودة (دكتور)

- دراسة المعنى عند الأصوليين

الإسكندرية، الدار الجامعية للطباعة والنشر ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

أبو عبيدة، معمر بن المثني التميمي

- مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلق عليه د. محمد فؤاد سزكين

القاهرة، مكتبة محمد سامى أمين الخانجى ط. أولى ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٤م.

ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله

- شرح الألفية، تحقيق وشرح محمد محيى الدين عبد الحميد

التراث العربى، الطبعة العشرون، الثالث والرابع ١٩٨٠م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد

- المستصفى فى علم الأصول

مصر، المكتبة التجارية، الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧م.

- مشكاة الأنوار، تحقيق وتقديم د. أبو العلا عفيفى

القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤م.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا

- الصاحبى، تحقيق السيد أحمد صقر

القاهرة، مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٩٧٧م.

فاطمة محجوب (دكتور)

- دراسات فى علم اللغة

القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٧٦م.

فك، يوهان

- العربية، دراسة فى اللغة واللهجات والأساليب

ترجمة وتعليق د. رمضان عبد التواب

القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٧٦م.

الفراء، أبو زكريا يحيي بن زياد

- معانى القرآن

تحقيق أحمد يوسف بخاتى ومحمد على النجار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الأول، الطبعة الثانية ١٩٨٠م - الجزء الثانى بتحقيق محمد على النجار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة ١٩٦٦، والجزء الثالث بتحقيق د. عبد الفتاح اسماعيل شلبى، مراجعة على النجدى ناصف. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

فندريس، ح

- اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص

القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٠م.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم المروزي

- تأويل مشكل القرآن، شرحه ونشره السيد أحمد صقر

بيروت، المكتبة العلمية، الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.

نسخة مصورة عن طبعة مصر.

- الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر

القاهرة، دار التراث العربى ط. الثالثة ١٩٧٧م. جزءان.

القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن

- التلخيص فى علوم البلاغة، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقى

بيروت، دار الكتاب العربى ط. الثانية ١٣٥٠ هـ/ ١٩٣٥م.

كراع، أبو الحسن علي بن الحسن الهنائي

- المنجد فى اللغة، تحقيق د. أحمد مختار عمر وضاحى عبد الباقى

القاهرة، عالم الكتب ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦م.

كريستل، دافيـد

- التعريف بعلم اللغة، ترجمة حلمى خليل

الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م.

ابن مالك، محمد عبد الله

- متن الألفية

بيروت، دار القلم ط. أولى ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م.

المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد

- الكامل فى اللغة والأدب

بيروت، مؤسسة المعارف، بدون تاريخ

محمود السعران (دكتور)

- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربى

الإسكندرية، دار المعارف ١٩٦٢.

محمود فهمي حجازي (دكتور)

- علم اللغة العربية

الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٣م.

محمود فهمي زيدان

- فى فلسفة اللغة

بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

المرزباني، أبو عبد الله محمد بن موسي

- الموشح، تحقيق على محمد البجاوى

القاهرة، دار النهضة ١٩٦٥م.

نهـاد الموس (دكتور)

- نظرية النحو العربى فى ضوء مناهج النظر اللغوى الحديث

بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط. أولى ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م.

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهيل

- الفروق فى اللغة

بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧١م.

بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الثانية ١٩٨٤م.

ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش

- شرح المفصل

بيروت، عالم الكتب، نسخة مصورة عن طبعة مصر، بدون تاريخ.

ثانياً: الـدوريـــات

المجلة العربية للعلوم الإنسانية.

جامعة الكويت، المجلد الثالث، العدد العاشر ١٩٨٣م.

مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الثالث ١٩٨٤م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية

Bolinger Dwight

Meaning and form

Longman, Group, Ltd, 1977

Chomsky Noam

Language and mind

New York. 1972

Syntactic Structures

Mouton, The Hague. 1957

Topics in the theory of generative grammer, in T. A sebeok (ed) current Trends in linguistics.

The Hague, Paris, 1966.

Crystal David

Linguistics

Penguin Books, London - 974.

Dozy, R.

Supplement aux Dictionnaires Arabes paris, 1927 2. ed.

Ducrot, Oswald and Todorov, Tzvetan

Encyclopedic Dictionay of the sciences of language.

Translated by Cathrine Porter. Blackwell Publisher,

Oxford 1981.

Empson, w.

Seven Types of Ambiguity, Pelican Books, 1972.

Hartmann, R. R. K. and Stork F. C.

Dictionary of Language and Linguistics London 1972.

Leech Geoffrey

Semantics

Pelican Books, London 1976.

Lyons, John
Semantics
Cambridge university Press
London 1977
Two vols.
Palmer Frank
Grammer
Pelican Books, London 1976.

Trudgill Peter

Sociolonguistics, An Introduction To Language And Society.
London, Penguin Books, 1983.
Tuner, J. W.
Stylistics
Pelican Books, London, 1977.
Zgusta, Ladislav
Manual of Lexicography Mouton. The Hague, Paris, 1971.

فهرس الموضوعات